Digitized by Birzeit University Library

SPC
DS
227
B33
1978
Bzu

توازن النقائض

مُحَاضَرات فِي الجَاهليّة وَصَدر الإسْلام

الدكتور سليمان بشير

BIRZEIT UNIVERSITY
١٨٠١٩

Digitized by Birzeit University Library

جميع الحقـــوق محفوظـــــة

القـــــدس

١٩٧٨

٢٠٢٨١٠

Digitized by Birzeit University Library

موضوعـــات الكتـــاب :

- تقديـــــم
- المعطيـــات الاساسيـــــة
- المراكز الحضارية الاولى على أطراف الجزيرة العربية
- على طريق القوافل التجارية ـــ مكة
- قريش ـــ مجتمع الاستقرار الحضاري والسياسي
- المجتمع القبلي في الجزيرة العربية قبل الاسلام
- الدعوة الاسلامية وتوازن النقائض التاريخي
- حفظ التوازن ومسألة الخلافة في الاسلام
- أختلال التوازن ـــ حروب الـــردة
- الفتوحـــات الاسلاميـــــة
- حفظ التوازن وبناء الدولـــة الاداري
- اختلال التوازن ـــ الفتنة على عثمان والصراع بين علي ومعاويـــة .

Digitized by Birzeit University Library

مقدمـــــة

primary

هذا الكتاب هـــو في الاساس سلسلة من المحاضرات التي كنت قد القيتها خلال فترة تدريسي لمادة التاريخ العربي في جامعة بيرزيت بين السنوات ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨ . وقـــد تبلورت فكرة جمع وتدوين المواد التي اعتمدت عليها في تلك المحاضرات ونشرها بالشكل الحالي خلال الصيف الماضي .

ومع شعوري العميق بالامتنان للدعم الذي لاقته هذه الفكرة لدى الكثير من زملائي الذين انطلقوا في ذلك من حرصهم على تشجيع البحث والفهم العلميين لقضايا التاريخ السياسي والاجتماعي للعرب ، فان الفضل الاكبر يعود الى الاسئلة والنقاشات التي كانت لطلابي والتي أغنت البحث في تلك القضايا وبلورت فهمها بالشكل الذي يجده القارىء في هذا الكتاب .

ولا ادعي كون هذه الدراسة توفي البحث في تاريخ العرب في الجاهلية وصدر الاسلام حقه . فالقارىء العربي يدرك كون مجهود المؤرخين العرب المعاصرين لا يزال في الجنين اذا ما قورن بأبحاث المستشرقين الاجانب ودراساتهم في هـــذا المجـــال .

وانطلاقا من هذه النقطة الاخيرة أود التأكيد على القضايا المنهجية التالية :

أولا : كون البحث العلمي في التاريخ يشكل عملية تراكم مستمرة في محاولتنا استخلاص خبرات الماضي الذي يرتبط بدوره ويؤثر في الحاضر . فالفهم العلمي لخبرات الماضي يعكس بدوره خبراتنا ومقاييسنا المتراكمة نحن بحيث تشكل دراسة التاريخ محاولة لربط الماضي بالحاضر عن طريق وعينا لذلك الحاضر من منظور تلك الخبرة . كما أن ذلك

Digitized by Birzeit University Library

الفهم العلمي ينطلق من فرضية كون التاريخ علية تحول متراكمة يشارك البشـــر في صنعها بأعمالهم وارتباطاتهم ومعتقداتهم التي تتم وتنمو في حيز من المعطيات الاساسية التي تخضع بدورها لقوانين علمية تربط بين تلك الاعمال والاطر والمعتقدات بعلاقة سببية واعية .

ثانيا : من ذلك يتضح ايضا كيف أن فهم العربي ووعيه لتاريخه يرتبطان بمسألة تكوينه في الحاضر ويؤثران في وعيه لهذا التكوين ايضا . كما يتضح ايضا كون دراسة ذلك التارخ تشكل جزءا من عملية تراكم ونمو في كل من هذا التكوين وذلك الوعي الحضاريين .

ثالثا : ولما كانت غالبية كتب التاريخ العربية ذات طابع تقريري وغيبي في الاساس ، يحصر اعمال البشر في دوافع (واحيانا نوايا) خارجة عن قدرة البشر على فهمها وتقييمها ، فقد تعمدت أن تبحث هذه الدراسة في تلك الاعمال في اطار كثافتها التاريخية ، اي في حيز معطيات البيئة والمناخ والموقع الجغرافي والمصالح الاقتصادية والتشكيلات الاجتماعيـــة والمعتقدات والبنى الذهنية التي تنتج عنها وتعكسها من ناحية ، والتي تمكننا العلوم الاجتماعية المعاصرة من فهمها وتقييمها بشكل علمي من الناحية الاخرى .

ولا اريد هنا استباق طرح القضايا التي تعالجها هذه الدراسة قبل اطلاع القارىء عليها . ومن الناحية الاخرى فان حصر كتابة التاريخ في اعطاء الجانب التقريري لحوادثه المتفرقة دون الربط بين تلك الحوادث بعلاقة سببية معينة ، يفقد مسألة الفائدة المؤملة من دراسة التاريخ بفقدانه كون الحدث التاريخي تجربة بشرية لها خبرتها ومدلولاتها ، ويعجز عن أخذ الذاكرة البشرية كعامل هام في عملية صنع ذلـك الحـــدث .

ومن هذا المنطلق يتضح كيف أن ظاهرة نشوء المراكز الحضارية الاولى عن اطراف الجزيرة العربية يجب أن ترتكز على دراسة المقومات التاريخية لتلك الظاهرة ،

Digitized by Birzeit University Library

كالبيئة المناخية (التي حتمت نشوء تلك المراكز في الواحات وحول ينابيع المياه واعتمادها على السري الصناعي في زراعتها) ، والموقع الجغرافي (الذي حتم أن تنشأ تلك المراكز كمحطات على طريق قوافل تجارة الترانزيت الدولية، الامر الذي يفسر بدوره دخولها في صراعات المصالح وموازين القوى الدولية التي اثرت في حياتها السياسية) ، والطابع القبلي لتركيبة المجتمع الرعوي في قلب الجزيرة العربية (الذي شكل المادة البشرية لنشوء تلك المراكز واثر في تطورها السياسي والاجتماعي ايضا) .

وعلى هذه الخلفية يمكن دراسة الدور السياسي الذي كان لمكة على مستوى الجزيرة العربية قبل الاسلام من ناحية ، وطبيعة بنية قريش الاجتماعية التي افرزها الاستقرار والنشاط التجاري من الناحية الاخرى ، والنظر الى تلك البنية وذلك الدور كخلفية لتطور المعتقدات الدينية التي تحتمت عنها .

وهذا بدوره يشكل مدخلا هاما لدراسة الظروف التاريخية التي ظهرت فيها الدعوة الاسلامية ، وعلاقة التوحيد بمسألة وحدة الجزيرة العربية السياسية ، وانعكاس مجتمع المعاملات التجارية الحضاري في مكة من ناحية وضرورة ضرب العصبية القبلية والمعتقدات الوثنية في مسألة العقلانية والفردية والايجابية والنسبية في الاسلام .

وعلى خلفية فهم الدعوة الاسلامية في اطار نشوءها داخل المجتمع المكي ذي الدور السياسي الخاص على مستوى الجزيرة العربية الرعوية والقبلية يمكن فهم ميزان التناقضات والصراعات التي نشأت داخل الدعوة الاسلامية بتداخل بنية ذلك المجتمع والدور السياسي الذي لعبته الدولة الاسلامية ليس على مستوى بيئتها القبلية في الجزيرة فحسب بل وعلى مستوى المنطقة ككل .

والبحث في هذه القضايا الاجتماعية والسياسية والدينية في كيان حي وفاعل يرتبط بدراسة قضايا الدور التاريخي

Digitized by Birzeit University Library

الذي تلعبه المدينة العربية بشكل عام في حياة الدولة ووحدتها السياسية ، وعلاقة المدن العربية ببيئتها الرعوية والريفية وتأثير تلك العلاقة على قضايا تطور علاقات الملكية العقارية والبنى العشائرية التي تنشأ في تلك البيئة أيضا ، والتي تشكل بدورها مدخلا هاما لدراسة قضايا تطور المجتمع العربي المعاصرة أيضا .

واذا وفقت هذه الدراسة في سد بعض الفجوات التي لا تزال قائمة في مجال البحث في قضايا التطور السياسي والاجتماعي للعرب ، فان ما تطمح اليه في الاساس هو أن تكون حافزا للمزيد من الدراسات في ماضي ذلك التطور وحاضره على حد سواء .

سليمان بشير

القدس ، تشرين ثاني ١٩٧٨

Industrial Irrigation

Digitized by Birzeit University Library

المعطيـات الاساسيـة :

حتى اكتشاف البترول ووسائل النقل والاتصال الجوية الحديثة في القرن العشرين ، بقيت البيئة المناخية والموقع الجيو — ستراتيجي أهم العوامل التي حددت مسار تاريخ المشرق العربي السياسي وتطوره الاجتماعي والاقتصادي على مر العصور .

وبالنسبة لعامل البيئة المناخية فان الجفاف هو أهم ظاهرة يجب أخذها بعين الاعتبار وكون تسعين بالمئة من مساحة المنطقة جافة أو شبه جافة حتم أن تظهر مراكز الاستقرار الحضاري الاولى في مناطق الواحات والينابيع وعلى طول الشريط الدقيق لسواحل الجزيرة العربية والبحر المتوسط . لذلك نجد أن الاراضي الصالحة للزراعة لا تتجاوز ٥ — ٦ بالمئة من مساحة المنطقة . كما أن خمس هذه المساحة الضيقة تحتاج الى ري صناعي ، الامر الذي أثر بالضرورة على البنية الاجتماعية والتركيبة السياسية للشعوب التي سكنت المنطقة في فترة ما قبل الاسلام .

ومع أننا سنولي اهتمامنا هنا الى الدور الذي لعبه الري الصناعي في ظهور أولى الممالك والانظمة المركزية في اليمن حيث سد مأرب وفي واحات متفرقة أخرى كيثرب (المدينة) فان دراسة وافية للاطر الاجتماعية والسياسية التي يفرزها النمط الاسيوي في الانتاج تحتم دراسة شبكات الري من القني والسدود والاحواض التي اقامها الفراعنة والاشوريون والبابليون والفرس والرومان وتقصي الدور الذي لعبه الري الصناعي في ظاهرة توزيع العمل والسلطة في تلك الممالك .

بالاضافة الى ذلك فان مراكز الاستقرار الحضاري في المنطقة تأثرت منذ فجر التاريخ بموقع المنطقة الجغرافي — استراتيجي كحلقـة اتصال هامـة على خطوط التجارة.

Digitized by Birzeit University Library

الدولية وكمنفذ وحيد يربط بين شطري العالم القديم وذلك لوجود هضبة الاناضول وجبال أورال والمنطقة المتجمدة الشمالية من ناحية ومجاهل افريقيا الاستوائية من الناحية الاخرى كحواجز طبيعية صعبة . وقد تحتمت عن ذلك عدة نتائج هامة من وجهة نظر دراسة تاريخ المنطقة السياسي :ـ

الاولى : ان المنطقة اصبحت ما يمكن الاصطلاح عليه بـ « طريق الامبراطوريات » . بمعنى أن السيطرة عليها أصبحت أمرا ضروريا لكل القوى السياسية والامبراطوريات التي طمحت الى توسيع نفوذها أو حتى المحافظة على ذلك النفوذ . الامر الذي حتم أن يتميز تاريخ هذه المنطقة بكونها مصطرعا لتلك القوى على مر العصور .

الثانية : (والتي تنبع حتما من الاولى) أن جميع ممالك ودول المنطقة كانت تجد نفسها جزءا من ميزان قوى وتحالفات دولية نبعت عن صراع تلك الامبراطوريات من أجل تلك السيطرة وارتبطت به في علاقاتها مع بعضها البعض .

لا حاجة الى القول بأن اخذ هاتين النقطتين بعين الاعتبار يشكل احد المداخل الهامة لدراسة وتتبع تاريخ المنطقة السياسي منذ الفترة الاشورية الفرعونية مرورا بالفرس فاليونان والرومان حتى الفترة الحديثة . كما أنه يساعدنا على دراسة تاريخ الممالك والكيانات السياسية المختلفة في المنطقة وعلاقتها ببعض وبتلك القوى الخارجية ابتداء بالسبأيين وحتى يومنا هذا . والنتيجة المنطقية الثالثة التي تتحتم عن كل ذلك هي أن أية محاولة محلية لتوحيد المنطقة كانت دائما ، ولا تزال ، تصطدم بمصالح ونفوذ تلك القوى وانهيار هذه الاخيرة وتقليص نفوذها (بالنسبة لاوروبا العصور الوسطى على الاقل) عقب الفتوحات الاسلامية . كما ينطبق أيضا على جميع المحاولات اللاحقة منذ ذلك الوقت وحتى فترة محمد علي في القرن التاسع عشر أو قل حتى صعود المد الوحدوي في الخمسينات والستينات من القرن الحالي .

Digitized by Birzeit University Library

هـذا على المستوى السياسي . وعلـى المستوى الاقتصادي والاجتماعي فان جفاف المنطقة من ناحية ووقوعها على خطوط التجارة الدولية من الناحية الاخرى ادى الى أن تنشأ المراكز الحضارية الاولى فيها كمحطات على طريق قوافل تجارة الترانزيت وحيث توفر الماء في الاساس . وهذا بدوره هو ما يفسر وجود قطاع الخدمات العريض كمميز لطابع اقتصاد المدينة العربية الاستهلاكي في الاساس وتحول تلك المدينة الى مركز اداري سلطوي يمتص فوائض منتجات بيئتها الريفية ويوفر الامن والاستقرار للخطوط التجارية .

هذه النقطة الاخيرة تشكل مدخلا اساسيا لدراسة نمط الانتاج العربي وعلاقة المدينة العربية بمحيطها الريفي . والمقارنة السطحية بين الاقطاع الاوروبي وما اصطلح على تسميته « بالاقطاع » عند العرب تكفي لاثبات كيف ان المدينة العربية لم تختف حتى في احلك عصور الانحطاط والركود الاقتصاديين بعكس ما حصل في أوروبا القرون الوسطى . كما أن ذلك يفسر أيضا كيف أن هذا التمازج بين قطاع الخدمات في المدينة — المركز الاداري وبين البيئة الريفية ادى الى أن يتم تحديد علاقات الملكية على الارض في المدينة ذاتها . وكيف ان تلك الاخرى لم تشكل ظاهرة اقتصادية واجتماعية جديـدة اي انها لم تحمل بـذور علاقات انتاج جديدة وتتصارع مع تلك البيئة الريفية سياسيا وتتبادل معها اقتصاديا حيث يتـم تركيز فوائض الانتاج الزراعي فيها في عملية تراكم اولي كما حدث في أوروبا قبيل الثورة الصناعية .

Digitized by Birzeit University Library

المراكز الحضارية الاولى على أطراف الجزيرة العربية :

مما قيل حتى الان نستنتج أن الجفاف من ناحية والموقع الجغرافي — استراتيجي من ناحية اخرى حتما أن تنشأ مراكز الاستقرار الحضاري العربية الاولى كمحطات على خطوط قوافل التجارة الدولية المارة على أطراف الجزيرة العربية ، وان يتميز اقتصاد تلك المراكز بتمازج منسجم ومتكامل بين تجارة المدن وزراعة الريف (كما في اليمن ويثرب وبعض المناطق الساحلية) وبين النشاط التجاري لتلك المدن وبين محيطها القبلي الرعوي المتنقل (كما في مكة والبتراء وتدمر الخ ...) .

واهم تلك الخطوط التجارية ، التي حددها جفاف قلب الجزيرة العربية كانت كالاتي : —

١ — الخط البري المار بمحاذاة السواحل الجنوبية للجزيرة فاليمن فالساحل الشرقي للبحر الاحمر باتجاه ساحل البحر المتوسط أيضا .

٢ — الخط الشرقي الذي يربط بين ساحل الخليج العربي شمالا بمحاذاة شط العرب فالموصل فالجزيرة الفراتية وشمالا غربا باتجاه آسيا الصغرى وساحل البحر المتوسط أيضا .

وعلى هذين الخطين الاساسيين والخطوط الفرعية التي تربط بينهما نشأت أولى المراكز الحضارية والمدن والممالك في المشرق العربي منذ فجر التاريخ وحتى الفترة الحديثة بشكل تأثر فيه وجودها بميزان استقرار تلك الخطوط والمصالح التجارية التي كانت للامبراطوريات المختلفة فيها .

لنبدأ أولا باليمن حيث قامت معين ومن بعدها سبأ كأولى الممالك التي اعتاشت على التجارة والزراعة . وبالنسبة لسبأ فان المراجع المتوفرة لدينا حتى الان تمكننا من التوصل الى نتيجة ان الحاجة في ضبط عملية الري

Digitized by Birzeit University Library

الصناعي من ناحية وتأمين الخط التجاري هي التي خلقت المقومات المادية اللازمة للانتقال الى حياة الاستقرار الحضاري ولنشوء نظام سياسي مركزي يشرف على هاتين العمليتين، وذلك في حوالي سنة ٧٥٠ ق.م.

ويبدو ان عملية الانتقال تلك تمت عن طريق قيام السبأيين باخضاع قبائل اليمن واجبارها على الاستقرار على الارض وربط زعمائها بولاء ثابت لمراكز السلطة التي افرزتها تلك العملية . وعلى الرغم من خلاف المؤرخين وتضارب المراجع والروايات حول انساب العرب واصلهم (المسعودي ، مروج الذهب ، ج١ ص ٢٧٧ — ٢٧٨) فان تقصي أصل كلمة سبأ كما ورد في المراجع العربية يشير الى تلك العملية من اخضاع السبأيين لقبائل اليمن . يقول المقريزي ان سبأ سمي كذلك « لانه اول من سبى وهو سبأ الاكبر ابو حمير وكهلان ، ملك بعد أبيه يشجب (ابن يعرب بن قحطان — في نفس المرجع) بأرض اليمن .. » (الخطط ، ج١ ، ص ٣٠ ، وكذلك المسعودي، ج١ ، ص ٢٧٧) .

كما تربط تلك المراجع بوضوح بين عملية مركزة السلطة السياسية في اليمن وبين بناء سد مأرب ومقتضيات الاشراف على عملية الري وتوزيع الاراضي ومسؤوليات حفظ الامن على رؤساء القبائل . وعلى الرغم من الطابع الاسطوري التي تتسم به الروايات التي نجدها في المراجع العربية ، فاننا نستطيع التوصل الى مثل ذلك الربط بوضوح . يقول المسعودي مؤكدا على اهمية السد في حياة البلاد الاقتصادية والسياسية : « ولا خلاف بين ذوي الدراية منهم ان العرم هو المسناة (بمعنى المصفاة) التي قد احكموا عملها لتكون حاجزا بين ضياعهم وبين السيل ... ، وان مأرب سمة للملك الذي يتملك على هذه البلدة وان هذا الاسم وقع على هذا البلد فاشتهر به وصار سمة له » (المسعودي ج١ ، ص ٣٤٢) . وهو يورد الوصف التالي للسد وكيفية

Digitized by Birzeit University Library

تحوله الى احد مراكز السلطة السياسية : « وكان اهلها في اطيب عيش وارفعه واهنأ حال وارغد قرى وفي نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء وتدفق الماء وقوة الشوكة واجتماع الكلمة ونهاية المملكة . وكانت بلادهم في الارض مثلا ... فمكثوا على ذلك ما شاء الله من الاعصار لا يعاندهم ملك الا قصموه ولا يوافيهم جبار في جيش الا كسروه . فذلت لهم البلاد واذعنت لطاعتهم العباد فصاروا تاج الارض . وكانت المياه التي هي اكثر ما يرد الى ارض سبأ تظهر من مخراق من الحجر الصلد والحديد من السد والجبال ، طول المخراق فيما وصفنا فرسخ (حوالي ثلاثة أميال) . وكان وراء السد والجبال انهار عظام وكان في هذا المخراق الاخذ من تلك الانهار ثلاثون نقبا مستديرة في استدارة الذراع طولا وعرضا مدورة على احسن هندسة واكمل تقدير . وكانت المياه تخرج من تلك الانقاب في مجاريها حتى تأتي الجبال فترويها سقيا وتعم شرب القوم . وقد كانت ارض سبأ قبل ما وصفنا من العمارة والخصب يركبها السيل من تلك المياه . » (المسعودي ج١ ص٣٤١) .

من ذلك يتضح كيف ان بناء السد والاشراف على توزيع المياه وصيانة القني من ناحية واستقرار القبائل وارتباط شيوخها بالسلطة المركزية بعلاقات الولاء النابعة عن مسألة العلاقات العقارية الثابتة على الارض شكل الاساس الهام الاول لعملية مركزة السلطة . وهو ما اصطلح ماركس على تسميته بالنمط الاسيوي في الانتاج حيث تحتم متطلبات الاشراف المركزي على عملية الري الصناعي وجود جهاز اداري وفني يخضع للسلطة المركزية التي تشرف بدورها على عملية تقسيم العمل والسلطة . ومع ندرة المراجع فاننا نميل الى الاعتقاد ان وجود السد مهد ايضا لبداية ظهور الملكية الفردية على الارض خاصة بالنسبة لاقطاع زعماء القبائل مساحات واسعة منها مقابل ولائها للدولة .

Digitized by Birzeit University Library

وهذا يتضح من رواية المسعودي التي يصف فيها استعداد تلك القبائل للرحيل قبيل انهيار السد وقيام زعمائها ببيع ممتلكاتهم واراضيهم : « ... فقال الناس بعضهم لبعض اغتنموا غضبة عمرو راشتروا منه امواله قبل ان يرضى . فابتاع الناس منه جميع ما له بأرض مأرب وفشا بعض حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم فخرج ناس من الازد وباعوا اموالهم فلما اكثروا البيع استنكر ذلك الناس فأمسكوا بأيديهم . فلما اجتمعت الى عمرو بن عامر امواله اخبر الناس بشأن سيل العرم فقال اخوه عمران الكاهن : قد رأيت انكم ستمزقون كل ممزق ويباعد بين اسفاركم . واني اصف لكم البلدان فاختاروا ايها شئتم » . (المسعودي، ج١ ص ٣٤٦ . كذلك راجع البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦) .

من ذلك يفهم كيف أنه بانهيار السد ينهار احد الاسس الاقتصادية الهامة لوجود مملكة سبأ وتبدأ فترة حاسمة في تاريخ العرب بتفرق قبائل اليمن وهجرتها الى اماكن مختلفة من الجزيرة العربية . غير ان الضربة القاضية التي تلقاها السبأيون أتت بسبب انهيار الاساس الاقتصادي الثاني لوجودهم وهو تحول خط التجارة عن المرور باليمن . وقبل ان ننتقل الى هذه النقطة الاخيرة لا بد من الاشارة الى انه يظهر ان السبأيين قد عبدوا الشمس شأنهم في ذلك شأن المجتمعات الزراعية الاخرى . لانه في حين تقوم المجتمعات القبلية الرعوية بعبادة القمر والنجوم التي تهديهم الى طريقهم في الليل حيث رطوبة الجو ، فان المجتمعات الزراعية تعبد الشمس عادة لانها تنضج الثمار . ومما يدلنا على ذلك هو ما ورد في المراجع العربية من ان اسم سبأ الحقيقي هو عبد شمس وان سبأ كانت كنيته فقط . والمسعودي (ج١ ، ص ٣٤٧) يؤكد على ذلك بقوله : « وقد كان اهل مأرب يعبدون الشمس ، فبعث الله اليهم رسلا يدعونهم الى الله فجحدوا قولهم وردوا كلامهم .. » .

Digitized by Birzeit University Library

والى جانب الزراعة فقد كانت التجارة الاساس الاقتصادي الثاني الذي قامت عليه مملكة سبأ . وسيطرة السبأيين على خط القوافل التجارية المار بالساحل الشرقي للبحر الاحمر شمالا ادخلها في حلبة المصالح والصراعات التي كانت للامبراطوريات القديمة ولدول المنطقة من أجل السيطرة على ذلك الخط . وقصة علاقة بلقيس ملكة اليمن (بلقمة في المراجع العربية) وسليمان بن داود التي وردت في التوراة تدلنا على المحاولة التي قام بها السبأيون لاقامة علاقات مع ممالك شرقي المتوسط صاحبة المصالح في ذلك الخط وذلك على الرغم من الطابع الاسطوري للمعلومات التي وردت حولها (تاريخ الطبري ج١ ص ٤٨٩ وابن الاثير ج١ ص ٨٩) .

غير أن قيام البطالسة بفتح قناة بين النيل والبحر الاحمر حوالي سنة ٢٥٠ ق.م. حول خط التجارة الدولي عن اليمن الامر الذي أدى الى فقدان مملكة سبأ للركيزة الاقتصادية الثانية لوجودها . لذلك نجدها تأخذ بالافول تدريجيا الى أن تنهار نهائيا حوالي سنة ١١٥ ق.م.

وقد ورد ذكر المجهود الذي بذله البطالسة بتحويل خط التجارة بحرا عن طريق فتح تلك القناة والقضاء على امتياز السبأيين واحتكارهم لها في اكثر المراجع التي بحثت تاريخ تلك الفترة . كما وردت الاشارة الى ذلك في المراجع العربية ايضا . يقول المسعودي : « وقد كان بعض من ملك من الروم قد حفر بين القلزم (القلازم هي الدواهي والمضائق — وهو الاسم الذي اطلقه العرب على البحر الاحمر لوقوعه بين سلسلتي جبال) وبحر الروم (أي البحر المتوسط) طريقا . فلم يتأت له ذلك لارتفاع القلزم وانخفاض بحر الروم ... الموضع الذي حفره ببحر القلزم يعرف بذنب التمساح على ميل من مدينة القلزم (في موضع مدينة السويس اليوم) عليه قنطرة عظيمة .. واجرى خليجا من هذا البحر الى موضع يعرف بالهامه .. وحفر خليجا آخر

Digitized by Birzeit University Library

مما يلي بلاد تنيس ودمياط وبحيرتهما ويعرف هذا الخليج بالزنير والحسه . واستمر الماء في هذا الخليج من بحر القلزم الذي في نحو من هذه القرى ومن بحر القلزم في خليج ذنب التمساح فتتابع أرباب المراكب واقترب حمل ما في كل بحر الى آخر ثم ارتدم ذلك على تطاول الدهور وملأته السوافي من الرمل وغيره . » (المسعودي ج١ ، ص ٣٨٨) .

لا حاجة الى القول بأن تلك المحاولة التي قام بها البطالسة لايصال خط التجارة البحري بين البحرين الاحمر والمتوسط قد سبقت خطة فرديناند دي لاسبس بما يقارب الالفي سنة . وأهميتها التاريخية تكمن في كونها أول محاولة يقوم بها عالم حوض البحر المتوسط الهليني للسيطرة على ذلك الخط التجاري أو على الاقل لاخراجه من قبضة سيطرة اليمنيين عليه واحتكارهم له .

ومما يلفت الانتباه في رواية المسعودي المذكورة هي الاشارة الى أن العرب المسلمين قد فكروا باعادة فتح تلك القناة وذلك وعيا منهم لاهمية الدور الذي يلعبه ذلك الخط التجاري . غير أن تخوف عمر بن الخطاب من أن تتحول تلك القناة الى منفذ استراتيجي يقوم الروم من خلاله بمهاجمة الحجاز ، مركز الدول الاسلامية حال دون اعادة فتح تلك القناة . وهو نفس الاعتبار الذي دفع محمد علي الى معارضة الفكرة الفرنسية بفتح مثل تلك القناة تحسبا منه للاخطار الاستراتيجية التي من الممكن أن تكون لذلك على استقلال مصر ، والذي أثبته التاريخ فيما بعد وحتى العدوان الثلاثي عليها . يقول المسعودي : « وقد رام الرشيد ان يوصل بين هذين البحرين مما يلي النيل من أعالي مصبه من نحو بلاد الحبشة واقاصي صعيد مصر فلم يتأت له قسمة ماء النيل . فرام ذلك مما يلي بلاد الفرس ما نحو بلاد تنيس على أن يكون مصب بحر القلزم الى البحر الرومي . فقال يحيى بن خالد يخطف الروم الناس

Digitized by Birzeit University Library

من المسجد الحرام والطواف وذلك أن مراكبهم تنتهي من بحر القلزم الى بحر الحجاز فتطرح سراياها مما يلي جده فيخطف الناس من المسجد الحرام ومكة والمدينة على ما ذكرنا ، فامتنع من ذلك . وقد حكي عن عمرو بن العاص حين كان بمصر أنه رام ذلك فمنعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك لما وصفنا من فعل الروم وسراياهم وذلك في حال ما افتتحها عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ... » (نفس المصدر) .

أما المقريزي فقد أورد في كتابه **الخطط** رواية مماثلة مع اختلاف حول موقف عمر بن الخطاب من مسألة فتح القناة وخطأ واضح في تاريخ قيام البطالسة بفتحها ، الامر الذي يميز جميع المراجع العربية في العصور الوسطى . يقول المقريزي في سياق وصفه لخليج القاهرة : « وهو خليج قديم أول من حفره طوطيس بن ماليا أحد ملوك مصر الذين سكنوا مدينة منف .. ثم ان اندرومانوس الذي يعرف بايليا أحد ملوك الروم بعد الاسكندر بن فليبس المجدوني جدد حفر هذا الخليج وسارت فيه السفن وذلك قبل الهجرة النبوية بنيف وأربعمائة سنة . ثم ان عمرو بن العاص رضي الله عنه جدد حفره لما فتح مصر واقام في حفره ستة أشهر وجرت فيه السفن بحمل الميره الى الحجاز فسمي خليج أمير المؤمنين يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه فانه هو الذي أشار بفتحه . ولم تزل تجري فيه السفن من فسطاط مصر الى مدينة القزم التي كانت على حافة البحر الشرقي حيث الموضع الذي يعرف اليوم على البحر بالسويس . وكان يصب ماء النيل في البحر عند مدينة القلزم الى أن أمر الخليفة ابو جعفر المنصور بطمه في سنة خمس ومائة (للهجرة) فطم وبقي منه ما هو موجود الان ... » (ج١ ص ١١٤) .

على اي حال فبالنسبة للسبأيين شكل تغيير خط

Digitized by Birzeit University Library

التجارة ضربة قاصمة لهم . والى جانب أنهيار سد مأرب فقد أدى ذلك الى بداية أفول مملكتهم التي سقطت حوالي سنة ١١٥ ق.م.

والذي يظهر من المراجع ان اليمن شهدت على اثر ذلك بداية فترة من المد القبلي والفوضى والاضطراب السياسيين نتيجة لانهيار هذين الاساسين لوجود السلطة المركزية . وقبل أن ننتقل الى دراسة تلك الفترة من الاضطراب التي عملت فيها قبائل حمير على اعادة بناء اليمن وتوحيدها سياسيا وتثبيت مصالحها التجارية أمام تلك الردة القبلية وعلى مستوى مصالح القوى السياسية الاخرى في المنطقة ، لا بد من الاشارة الى انه يظهر أن لتغيير خط التجارة الدولي بفتح قناة الاحمر — النيل كانت نتائج اقتصادية وسياسية سلبية مماثلة على مملكة الانباط أيضا . وكانت هذه الاخيرة قد قامت كمحطة على عين الماء الواقعة على ذات الطريق البري المار باليمن شمالا وبمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الاحمر وذلك بعد أن نجح الانباط (الذين يقال انهم سموا كذلك على اسم نابت أو نبايوت بن اسماعيل) في طرد الادوميين منها حوالي سنة ٦٠٠ ق.م.

وظاهرة صراع القبائل واقتتالها من أجل السيطرة على ينابيع المياه التي أخذت تتطور كمحطات هامة على طرق القوافل هي ظاهرة مألوفة في تاريخ المشرق العربي ، الامر الذي سنتطرق اليه بالتفصيل عند حديثنا عن ظهور مكة كاحدى تلك المحطات الهامة وعن بئر زمزم كنقطة استقطاب لتنافس القبائل العربية من أجل تلك السيطرة . وبالنسبة لمملكة الانباط فان سيطرتها على الموقع الهام على ذلك الخط سرعان ما أوقعها في حلبة الصراع الدولي في ذلك الوقت من أجل السيطرة عليه . ففي حوالي سنة ٣١٢ ق.م. صد الانباط أول هجمة قام بها أحد ورثة الاسكندر على سوريا . واستمرت تلك المحاولات مع بداية العهد الروماني الى أن نجح الامبراطور تراجان في اخضاع مملكة الانباط

Digitized by Birzeit University Library

وتحويلها الى ولايـــة رومانية وذلك كجـــزء من مصلحة الامبراطورية الرومانية في السيطرة على شريان التجارة الدولي في شرقي المتوسط .

واضطراب الخط الغربي الذي اعقب هذه التطورات ادى تدريجيا الى انتعاش التجارة وازدهار خط الخليج العربي عبر الشام والجزيرة الفراتية وسواحل سوريـــا الشمالية .ومن بين المحطات التي نشأت على هذا الخط كانت تدمر (باميرا) في أواسط القرن الثالث الميلادي . غير ان مملكة تدمر سرعان ما وجدت نفسها في حلبة الصراع الدولي من أجل السيطرة على ذلك الخط . وكان الفرس أول المتضررين من تزايد نفوذها سياسيا واقتصاديا . غير أنه في اللحظة التي تمكن ملكها اذينه من الحاق الهزائم بالفرس وتوسيع سلطانه في بر الشام حوالي سنة ٢٦٠م فقد تغير ميزان القوى السياسي تماما في المنطقة . اذ اصبحت تدمر الخط وذلك على الرغم من أن هؤلاء كانوا قد دعموه في ا:لخط وذلك على الرغم من أن هؤلاء كانوا قد دعموه في حربه مع ألفرس . وبعد أن دبر الرومان اغتياله في سنة ٢٦٦م قامت زوجته زنوبيا باحتلال سوريا بكاملها الامـــر الذي دفع الرومان الى القضاء على مملكة تدمر نهائيا وتحويلها الى ولاية رومانية .

ويظهر أن ذلك شكل بداية لفترة من تصاعد قـــوة الامبراطورية الرومانية وتوسع نفوذها في الشرق . وفي اليمن تميز ذلك بسعي الرومان لاحتلالها ووضع حـــد لاستقلالها عن طريق حليفهم النجاشي الذي هاجمها سنة ٣٤٠م. وقبل الدخول في محاولة لتتبع الصراعات والمصالح الدولية المتضاربة في اليمن لا بد من الاشارة الى ان الاخيرة كانت قد اجتازت فترة طويلة من الاضطراب الذي نتج عن انهيار مملكة سبأ وخط ساحل البحر الاحر . وخلال فترة الاضطراب تلك شهدت اليمن محاولات متكررة قامت بها قبائل حمير لاعادة بناء الدولة وفرض الامن الداخلي عن

Digitized by Birzeit University Library

طريق اخضاع القبائل وتوحيدها . كما تشير المراجع العربية الى أن التبابعة من ملوك حمير قاموا بعدة محاولات لتوسيع نفوذهم وبسط سيطرتهم على الخطوط التجارية في أماكن مختلفة من سواحل الجزيرة العربية . وعلى الرغم من الطابع الشبه أسطوري للروايات التي أوردتها تلك المراجع فانها تشير الى أن تلك المحاولات تحتمت عن اعادة بناء اليمن كمملكة مركزية تكمن مصلحتها الاولى في الحفاظ على أمن الخطوط التجارية في المنطقة . ومن تلك المحاولات ما يذكره ابن الاثير عن قيام تبع بن ملكي كرب بتجريد حملتين على منطقة الحيرة في جنوب العراق من ناحية وعلى الحجاز من الناحية الاخرى . وابن الاثير يشير الى أن تبع حاول بسط سيطرته على منطقة الحيرة ، التي هي الخط التجاري المنافس لليمن ، عن طريق نقل بعض القبائل اليمنية للاستيطان هناك . والرواية التي يوردها هي أن تبعا شخص متوجها « من اليمن في الطريق الذي سلكه الرايش حتى خرج على جبل طيىء ، ثم سار يريد الانبار . فلما انتهى الى موضع الحيرة تحير وكان ليلا فأقام بمكانه فسمي ذلك المكان بالحيرة وخلف به قوما من الازد ولخم وجذام وعامله وقضاعة فبنوا وأقاموا به . ثم انتقل اليهم بعد ذلك ناس من طيىء وكلب والسكون وبلحرث بن كعب واياد . » (الكامل في التاريخ ، ج١ ص ١٠٨) . كذلك راجع (الطبري ، ج١ ص ٤٠٤) .

ونحن لا نستطيع الجزم فيما اذا كانت تلك الحملة قد هدفت الى السيطرة على خط الخليج العربي المنافس أم أنها كانت موجة أخرى من موجات هجرة القبائل اليمنية الى جنوب العراق . غير انه من الواضح انه كانت للحميريين مصلحة مباشرة في حفظ أمن الخطوط التجارية في الجزيرة ووضع حد للتفكك والتنقل القبلي الذي هدد تلك الخطوط من ناحية بتمليك بعض القبائل اليمنية على أجزاء من الجزيرة والقضاء على أية محاولة لقيام ممالك منافسة على

Digitized by Birzeit University Library

تلك الخطوط من الناحية الاخرى . يقول الطبري : « فملك تبع بن حسان بن تبع بن ملكي كرب .. فهابته حمير والعرب هيبة شديدة فبعث بابن اخته الحارث بن عمرو ابن حجر الكندي (اليماني) في جيش عظيم الى بلاد معد والحيرة وما والاها . ١سار الى النعمان بن امرىء القيس ابن الشقيقة فقاتله فقتل النعمان وعدة من اهل بيته وهزم أصحابه وافلته المنذر بن النعمان الاكبر وأمه ماء السماء ... فذهب ملك آل النعمان وملك الحارث بن عمرو الكندي ما كانوا يملكون ... » (الطبري ج١ ص ٥١٨) .

هنا يجب التوقف قليلا عند هذه الرواية التي تختلف المراجع العربية حول صحتها وهذا الخلاف ينبع عن الطابع المضطرب والروائي للمعلومات التي اوردها المؤرخون العرب التي تتميز عادة باعتمادها على الروايات التي كانت تنقل شفويا جيلا عن جيل الى أن تصل الى المؤرخ . وغالبا ما كان الشعر هو المرجع الوحيد في تلك الروايات ، وهو عرضة للنسيان والتزوير كما هو معلوم . فالطبري يعتمد في روايته على شعر تنسبه تلك الرواية لكعب بن جعيل التغلبي الذي يقول :

وغزا تبع في حمير حتى نزل الحيرة في اهل عدن

غير أن ابن الاثير لا يقبل صحة قيام التبابعة بتمليك الكنديين على الحيرة ويورد روايات أخرى تشير الى ان الحارث الكندي قد ملك عدة من أولاده على جملة من القبائل العربية في نجد واليمامة حتى حدود مملكة المناذرة الذين حكموا في نفس الوقت . (راجع ابن الاثير ج١ ص ١٦٤) .

وقصة البحث في ظاهرة تمليك الكنديين على تلك القبائل وظهور تلك الممالك ككيانات سياسية تجمع الضرائب وتحافظ على الامن وتدخل في علاقات مع القوى السياسية ذات المصالح في الحفاظ على أمن حدودها ومصالحها

Digitized by Birzeit University Library

التجارية هو موضوع آخر يتعلق بمسألة الصراع والتوازن بين مجتمع التفكك السياسي القبلي داخل الجزيرة وبين مراكز الاستقرار الحضاري والممالك المركزية المعنية بفرض نوع من الاستقرار والامن حفاظا على مصالحها التجارية في أطراف الجزيرة العربية . غير أن تلك الروايات ، على الرغم من اضطرابها وتناقضها ، تشير الى ظاهرة قيام الحميريين بمحاولة لفرض بعض السيطرة والاستقرار على قبائل الجزيرة العربية كجزء من محاولتهم بناء مملكتهم والمحافظة على مصالحها التجارية .

وتلك الروايات تجمع على قيام تبع بحملة على الحجاز لاخضاع مكة والمدينة ، المحطتين التجاريتين الهامتين من وجهة نظر مملكة حمير . يقول المسعودي : « ثم ملك بعده تبع بن حسان بن كليكرب وهو الملك السائر من اليمن الى الحجاز وكانت له مع الاوس والخزرج حروب واراد هدم الكعبة فمنعه من كان معه من أحبار اليهود فكساها القصب اليماني وسار نحو اليمن وقد تهود وغلب على اليمن اليهودية ... » (المسعودي ، ج١ ، ص ٢٨٠) .

سنرى فيما بعد كيف أن حملة أبرهة على مكة عام الفيل شكلت محاولة اخرى قامت بها اليمن لتأمين طريق القوافل التجارية شمالا بالسيطرة على المحطات الواقعة على ذلك الطريق . أما بالنسبة لتهود ملوك حمير والصراع بين اليهودية والمسيحية في اليمن فانه من الواضح أن ذلك الصراع انفجر في ظروف أخذت فيها الامبراطورية الرومانية تسعى للحد من توسع نفوذ اليمن كقوة سياسية تهدد بالسيطرة التامة على شريان التجارة الهامة . والصراع في هذه الحالة كما في حالات مماثلة يتخذ صبغة دينية . غير أن قيمته السياسية تبقى هي الاساسية . لان محاولة الرومان فرض المسيحية على اليمن كانت تعني اخضاع هذه الاخيرة وتحويلها الى ولاية رومانية . كما أن رفض اليمنيين مثل ذلك الخضوع اتخذ شكل تمسكهم بيهوديتهم أي عدم

Digitized by Birzeit University Library

ولائهم للامبراطورية الرومانية التي كانت قد اعتنقت المسيحية كديانة رسمية في فترة حكم قسطنطين حوالي سنة ٣٠٠ والتي بدأ بسط نفوذها وسيطرتها يتخذ طابعا تبشيريا.

كما انه من الطبيعي أن تقوم الحبشة في ظروف كهذه باعتناق المسيحية والتحالف مع الرومان ومن بعدهم البيزنطيين — كجزء من صراعها مع جارتها ومنافستها في السيطرة على خط التجارة الدولي الهام . وتشير المراجع الى ان اول محاولة قام بها نجاشي الحبشة بمهاجمة اليمن بدعم من الرومان كانت سنة ٣٤٠ حين أحتلها . ووصول البيزنطيين عن طريق حلفائهم الى اليمن سرعان ما أثار مخاوف منافسيهم الفرس الذين دعموا ذا نواس زعيم قبائل حمير الذي تهود وثار على الاحباش سنة ٥٢٣م . أما الحبشة فقد قامت بتجريد حملة أخرى على اليمن بقيادة ارياط وابرهة وحكمتها حتى ثارت قبائل حمير بدعم من الفرس مرة ثانية سنة ٥٧٥ . وعلى أي حال فمن الممكن القول انه منذ سنة ٣٤٠ وحتى الفتح الاسلامي سنة ٦٢٨ بقيت اليمن محطة تجارية تتصارع الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية السيطرة عليها وتنتقل بين كونها ولاية رومانية تارة وفارسية تارة أخرى . وما يؤكد ذلك هو الروايات التي وردت بشأن الخراج الذي كانت تدفعه اليمن في كلتا الحالتين . فابن الاثير مثلا يورد الرواية التي بموجبها رغب سيف بن ذي يزن كسرى بمساعدته على طرد الاحباش من اليمن بقوله : « ان جبال بلادنا ذهب وفضة » . وبعد أن نجح جيش كسرى بقيادة وهرز في ذلك وتولى سيف بن ذي يزن الحكم أصبح هذا الاخير واليا لكسرى : « وفرض عليه كسرى جزية وخراجا معلوما فملكه وهرز وانصرف الى كسرى واقام سيف على اليمن ملكا » . ويظهر أن اليمن تحولت الى ولاية يحكمها الفرس بشكل مباشر بعد أن اضطر هؤلاء لتجريد حملة أخرى اثر احتلال الاحباش لها مرة ثانية : « وأقبل (وهرز) حتى دخل اليمن ففعل ما أمره وكتب الى

Digitized by Birzeit University Library

كسرى يخبره فأقره على ملك اليمن فكان يجبيها لكسرى . . »
(ابن الاثير ، ج١ ص ١٨١ — ١٨٢ . وبالنسبة للضريبة التي كان يدفعها أبرهة لنجاشي الحبشة مقابل حكمه على اليمن راجع نفس المصدر ص ١٧٣ — ١٧٤) .

وقبل الانتهاء من هذه النقطة الاخيرة لا بد من القيام بمحاولة لتتبع الاثر الذي كان لهذه التطورات في اليمن على مناطق أخرى من الجزيرة العربية وخاصة مكة الواقعة على نفس الخط التجاري المتجه من اليمن شمالا والتي بدأت في القرن السادس الميلادي تأخذ دوراً سياسيا قياديا على ذلك الخط . هنا تجدر الاشارة الى أن احتلال اليمن من قبل الاحباش أثار لدى الارستقراطية التجارية في مكة شعوراً بنوع من المصير المشترك بينهم وبين اليمنيين الامر الذي من الممكن اعتباره خلفية لبداية التكاتف والتضامن القومي — العربي ضد الاحتلال الاجنبي والذي وصل في تقدير بعض المؤرخين الى ذروته في موقف الرسول من معركة ذي قار بين القبائل العربية والفرس حول مسألة التبعية التي فرضها هؤلاء عليها . (راجع عبد العزيز الدوري : مقدمة تاريخ صدر الاسلام) .

هذه النقطة الهامة تشكل أحد المداخل الرئيسية لدراسة بعض العناصر « القومية » العربية (اذا صح التعبير) في الدعوة الاسلامية كردة فعل قامت بها مكة التجارية لتوحيد الجزيرة العربية تجاه أخطار التفكك والردة القبليين داخليا وكردة فعل لاضطراب الخطوط التجارية الذي نتج عن اختلال توازن القوى الدولية المسيطرة على تلك الخطوط بمحاولتها فرض احتلالها المباشر على بعض مناطق هامة من وجهة نظر مصالح مكة التجارية على أطراف الجزيرة العربية .

على هذه الخلفية يجب أن يفهم اهتمام المكيين وتأثرهم بما جرى في اليمن ، تماما كفهمنا لاهمية مكة من وجهة نظر مصالح الحميريين (أو حتى الاحباش بعد سيطرتهم

Digitized by Birzeit University Library

على اليمن) التجارية .

من هنا تنبع أهمية الرواية التي يوردها الطبري حول حملة تبع على الحجاز وخاصة مكة . والطبري يذكر كيف ان تبع كسى البيت الحرام وولى على مكة رجل من جرهم ويضيف : « فكان تبع فيما يزعمون أول من كساه وأوصى به ولاته من جرهم وأمرهم بتطهيره .. » (الطبري ، ج١ ، ص ٥٣٢) .

وعلى الرغم من ان الادلة حول تحول مكة الى ولاية يمنية في تلك الفترة ما زالت غير كافية فاننا نستطيع القول بأن مصالح المكيين التجارية حتمت عليهم اليقظة والاهتمام السياسيين بما يجري في اليمن على مر العصور . وهو ما تشير اليه الرواية التي يوردها المسعودي من أن زعماء قريش قد قاموا بارسال وفد عنهم لتهنئة معد يكرب بن سيف ابن ذي يزن على طرد الاحباش واستعادته للحكم . يقول المسعودي : « وأتت معد يكرب الوفود من العرب تهنيه بعودة الملك اليه واشراف العرب وزعماؤها وفيهم عبدالمطلب ابن هاشم بن عبد مناف وخويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصي وجد أمية بن أبي الصلت الثقفي ... » . (ج١ ، ص ٢٨٤) .

واذ نحن بصدد المصالح التجارية والمصير السياسي المشترك الذي ينبع عنها لا بد من التوقف قليلا عند احتلال الاحباش لليمن وكونه قد شكل تهديدا مباشرا لمصالح مكة التجارية من ناحية وحتم قيام أبرهة بحملة على هذه الاخيرة كجزء من استكمال الاحباش سيطرتهم على ذلك الخط . ومع أن ذلك التهديد وتلك الحملة قد اتخذا شكل الصراع الديني لمحاولة أبرهة بناء كنيسة في اليمن وصرف العرب عن الحج الى الكعبة وزحفه عليها لهدمها فان ما سنحاول القيام به هو البحث عن الدوافع التاريخية الاساسية الكامنة وراء ذلك الصراع الديني . وهذه الدوافع هي في الاساس كون مكة استمرارا لوجود ومصالح اليمن التجارية من ناحية

Digitized by Birzeit University Library

(الامر الذي يفسر قيام التبابعة بحملة عليها قبل أبرهة بمئات السنين) وكون قدسية الكعبة وحج العرب اليها قد شكلا تجسيدا رمزيا لمكانة مكة القيادية بالنسبة للقبائل العربية على المستوى السياسي . وما يؤكد على ذلك هو الرواية التي يوردها ابن الاثير والتي وردت على السنة الكثير من المؤرخين العرب الذين تطرقوا الى قصة زحف أبرهة على مكة عام الفيل سنة ٥٧٠ — ٥٧١م . يقول ابن الاثير : « لما دام ملك أبرهة باليمن وتمكن به ، بنى القليس بصنعاء وهي كنيسة لم ير مثلها في زمانها في الارض . ثم كتب الى النجاشي اني قد بنيت لك كنيسة لم ير مثلها في زمانها ولست بمنته حتى أصرف اليها حجاج العرب . فلما تحدثت العرب بذلك غضب رجل من النسأة من بني فقيم فخرج حتى أتاها فقعد فيها وتغوط ثم لحق بأهله . فأخبر بذلك ابرهة وقيل له انه فعل رجل من أهل البيت الذي تحجه العرب ، غضب لما سمع أنك تريد صرف الحجاج عنه ففعل هذا . فغضب أبرهة وحلف ليسيرن الى البيت فيهدمه . » (ابن الاثير ج١ ص ١٧٨) .

Digitized by Birzeit University Library

كنا قد تطرقنا في نهاية الفصل السابق الى بعض جوانب الاثر الذي كان للاضطراب والتقلبات التي تعرض لها خط تجارة الساحل الشرقي للبحر الاحمر على تطور مكة كمحطة هامة على ذلك الخط . ولكي نستطيع الوقوف على الجوانب المختلفة لذلك التطور وما كان لها من الاثر عى علاقة مكة بالقوى السياسية الدولية صاحبة المصالح في خطوط التجارة الدولية في المنطقة من ناحية وبيئتها القبلية الرعوية من الناحية الاخرى وما كان لذلك كله من الاثر على تطور بنية المجتمع المكي قبيل الاسلام بالشكل الذي اثر بدوره على تطور الدعوة الاسلامية بمضامينها الاجتماعية والسياسية ، لا بد من القيام بمحاولة لتتبع نشوء مكة وتطورها كاحدى المحطات الواقعة على ذلك الخط .

هنا لا بد من القول بأن اي بحث في هذه القضايا لا بد وأن يأخذ بعين الاعتبار وجود بئر زمزم واهميته بالنسبة للقوافل التجارية المارة في طريقها من اليمن شمالا . وحتى المراجع الاسلامية والروايات الشبه اسطورية الواردة في تلك المراجع تشير الى كون بئر الماء العامل التاريخي الهام في نمو مكة في ذلك الموقع .

وتنسب تلك المراجع قصة حفر البئر وبناء الكعبة الى ما ورد في القرآن عن قيام ابراهيم بنقل اسماعيل وامه هاجر الى الموضع الذي نشأت فيه مكة فيما بعد . وحول حفر البئر يورد الطبري احدى تلك الروايات الاسطورية التي تقول بأن هاجر « جاءت من المروه الى اسماعيل وهو يدحص الارض بعقبه وقد نبعت العين وهي زمزم ، فجعلت تفحص الارض بيدها عن الماء وكلما اجتمع ماء أخذته بقدحها فأفرغته في سقائها . » (الطبري ج١ ، ص ٢٥٧) . وقد اورد هذه الرواية وروايات اخرى مشابهة كل من المسعودي

Digitized by Birzeit University Library

وابن الاثير وعامة المؤرخين العرب في العصور الوسطى . والمهم هنا هو ان جميع تلك الروايات تشير الى الطبيعة الجبلية الجافة لذلك الموضع ، الامر الذي يؤكد على ان عماد نشوء مكة الاقتصادي لم يكن الزراعة بل اهمية وقوع عين الماء على طريق القوافل التجارية . والمسعودي مثلا يشير الى حقيقة ان ابراهيم ترك اسماعيل وامه « بواد غير ذي زرع » (ج١ ص ٢٧٧) . كما ان الرواية التي يوردها الطبري حول زيارة ابراهيم لابنه تشير الى ان اسماعيل اعتاش في البداية على الصيد — وربما الرعاية — . يقول الطبري : « ... فلبث ابراهيم ما شاء الله ان يلبث ، ثم استأذن سارة ان يزور اسماعيل ، فأذنت له واشترطت عليه الا ينزل . فجاء ابراهيم حتى انتهى الى باب اسماعيل فقال لامراته : اين صاحبك ؟ قالت : ذهب يتصيد وهو يجيىء الان ان شاء الله فانزل يرحمك الله ! ، قال لها : هل عندك ضيافة ؟ قالت : نعم ، قال : هل عندك خبز او بر او شعير او تمر ؟ قال (صاحب الرواية) : فجاءت باللبن واللحم ، فدعا لها بالبركة : فلو جاءت يومئذ بخبز او بر او شعير او تمر لكانت أكثر ارض الله برا وشعيرا وتمرا » . (الطبري ج١ ص ٢٥٨ — ٢٥٩) .

هنا لا بد من القول بأن هذه الدراسة لا تهدف الى وضع بحث تقريري لتاريخ نشوء وتطور مكة . وقيمة هذه الروايات الاسطورية تكمن في كونها تشتمل على العناصر التاريخية الاساسية الضرورية للقيام بفهم علمي لذلك التطور . ومن هذا المنظور فان ما يهمنا هنا هو وقوع بئر زمزم واهميتها كعين ماء تردها القوافل التجارية القادمة من اليمن شمالا وتتصارع السيطرة عليها القبائل العربية المتنقلة في تلك البيئة القاحلة .

والروايات التي يوردها المؤرخون العرب حول علاقة اسماعيل بالعمالياق الذين سكنوا تلك المنطقة وبجرهم التي قدمت فيما بعد ، وحول الصراع بين هؤلاء على السيطرة

Digitized by Birzeit University Library

على عين الماء تشير بوضوح الى تلك الاهمية . والمسعودي يذكر ان رواد العماليق حين اقبلوا على مكة : « .. نظروا الطير ترتفع وتنخفض فهبطوا الوادي ونظروا الى العريش على الربوة الحمراء وفيها هاجر واسماعيل وقد زمت الماء ومنعته من الجريان ... ، فسلم الرواد عليها واستأذنوها في نزولهم وشربهم من الماء فأنست اليهم واذنت لهم في النزول .. وتزوج اسماعيل بالجداء بنت سعد العملاقي ..» (المسعودي ، ج١ ، ص ٢٦٣) . وبسبب أهمية الماء في تلك المنطقة القاحلة يمكننا أن نتصور كيف أن وجود بئر زمزم اجتذب جرهم وقبائل اخرى الى ذلك الموضع وشكل سببا في صراعها على السيطرة عليه . يقول المسعودي : « وتسامعت جرهم بذلك ... فبادروا نحو مكة وعليهم الحارث بن مضاض بن عمرو بن سعد ... حتى أتوا الوادي ونزلوا مكة واستوطنوها مع اسماعيل ومن تقدمهم من العماليق من بني كركر . وقد قيل في كركر انه من العماليق وقيل انه من جرهم .. وتزوج اسماعيل زوجته الثانية هي شامة بنت مضاض الجرهمي ... » (ج١ ، ص ٢٦٣) .

ومع أن الروايات متناقضة وغير واضحة بالنسبة لاصل العماليق وجرهم وكركر وغيرهم مما اصطلح المؤرخون العرب على تسميته بالعرب البائدة ، فان ما يهمنا هو أن مكة نمت من خلال اصطراع تلك القبائل على السيطرة على عين الماء بسبب وقوعها على الخط التجاري (حول الاضطراب واختلاف الرواية في انساب قحطان واسماعيل والعرب عامة راجع المسعودي ، نفس المصدر ، ج١ ص ٢٧٧) . فالطبري مثلا يورد رواية مفادها ان جرهم هي اول من اكتشف وجود بئر زمزم ونزل بمكة وذلك عندما سلكت الطريق التجاري من اليمن الى الشام . يقول الطبري : « ومرت رفقة من جرهم تريد الشام فراوا الطير على الجبل فقالوا : ان هذا الطير لعائف على ماء فهل علمتم بهذا

Digitized by Birzeit University Library

الواد ي من ماء ، فقالوا : لا . فأشرفوا فاذا هم بالانسانة (هاجـر) فأتوها فطلبوا ا ليها أن ينزلوا معها فأذنت لهم . » (ج١ ص ٢٥٦) .

على اي حال فان بعض هذه الروايات يشير بوضوح الى أن الصراع حول السيطرة على مصدر الماء في مكة شكل أحد جوانب الصراع من أجل السيطرة على طريـق القوافل التجارية وجباية ضريبة العشر التي كانت تدفعها تلك القبائل مقابل مرورها بمكة وسقايتها . يقول المسعودي: « ... ولما قبض اسماعيل قام بالبيت بعـده نابت بن اسماعيل ، ثم قام أناس من جرهم لغلبة جرهم على ولد اسماعيل . وكان ملك جرهم يومئذ الحارث بن مضاض وهو أول من ولي البيت وكـان ينزل هناك في الموضع المعروف بقعيقعان في هذا الوقت . وكان كل من دخل مكة بتجارة عشرها عليه وذلك في أعلى مكة . وملك العماليق السميدع بن هوبر .. وكان ينزل أجيادا من أسفل مكة وكـان يعشر من دخل مكـة من ناحيته ، وكانت بينهم حروب ... » (المسعودي ، ج١ ص ٢٦٤) .

هنا تكمن نقطة هامة يجب التوقف عندها قليلا . وهي ما تتضمنه رواية المسعودي هذه عن ولاية البيت وقدسية بئر زمزم والجذور التاريخية للطابع الديني التي اتخذته كل من ولاية البيت والسيطرة السياسية على مكة . ذلك انه اذا كانت قدسية ماء زمزم تنبع من أهمية عين الماء في تلك المنطقة القاحلة فان ضمان امن وسلامة مكة كمحطة على طريق القوافل التجارية حتم فرض حرمتها وقدسيتها على القبائل التي أخذت تطمع بدورها في السيطرة عليها . واجبار القبائل على الاعتراف بحرمة مكة وبتقديسها البيت الحرام وبئر زمزم اتخذ بدوره طابع الرسالة الدينية كجزء من عملية توحيد هذه القبائل على شعائر محددة من الولاء والعبادة . فتوحيد الاله يحمل بذور الوحدة السياسية التي هي ضمان ولاء القبائل لسلطة مكة أو على الاقل عـدم

Digitized by Birzeit University Library

مهاجمتها ، الامر الـذي يشكل ضمانا لمصالح المكيين التجاريـــة .

واذا كان القرآن والمؤرخون العرب عامة قد رأوا في دعوة التوحيد الاسلامية استمرارا أزليا لدعوة ابراهيم واسماعيل الخ ... ، كأنبياء ورسل سبقوا محمد فان مسألة الوحدة السياسية وأمن المصالح التجارية تبقى القيمة السياسية والتاريخية لكون اسماعيل قد تنبأ في مكة ودعا القبائل العربية الى نبذ الاوثان وعبادة اله واحد والحج الى بيته الذي وليه اسماعيل . يقول المسعودي : « ودبر اسماعيل بن ابراهيم أمر البيت بعد ابراهيم عليه السلام ونبأه الله عز وجل وأرسله الى العماليق وقبائل اليمن فنهاهم عن عبادة الاوثان فآمن طائفة منهم وكفر أكثرهم .. » (ج١ ص ٣٦ . كذلك راجع ابن الاثير ج١ ص ٤٩) .

لا حاجة الى القول بأن القيمة التاريخية لهذه الرواية تكمن في انها تشير الى أن اسماعيل ومن أتى بعده من ولاة البيت وحكام مكة قد اقاموا بعض العلاقات مـــع اليمن ، المحطة الهامة الاخرى على ذات الطريق التجاري ، في هذه الفترة المبكرة . كما أن قدسية البيت الحرام وبئر زمـــزم والحج اليهما وحرمـــة مكة وتحريـــم القتال في الاشهـــر الحـــرم شكلت ضمانات وحواجـــز أمـــام عوامل التفكك السياسي وعدم استتاب الامن الكامنة في تعدد الالهة (التي هي تعدد أشكال الـــولاء والاستقلال السياسي القبلي) وتنقل القبائل من موضع الى موضع .

من هنا يتضح كيف أن دعوة الرسول لتوحيد الله لم تكن أمرا جديدا وان مسألة التوحيد كانت معروفة قبـــل مجيء الاسلام . كما يتضح أيضا كيف أن الاسلام لم يلغ شعائر الحج وحرمة البيت ومكة بل انه حارب العصبيـــة القبلية ومعها تعدد الالهة من ناحية واعتبر نفسه استمرارا لدعوات التوحيد التي سبقته منذ ابراهيم وحتى محمد ، الامر الذي كان معروفا قبل هذا الاخير ليس في مكة فحسب بل وعند الكثير من ابناء « الدين الحنيف » كخالد بن

Digitized by Birzeit University Library

سنان العبسي الذي يروي عن الرسول انه قال عنه : « ذلك نبي أضاعه قومه » (المسعودي ج١ ص ٦٧) . كما أن كون اسم الله (أو اللات) معروفا قبل الدعوة الاسلامية يشير أيضا الى أن مسألة توحيد الله لم تكن بشيء جديد في حياة مكة السياسية .

كما أن الروايات التي تتحدث عن كون عبد المطلب جد الرسول قد آمن باله واحد ، والشعر المنسوب اليه حين داهم أبرهة مكة يؤكد على ذلك بوضوح . واذا لم نأخذ هذه النقطة بعين الاعتبار يصعب علينا تقبل الكثير من نصوص الشعر الجاهلي التي وصلتنا والتي ورد فيها ذكر الله أو الاشارة الى اله واحد . ومن هذا النوع من الشعر ما نسب الى عبد المطلب قوله :

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا امنعهم أن يخربوا فناكا

او قول زهير بن ابي سلمى :

فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

او قول ذي الاصبع العدواني :

الله يعلمني والله يعلمكم والله يجزيكم عني ويجزيني

او قول عبد يغوث الحارثي اليماني حين أسرته تيم الرباب :

جزى الله قومي بالكلاب ملامة صريحهم والاخرين الموالیا

سنتطرق الى هذه النقطة الاخيرة عند حديثنا عن الدعوة الاسلامية كردة فعل جاءت لمقاومة المد القبلي والردة الوثنية التي تعرضت لها الجزيرة العربية بشكل عام والتي وصلت

Digitized by Birzeit University Library

الى مكة ايضا في الفترة التي سبقت ظهور تلك الدعوة . أما بالنسبة لولاية البيت ، التي هي السيطرة على مكة وجباية الضرائب والعشور من القوافل التجارية والحجاج الذين يردونها مقابل تأمين السقاية والرفادة لهم ، فتذكر المراجع العربية انها عادت بعد جرهم الى اياد بن نزار بن معد ومن بعده الى مضر ثم الى خزاعة ومن بعدها استقرت في قريش بزعامة قصي بن كلاب . وقبل الانتقال الى الحديث عن خصائص المجتمع المكي في فترة ولاية قريش تجدر الاشارة الى أن تلك المراجع تشير الى أن تعدد الالهة ودخول الاوثان القبلية الى مكة قد حدث أيام ولاية خزاعة عليها الامر الذي من الممكن أن يكون قد نتج عن المد القبلي العام واضطراب الخطوط التجارية الذي تعرضت له الجزيرة العربية في اعقاب تفرق القبائل اليمنية . لان خزاعة كانت احدى القبائل اليمنية التي هاجرت شمالا واستقرت في مكة . يقول المسعودي أنه بعد مضر « وليت خزاعة امر البيت . وكان أول من وليه منهم عمرو بن لحي . واسم لحي حارثة بن عامر فغير دين ابراهيم وبدله وبعث العرب على عبادة التماثيل ... » (ج١ ص ٢٦٩) .

Digitized by Birzeit University Library

في كتابه **حيـاة محمـد** ينسب مكسيم رودنسون أسم قريش لطوطم القرش الذي يقول بأن تلك القبيلة اتخذته . ويعتمد رودنسون في ذلك على ظاهرة الطوطمية وعبادة الاشجار والحيوانات التي تميز المجتمعات القبلية . ونحن اذا ما قبلنا ذلك الرأي كمبدأ عام ينطبق على الكثير من القبائل العربية التي عبدت النجوم والاشجار والحيوانات فاننا لا نقبله بالنسبة لقريش . وذلك أن اتخاذ سمك القرش طوطما كان من المفروض أن يصح بالنسبة لقبائل تسكن السواحل وتعتاش على صيد السمك أو التجارة البحرية ، الامر الذي لا يتوافق والمعلومات الواردة في المراجع العربية عن حياة قريش الاقتصادية والاجتماعية في فترة ما قبل الاسلام .

وعلى العكس فان ما ورد في تلك المراجع يشير الى أن اسم قريش انطلق على بعض القبائل المضرية التي سكنت منطقة مكة بعد استيلاء خزاعة على ولاية البيت والتي تقرشت بمعنى اجتمعت واتحدت تحت لواء زعيمها قصي بن كلاب عندما انتقلت ولايه البيت اليه . فاذا قيل تقرشت قريش يكون المعنى الاجتماع والوحدة . وقد ورد تعبير قرشوا أو تقرشوا في عدة أبيات متفرقة من الشعر الجاهلي . منها ما ينسبه المسعودي الى الحارث بن حلزه اليشكري قولـه :

أخوة قرشوا الذنوب علينا في حديث من دهرنا وقديم

والمسعودي يربط في الرواية التي يوردها حول استيلاء قريش علـى البيت الحرام بزعامـة قصي بين التقرش والايلاف (بمعنى الامن) من الممالك المحيطـة بأطراف الجزيرة العربية في تلك الفترة . وهو ما يدلنا بوضوح على أن أول ما قام به قصي بعد استلامه للسلطة في مكة

Digitized by Birzeit University Library

هو ايفاد الرسل الى تلك الممالك واقامة العلاقات معها بهدف طمأنتها من ناحية وتأمين وضمان استمرار نشاط القوافل التجارية المارة بمكة . يقول المسعودي : « وأخذت قريش الايلاف من الملوك وتفسير ذلك الامن ، وتقرشت والتقريش الجمع . » (المسعودي ج١ ص ٣٩٥) . ومن ذلك أيضا ما ينسب الى مطرف الخزاعي قوله :

يا أيها الرجل المحاول راحله هلا نزلت بآل عبد مناف
الاخذين العهد من آنافنا والراحلين برحلة الايلاف

ومع الانتقال الى حياة الاستقرار والنشاط التجاري تشهد قريش تحولات بنيوية على مستوى تركيبتها الاجتماعية بما يلائم ظروف الاستقرار وما تحتمه من اضمحلال تركيبتها القبلية وفرز مراتبي جديد لمواقع السلطة ومؤسساتها فيها. هذه التحولات تتضح أكثر عند مقارنتها بالتركيبة الاجتماعية للقبائل الرعوية المتنقلة والتي سنتطرق اليها فيما بعد . غير أن ما تجدر الاشارة اليه هنا هو أن الاستقرار والنشاط التجاري حتم اضمحلال العصبية القبلية داخل قريش وبداية ظهور الافخاذ والبطون كمراكز قوة تتصارع حول مسألة السلطة وتنظيم الحياة السياسية والدينية والاشراف على النشاط الاقتصادي بعكس ما نشهده لدى المجتمعات الرعوية المتنقلة حيث تحافظ القبيلة على وجودها كوحدة سياسية واجتماعية تتكتل أمام المهام العسكرية الطارئة التي تتحتم عن عملية تنقلها المستمر سعيا وراء الماء والعشب وصدامها مع القبائل الاخرى نتيجة لذلك السعي .

واذا كان وجود القبيلة كوحدة عسكرية طارئة يحتم نوعا من الديمقراطية والتساوي بين جميع أفرادها المقاتلين وعدم وجود مؤسسات سلطوية متوارثة فان تلك الديمقراطية العسكرية تبدأ بالانحلال مع الانتقال الى حياة الاستقرار . وعلى الرغم من عدم توفر المراجع الكافية لدراسة المجتمعات

Digitized by Birzeit University Library

التي نشأت في مراكز الاستقرار الحضاري كتدمر والبتراء ، فان دراسة المجتمع المكي قبيل الاسلام من وجهة نظر نشوء تلك المؤسسات ومقارنته بمجتمعات دول — المدن اليونانية القديمة ربما ساعدت على كشف بعض الجوانب الغامضة في تاريخ مكة الاجتماعي والسياسي في تلك الفترة.

وعلى اي حال فان عملية الفرز التدريجي لتلك المؤسسات والتمايز الاجتماعي يتضحان بأشكالهما الاولية من خلال الترتيب الذي قام به قصي لبطون قريش على منازلها من النسب والاهمية في مكة . وفي هذه الفترة المبكرة تظهر المفاضلة بين قريش الاباطح أو البطاح (اي الذين أسكنهم قصي داخل مكة) وبين قريش الظواهر وهم الذين استوطنوا ظاهر مكة . يقول المسعودي : « واستقام أمر قصي وعشر على من دخل مكة من غير قريش وبنى الكعبة ورتب قريشا على منازلها في النسب بمكة ... » (ج١ ص ٣٩٥) .

والمفاضلة لم تنحصر بالنسب ومكان السكنى فحسب بل شكلت في الاساس دالة على المراكز القيادية في الحياة السياسية والاقتصادية . وهنا تفقد قريش وحدتها وعصبيتها القبلية كوحدة سياسية وعسكرية ديمقراطية داخليا وتظهر تدريجيا عصبيات البطون والافخاذ . فذكوان مولى بني عبد الدار بن قصي بن كلاب (بطاح) يفاخر الضحاك بن قيس الفهري (ظواهر) بقوله :

تطاولت للضحك حتى رددته
الى نسب في قومه متقاصر
فلو شاهدتني من قريش عصابة
قريش بطاح لا قريش الظواهر

وكدليل آخر على ذلك التحول هو ما نجده من ظهور المؤسسات والوظائف السياسية والاقتصادية والعسكرية

Digitized by Birzeit University Library

وتبلورها بشكل تنتقل فيه بالوراثة وتنحصر في أحد البطون دون الاخرى . ووراثة الوظائف الاجتماعية واقرارها عرفا أو شرعا هي ظاهرة ملازمة لمجتمعات الاستقرار الحضاري ومنافيه لطبيعة التركيبة القبلية حيث التنقل المستمر يولد ظروفا طارئة يكون فيها صاحب العزم والدراية شيخ القبيلة و « رجل الساعة » . وعن عملية التمايز تلك وحصر المراكز القيادية في هذا البطن دون ذاك نشهد بداية للصراع الداخلي بين بطون قريش على السلطة وتظهر الانقسامات والانشقاقات والاحلاف الداخلية . يقول ابن الاثير : « قد ذكرنا ما كان قصي أعطى ولده عبد الدار من الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء . ثم ان هاشما وعبد شمس والمطلب ونوفلا بني عبد مناف بن قصي رأوا انهم احق بذلك من بني عبد الدار لشرفهم عليه ولفضلهم في قومهم وارادوا اخذ ذلك منهم . فتفرقت عند ذلك قريش . كانت طائفة مع بني عبد مناف وطائفة مع بني عبد الدار يرون انه لا يجوز أن يؤخذ منهم ما كان قصي جعله لهم اذ كان أمر قصي فيهم شرعا متبعا معرفة منهم لفضله وتيمنا بأمره ... » (ابن الاثير ج١ ص ١٨٣) .

عندها ينقسم الفريقين ومن آزرهما الى الاحلاف من ناحية والمطيبين من الناحية الاخرى . وقد ورد ذكر هذه التحالفات على ألسنة الكثير من شعراء قريش في الجاهلية وصدر الاسلام . منها قول عمر بن ابي ربيعة المخزومي متغزلا :

ولها في المطيبين جدود ثم نالت ذوائب الاحلاف
انها بين عامر بن لؤي حين تدعى وبين عبد مناف

وكانت نتيجة النزاع أن اتفق على اقتسام السلطة بين الفريقين . فأعطي بني عبد مناف السقاية والرفادة وبقي لبني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة . غير أن

Digitized by Birzeit University Library

كلا الفريقين أبقى على حلفائه الى أن جاء الاسلام ويشهد على ذلك ما ينسب الى الرسول من قوله : « ما كان من حلف في الجاهلية فان الاسلام لم يزده الا شدة . ولا حلف في الاسلام ... » (ابن الاثير ، المصدر السابق) كما كانت لهذه الاحلاف امتدادات ومضاعفات اثرت في حياة الدعوة الاسلامية في فترتها الاولى كما سنرى .

ومن ابرز المؤسسات السياسية التي ظهرت في مكة قبل الاسلام كانت دار الندوة التي بناها قصي بن كلاب حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي . يقول البلاذرى : « وأما دار الندوة فبناها قصي بن كلاب . فكانوا يجتمعون اليه فتقضي فيها الامور . ثم كانت قريش بعده تجتمع فيها فتتشاور في حروبها وأمورها وتعقد الالوية وتزوج من أراد التزويج . وكانت أول دار بنيت بمكة من دور قريش » (فتوح البلدان ، ص ٦٠) .

من ذلك يفهم كيف أن قريش المتحضرة أخذت تبتعد تدريجيا عن التقاليد السياسية القبلية . فنظام المشيخة يضمحل تدريجيا وتظهر مكانه دار الندوة . و « الملأ » كان يختلف عن المجالس القبلية التي تميزت بكونها طارئة .

غير أن تلك التحولات على مستوى المؤسسات والاطر السياسية كانت تعكس عملية تحول بنيوية في المجتمع المكي نشأ عن الانتقال من حياة المشاعية والديمقراطية القبلية الى حياة الاستقرار والملكية والصراع حول امتلاك وسائل الانتاج والسلطة السياسية — أي مجتمع تقسيم العمل والسلطة حول الاشتغال بالتجارة . فالحاجة في حراسة القوافل التجارية وحمايتها وتوفير الأمن العام ادى تدريجيا الى ظهور الحاجة في بناء جيش نظامي يقوم بتلك المهام . ولما كان الاستقرار يعني انحلال القبيلة التدريجي كوحدة عسكرية فقد حتمت مقتضيات توفير الامن أن يشكل العبيد احدى دعائم ذلك الجيش . وتجارة العبيد تشكل جزءا من قطاع الخدمات الذي ينشأ على هامش حياة الاستقرار

مكتبة جامعة بيرزيت
Digitized by Birzeit University Library

الحضاري . وقد روى عن عبد الله بن جدعان أحد زعماء قريش وقادتها في حرب الفجار انه كان « نخاسا في الجاهلية بياعا للجواري » . (المسعودي ج١ ص ٤٠٦) .

وتطور مكة كمحطة هامة على طريق القوافل التجارية كان يعني كما اشرنا من قبل أن تصبح مركزا سياسيا وثقافيا للجزيرة العربية يؤمه زعماء القبائل للتبادل التجاري ولعقد الاحلاف . كما اشرنا الى أن تطورها كمركز ديني وثقافي يحج اليه العرب في الاشهر الحرم وتعقد فيه الاسواق نتج أيضا كدالة على الوظيفة الاقتصادية — سياسية التي قامت بها مكة أيضا .

والنشاط التجاري من ناحية وما كانت رحلات الشتاء والصيف تحتمه من عملية تخزين البضائع ادى الى نشوء نمط من الاقتصاد البضائعي والتداول بالنقد من ناحية والى تطور مكة كمركز نقل استهلاكي أيضا . والتبادل بالنقد واشباع السوق براس المال ادى بدوره الى بداية التعامل بالربا حيث يتحول النقد من وسيلة للتبادل الى سلعة ، الامر الذي وردت الاشارة له في القرآن .

من ذلك يتضح كيف ان الاستقرار والنشاط التجاري الذي ادى الى تطور المجتمع المكي كمجتمع متمايز طبقيا ادى مع المدة الى عملية فرز وبلورة لمفاهيم وأطر السلطة السياسية في حين اخذت قريش تبتعد تدريجيا عن ارثها القبلي .

غير أن المجتمع المكي لم يتطور بمعزل عن بيئته القبلية الرعوية . وعلى الرغم من أن قدسية البيت الحرام وحرمة مكة عامة قد ادت وظيفة سياسية هامة بفرضها نوعا من الولاء السياسي على محيطها القبلي ، والذي تمثل بدوره بالحج اليها ، فقد كان على قريش أن تقوم بمهمة حفظ الامن وتكريس اخضاع بيئتها القبلية عن طريق تعاملها مع الاطر والاساليب التي فرضتها تلك البيئة عليها .

لذلك نجد أن تاريخ مكة قبل الاسلام يشكل سلسلة

Digitized by Birzeit University Library

متصلة من التوازن الدقيق بين مجتمع الاستقرار التجاري المكي وبين بيئته القبلية الرعوية ، الامر الذي يعكس بدوره وضع خطوط التجارة الدولية وميزان القوى السياسية في المنطقة ويشكل جزءا منه . واي اضطراب في ميزان القوى السياسي ووضع تلك الخطوط في المنطقة كان يضعف مقدرة مكة على السيطرة والاشراف على خطوط التجارة ويذعن ببدء فترة أخرى من المد القبلي داخل الجزيرة العربية وداخل مكة نفسها حيث احتفظت قبائل العرب بأصنامها داخل الكعبة .

وهذا التوازن الدقيق هو ما فرض على المكيين الاهتمام والتأثر بالتقلبات السياسية في المنطقة وادخلهم في شبكة شائكة من التحالفات القبلية داخل الجزيرة العربية . واذا كنا قد ذكرنا فيما سبق مدى اهتمام المكيين بالتطورات السياسية التي اعقبت عمليات الاحتلال المتوالية لليمن فيكفي ان نذكر هنا ان قريشا تدخلت كحليف للأوس في صراعها مع الخزرج يوم معبس ويوم مضرس الامر الذي يلقي أضواء جديدة على تحالف المدنيين مع الرسول ضد قريش . (راجع ابن الاثير ج١ ص ٢٨٦) .

وعلى هذه الخلفية ايضا يفهم كيف ان فشل حملة ابرهة على مكة تزيد من مكانة هذه الاخيرة السياسية وتشكل بداية لفترة من التراجع القبلي أمام تصاعد قوة مكة وسطوتها على بيئتها القبلية ، الامر الذي ينعكس بدوره على الجوانب الدينية في العلاقة بينها وبين تلك البيئة . يقول ابن الاثير «لما كان من أمر أصحاب الفيل ما ذكرناه عظمت قريش عند العرب فقالوا لهم اهل الله وقطنه يحامي عنهم . فاجتمعت قريش بينها وقالوا نحن بنو ابراهيم عليه السلام واهل الحرم وولاة البيت وقاطنو مكة . فليس لاحد من العرب مثل منزلتنا ، ولا يعرف العرب لاحد مثل ما يعرف لنا . فهلموا فلنتفق على ائتلاف اننا لا نعظم شيئا من الحل

Digitized by Birzeit University Library

كما يعظم الحـرم . فاننا ان فعلنا ذلك استخفت العرب بنـا وبحرمنا وقالوا قـد عظمت قريش مـن الحـل مثلما عظمت من الحرم . فتركوا الوقوف بعرفة والافاضة منها ... وقالوا نحن اهل الحرم فلا نعظم غيره ، ونحن الحمس واصل الحماسة الشدة انهم تشددوا في دينهم وجعلوا لمن ولد واحدة من نسائهم من العرب ساكني الحل (اي ما كانوا يرتبطون به بعلاقة المصاهرة) مثل ما لهم بولادتهم . ودخل معهم في ذلك كنانة وخزاعة وعامر لولادة منهم . ثم ابتدعوا فقالوا لا ينبغي للحمس أن يعمل الاقط ولا يسلؤوا السمن وهم حرم ولا يدخلوا بيتا من شعر ولا يستظلوا الا في بيوت الادم ما كانوا حرما . وقالوا ولا ينبغي لاهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من الحل في الحرم اذا جاءوا حجاجا أو عمارا . ولا يطوفوا البيت طوافهم اذا قدموا الا في ثياب الحمس فمن طـاف في ثيابه القاها اذا فرغ من الطواف ولا يمسها هو ولا أحد غيره ، وكانوا يسمونها اللقي . فدانت لهم العرب بذلك فكانوا يطوفون كما شرعوا لهم ويتركون ازوادهم التي جاءوا بها من الحل ويشترون من طعام الحرم ويأكلونه .. »
(ابن الاثير ، ج١ ص ١٨٢ — ١٨٣) .

غير أن ذلك التوازن الدقيق لصالح مكـة المتحضرة اجتماعيا وحاملة لواء الوحدة سياسيا ودينيا سرعان مـا اختل نتيجة لاحتلال اليمن من ناحية ولاندلاع الحروب مجددا بين الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية من الناحية الاخرى مما ادى الى بدء فترة جديدة من المد والاضطراب القبليين . وخلال عشرين سنة فقط من حملة ابرهة يصل ذلك المـد القبلي الى مشارف مكة ويتجسد بحرب دفاعية اضطـر المكيون لخوضها في الاشهر الحرم ومن هنا تسميتها بحرب الفجـار .

وقد كان لاندلاع تلك الحرب في فترة الاشهر الحرم قيمة رمزية جسدت مدى قوة المد القبلي الـذي شهدته

Digitized by Birzeit University Library

الجزيرة العربية قبيل الاسلام بقليل . لان تلك الاشهر كانت بمثابه مؤشر لذلك التوازن بين مصالح مكة والنشاط التجاري بشكل عام (حيث تتطلب هـذه المصالح وقف الغارات القبلية وتوفير امن قوافل التجارة والحج) وبين بيئتها القبلية — رعوية . والمد القبلي تجسد بدوره في خوض قريش تلك الحـرب كأحد تلك الاحـلاف القبلية المتخاصمة . فقد وقفت الى جانبهافي تلك الحرب قبائل كنانة والاحباش واسد بن خزيمة ، بينما انضم الى قيس عيلان كل من ثقيف وبني نصر وسعد وجشم وغطفان وسليم وفهم وعدوان . وعلى الرغم من أن قريشا حاربت كبطون متفرقة يقف على راسها زعماؤها الا أنها سلمت امـرة جيوشها وجيوش احلافها الى قيادة سياسية وعسكرية موحدة وطارئة وذلك تحت امرة حرب بن امية « لمكانه من عبد مناف سنا ومنزلة » شأنها في ذلـك شأن الكيانات القبلية الاخرى . (ابن الاثير ج١ ص ٢٤٧ — ٢٤٨) .

Digitized by Birzeit University Library

المجتمع القبلي في الجزيرة العربية قبل الاسلام :

راينا فيما سبق كيف أن تاريخ مكة كمحطة هامة على طريق القوافل التجارية في غرب الجزيرة العربية شكل استمرارا لتوازن دقيق بين مهام ومقتضيات حفظ الامن والاستقرار السياسيين من ناحية وبين عمليتي المد والتراجع القبليين في قلب الجزيرة العربية . وذلك التوازن الذي اثر الى حد بعيد على تركيبة المجتمع المكي شكل بدوره جزءا من ميزان القوى السياسية صاحبة المصالح في تأمين خطوط التجارة الدولية على اطراف الجزيرة العربية .

ولما كانت هذه القضايا هامة من وجهة نظر دراسة منطلقات ومفاهيم الدعوة الاسلامية على المستوى الاجتماعي وفاعليتها كقوة سياسية وعسكرية جاءت كردة فعل لظاهرة المد القبلي داخل الجزيرة العربية وكمحاولة لسد الفراغ السياسي الذي حدث في المنطقة بسبب تجدد فترة الاضطراب والحروب البيزنطية — الفارسية واحتلال اليمن (والذي نتج عن ذلك المد لقبلي) ، وجب علينا التوقف قليلا على الجانب الاخر لظاهرة ذلك التوازن ، الا وهو المجتمع القبلي الرعوي في قلب الجزيرة العربية بخصائصه الاجتماعية والاقتصادية وفاعليته السياسية أيضا كجزء يؤثر ويتأثر بميزان القوى العام في المنطقة .

غير أننا في محاولتنا تتبع الخطوط العريضة لخصائص هذا المجتمع القبلي — الرعوي نصطدم بقلة المراجع واضطرابها مما يجعل القيام بدراسة تقريرية لتطور ذلك المجتمع داخل الجزيرة العربية صعبا للغاية . فاذا كانت مراكز الاستقرار الحضاري تترك مخلفات من الاثار والنقوش والكتابات التي هي جزء من ارثها الحضاري فان عملية

Digitized by Birzeit University Library

التنقل المستمرة التي تميز المجتمعات القبلية عادة تحول دون القيام بعملية تتبع تقريري من هذا النوع . فالكتابة وجملة الشريعات وعلاقات الملكية هي فنون حضارية . وقد نشأت أشكال الكتابة الأولى في الجزيرة العربية ، كالخط المسند في اليمن والخط النبطي في البتراء ، على أطراف الجزيرة العربية حيث نشأت المراكز الحضارية وليس داخلها . ذلك لان التراث والفن الحضاريين ينشآن كتعبير عن علاقات اجتماعية ومعيشية ثابتة بين الافراد والمجتمعات يمكن الرجوع اليها لدراسة تلك العلاقات على مر العصور .

واذا كانت مراكز الاستقرار الحضاري على أطراف الجزيرة العربية قد قامت على ركيزتين تاريخيتين هما التجارة وبعض أشكال الزراعة في اليمن وأحواض الينابيع والمياه فان قلب الجزيرة كان يفتقر الى هذه المقومات الاساسية الاولى لنشوء مثل تلك المراكز . واذا كانت آثار مأرب والبتراء وتدمر وبعض الروايات الاسطورية حول نشأة مكة قد مكنتنا من دراسة تطور هذه المراكز فان الشعر والتراث الشفوي المنقول من مكان الى مكان ومن جيل الى جيل يبقى المرجع الوحيد لفهم طبيعة وخصائص تركيبة مجتمع قلب الجزيرة الرعوي المتنقل . كما أن البحوث الانتروبولوجية الحديثة وما ارتسم من علاقة ذلك المجتمع الرعوي مع بيئته الحضارية وعلى حدود تلك البيئة من سجلات وآثار دلتنا على الهجمات البدوية المتكررة على الحدود تساعدنا هي الاخرى على فهم الفاعلية السياسية لتلك التركيبة أيضا .

وقبل أن ندخل في محاولة لتقييم علاقة التوازن تلك بين مجتمع قلب الجزيرة الرعوي وبين المراكز الحضارية على أطرافها لا بد اذن من الوقوف على الخصائص الاولية لتركيبة ذلك المجتمع ولفاعليته السياسية التي تشكل الوجه الاخر لذلك التوازن واحد العوامل السياسية الهامة في

Digitized by Birzeit University Library

مقولة ميزان القوى السياسية لحفظ خطوط التجارة الدولية في المنطقة .

هنا يجب التحذير من عملية الرجوع الى التراث الشفوي ، واساسا الشعر الجاهلي الذي لم يبدأ تدوينه الا في القرن الثامن الميلادي . فالشعر والتراث الشفوي بشكل عام قابلان للنسيان والتزوير عبر الاجيال الامر الذي كنا قد حذرنا من خطورة الاعتماد عليه في أية محاولة للقيام بدراسة تقريرية لتاريخ المجتمع العربي داخل الجزيرة وفي فترة ما قبل الاسلام .

غير اننا لا نسعى الى القيام بدراسة من هذا النوع هنا . وكل ما نحاوله هو تقديم عرض نموذجي عام لتركيبة ذلك المجتمع وفاعليته السياسية على ضوء ما وصلنا من نماذج ذلك الشعر وعلى ضوء الابحاث الانتروبولوجية الحديثة التي تطرقت لمجتمعات قبلية رعوية اخرى .

اما نقطة انطلاقنا الاساسية في محاولتنا هذه فتبقى المعطيات البيئية الاساسية التي أفرزت تلك التركيبة داخل الجزيرة العربية . ذلك ان الجفاف والقحط حتم تنقل القبائل المستمر وراء الماء والكلأ . وقد قالت العرب في الجاهلية « من اجدب انتجع » . وظاهرة التنقل تلك تولد وضعا يصبح فيه صدام القبائل وحروبها المستمرة احد المحاور الرئيسية التي تدور حولها الحياة الاجتماعية والسياسية القبلية في الجزيرة العربية .

لن نتطرق هنا الى القيم القبلية التي يفرزها هذا النوع من حياة التنقل والصدام المستمرين فأبواب الشعر الجاهلي تزخر بها . ويكفي أن نذكر ان عملية التنقل تلك تبرز في مطلع أكثر القصائد العربية التي وصلتنا على شكل الوقوف على الاطلال حيث ان الشاعر لم يكن يمر بمكان حتى يذكر عهدا قضاه فيه .

والاهم من ذلك هو التأثيرات الاجتماعية والسياسية

Digitized by Birzeit University Library

التي تنتج عن عملية الصدام المستمرة تلك . واولها ان القبيلة تصبح الاطار الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الوحيد الذي ينتمي اليه الفرد برابطة دم صريحة وواضحة تبين انتسابه اليها . واهم الميزات التي يفرضها ذلك الصدام على القبيلة هو تطورها كوحدة عسكرية متماسكة يتعصب لها أفرادها ويفتخرون بكثرة عدد رجالها وبشجاعتهم حيث تكمن قوتها . ويكفي هنا أن نستمع الى بعض النماذج المتفرقة من الشعر الجاهلي الذي يصور الطابع العسكري لبنية القبيلة وذلك من خلال القيم التي تفرزها تلك البنية . ففي الكثرة يقول عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي (المتوفي أواخر القرن السادس) :

ملأنا البحر حتى ضاق عنا
ونحن البحر نملأه سفينا

وقول السموأل بن عادياء :

تعيرنا أنا قليل عديدنا
فقلت لها أن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الأكثرين ذليل

وقول وداك بن ثميل المازني في الشجاعة :

رويد بني شيبان بعض وعيدكم
تلاقوا غدا خيلي على سفوان
عليها الكماة الغر من آل مازن
ليوث طعان عند كل طعان
مقاديم وصالون في الروع خطوهم
بكل رقيق الشفرتين يماني
اذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم
لاية حرب أم بأي مكان

Digitized by Birzeit University Library

اما عن التعصب للقبيلة وعدم الخروج عن اطارها فيقول دريد بن الصمة :

ولما رأيت الخيل قبلا كأنها
جوادا يباري وجهة الريح مغتدى
أمرتهم أمري بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى
غوايتهم أني بهم غير مهتدى
وهل أنا الا من غزية ان غوت
غويت وان ترشد غزية أرشد
دعاني أخي والخيل بيني وبينه
فلما دعاني لم يجدني بقعدد
اخ أرضعتني أمه من لبانها
بثدي صفاء بيننا لم يجدد

والتعصب للقبيلة يشكل الوجه الاخر (الاخلاقي اذا صح التعبير)للحاجة في الابقاء عليها كوحدة عسكرية مقاتلة ومتماسكة ، الامر الذي يعطي رابطة الدم بالنسبة للبدوي قدسية مطلقة كما يفهم من هذه الابيات . من هنا ينبع كذلك فخره بصراحة نسبه ، وتماسك القبيلة لوظيفتها العسكرية ، الى درجة أن البدوي يرى في ذلك التماسك تماسكا عضويا لا يستطيع الجسم اداء وظيفته بدونه . والمتلمس جرير بن عبد العزي مثلا يصف الصراع داخل القبيلة كاقتتال أعضاء الجسم ، الامر الذي يستحيل بالنسبة له :

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي
جعلت لهم فوق العرانين ميسما
وما كنت الا مثل قاطع كفه
بكف له أخرى فاصبح أجذما

Digitized by Birzeit University Library

فلما استقاد الكف بالكف لم يجد
له دركا في أن يبينا فاحجما

غير أن وظيفة القبيلة كوحدة عسكرية التي تفرض عليها التماسك والتعصب تجاه محيطها الخارجي تفرض بنفس الدرجة نوعا من المساواة والديمقراطية بين أفرادها أيضا . ومن الممكن أن تفسر روح الديمقراطية والمساواة داخل القبيلة بكون أفرادها ينتسبون لاب واحد فلا فخر لاحد على احد . غير أن الاهم من ذلك هو كون الجميع فيها يواجهون مصيرا واحدا كمقاتلين . كما أن زعامة القبيلة تتحول أيضا الى أمر طارىء ومتغير تبعا لمقتضيات الصدام وظروفه ، وحيث تعطى الزعامة للاشجع وصاحب الخبرة والدراية الخ ... وهذه صفات مكتسبة وشخصية ولا تنتقل بالوراثة . فقانون الصدام المستمر هو قانون الساعة وقائد المعركة هو رجل الساعة أيضا . ولعل اقوى تعبير عن تلك الديمقراطية القبلية العسكرية هو ما جاء في عتاب ذي الاصبع العدواني لابن عمه :

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب
عني ولا أنت ديانى فتخزوني

ولا تقوت عيالي يوم مسبغة
ولا بنفسك في العزاء تكفيني

عني اليك ، فما أمي براعية
ترعى المخاض ولا رأيي بمغبون

هنا تكمن نقطة هي على جانب كبير من الاهمية . وذلك أن التساوي والديمقراطية العسكريين داخل القبيلة المتماسكة يشكل نقطة توازن دقيق بين تحقيق وجود وفاعلية القبيلة ككيان اجتماعي عام وشامل وبين تحقيق الفرد لذاته الفاعلة داخل ذلك الكيان الواحد . والمساواة

Digitized by Birzeit University Library

داخل القبيلة تعني مساواة المقاتلين من أبنائها كأفراد يحملون السلاح دونما سيد أو مسود . وهذا ما يجعل البدوي واعيا لفرديته معتدا بنفسه داخل اطار قبيلته وفي حدود ذلك التوازن الناتج عن وجود الكيانين كذات واحدة فاعلة . واختلال ذلك التوازن يهدد استمرار وجود القبيلة ان كان على شكل خروج الفرد عن اطارها أو على شكل القضاء على المشاركة وانتماء الفرد الطوعي والحر اليها واعطائها طابع الجيش النظامي . فتحقيق الفرد لذاته بالشكل الذي يتجاوز حدود أطار قبيلته ويهدد وجودها بالخطر يحتم نبذه واخراجه من ذلك الاطار . كما أن فرض الطاعة والانتماء على افراد القبيلة بشكل فوقي يقضي على روح المشاركة الطوعية لهم كمقاتلين يغير من طابع القبيلة ايضا .

واهمية هذه النقطة تكمن في كونها تحول ظاهرة الصعلكة الى مسألة نسبية نسبة وعي البدوي لذلك التوازن . لذلك فمن الممكن القول أن باستطاعتنا أن نلمس بعض الصعلكة في أشعار الكثير من الشعراء الذين لم يتم تصنيفهم كصعاليك بالمعنى الذي حددته كتب التاريخ العربي. فالكرم صفة حميدة تفاخرت بها العرب في الجاهلية . غير أن افراط حاتم الطائي في كرمه وصل الى الحد الذي هدد فيه استمرار وجود قبيلته التي رحلت عنه . وحاتم الطائي خرج عن حدود ذلك التوازن النسبي حين قال :

واني لعف الفقر مشترك الغنى
وتارك شكل لا يوافقه شكلي
وأجعل مالي دون عرضي جنة
لنفسي وأستغني بما كان من فضلي
وما ضرني ان سار سعد بأهله
وأفردني في الدار ليس معي أهلي

لن نتطرق هنا الى صعلكة طرفة بن العبد وعروة بن

Digitized by Birzeit University Library

الورد والشنفري وتأبط شرا وغيرهم حيث اختلال ذلك التوازن وحيث تحقيق الذات خارج حدود اطار القبيلة واضح . ويكفي أن نستمع الى امتداح تأبط شرا الى روح المغامرة الفردية والوحدة والاعتماد على النفس لدى ابن عمه :

قليل التشكي للمهم يصيبه
كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظل بموماة ويمسي بغيرها
جحيشا ويعروى ظهور المهالك

والى الشنفرى كيف يؤكد على أنه اختار معاشرة الوحوش على البقاء مع قومه :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم
فاني الى قوم سواكم لأميل
فلي دونكم أهلون سيد عملس
وأرقط زهلول وعرفاء جيال

كما أننا لن نتطرق أيضا الى أشكال ودرجات الصعلكة لدى شعراء الجاهلية ، فهي كثيرة ونسبية نسبتها الى درجة الافتخار والاعتداد بالنفس لدى كل هؤلاء . غير أن صعلكة امرىء القيس في خروجه بمسلكيته عن البنية الاجتماعية الابوية التي عاش فيها ، بتغزله بنساء أبيه ، وخروجه عن مباني الشعر الجاهلي وتراكيبه المألوفة في تلك الفترة هي أمر ملفت للانتباه (راجع أدونيس ، الثابت والمتحول) . ذلك لان جذور وعناصر الابوية تكمن في كل المجتمعات القبلية العسكرية حيث تتحول القوة والرجولة من مسألة كونها ضرورة الى كونها قيمة لا تشارك المرأة في صنعها . غير أن ذلك يصح فقط في ظروف هي أقرب الى ديمقراطية المشاعية القبلية حيث المساواة تنحصر في أفراد القبيلة المقاتلين من الرجال . أما في المراحل الاعلى

Digitized by Birzeit University Library

من الانتقال الى حياة الاستقرار وظهور الانظمة الملكية فان ما تعنيه الابوية هو سيطرة القبيلة على الاخرى والرجل على قوة عمل وسلاح الاخر والرجل بشكل عام على جسد المرأة (الذي هو ابنائه) وقوة عملها .

ولا ندري بالضبط ما هو الشوط الـذي كانت كنده والقبائل العربية عامة قـد قطعته في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام . غير أن البحوث الانتروبولوجية الحديثة تؤكد على أن السلطة تبقى دائما أبوية وتنتقل الى الخال أو اخ الام في حالة كون الانتساب أبويا واضحا . وأهمية النسب من ناحية الام التي وردت على السنة شعـراء الجاهلية وظاهرة انتهاء أسماء الكثير من الرجال والقبائل بتاء التأنيث توجب القيام بدراسة استمرار وجود عنصـر الامومة في المجتمع القبلي العربي الذي عرف وأد البنات واحترام الاباء والاجداد الذين يشكلون لبنة تماسك ذلـك المجتمع (عن طريق الانتساب اليهم) الى درجة التأليه أيضـا .

غير أن الاهم من ذلك بالنسبة لنا هنا هو الفاعلية السياسية لهذه البنية القبلية . وأول ما تجدر الاشارة اليه هو السيولة والاضطراب السياسيين اللذين ينتجان عن عدم الاستقرار على الارض والارتباط بها من ناحية والقيمة العسكرية العليا التي تنتج عن الصدام القبلي المستمر تعطي الشجاعة والفروسية التي يفتخر بها البدوي بعداً اجتماعيا أيضا . فقيم العرب في الجاهلية وقيم المجتمعات ذات البنية القبلية — رعوية والعسكرية المتنقلة عامة لا ترتبط بالارض وتعتبر العلاقات الاجتماعية التي تنشأ عن العمل بالزراعة علاقات خضوع وولاء وضعف . وهذه القيم واضحة في هجاء جرير لبني حنيفه مع أن جريرا كتب في العصر الاموي :

أصحـاب نخـل وحيطـان ومزرعـة
سيوفهـم خشـب فيهـا مساحيها

Digitized by Birzeit University Library

قطـــع الديـــار وسقي النخـــل عادتهـــم
قدمـــا ومـــا جاوزت هـــذا مساعيها
لـــو قيل أين هـــوادي الخيل مـــا عرفوا
قالـــوا لاعجازهـــا هـــذي هواديها
أو قلـــت أن حمـــام المـــوت آخذكـــم
أو تلجمـــوا فرســـا قامـــت بواكيها
دانـــت وأعطت يـــدا للسلـــم طائعـــة
مـــن بعد مـــا كاد سيف اللـــه يفنيها

(عن الجاحظ ، البيان والتبيين ج٣ ص ٨٧) .

وهي واضحة أيضا في جملة من الاحاديث التي نسبت للرسول وللصحابة من بعده . كقوله حين رأى السكة في بعض دور الانصار « ما دخلت هـــذه دار قوم الا دخلها الـــذل » (عن ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩٤ .)

والانفة الواضحة هنا من الاشتغال بالزراعة والمهن يجب فهمها اعلى خلفية ما تفرزه هذه الاخيرة من علاقات الولاء الكامنة في كل مجتمع طبقي ، وعدم الارتباط بالارض الامـــر الـــذي يميـــز المجتمعات القبليـــة ـــ الرعوية والارستقراطيات التجارية أيضا . وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال عندما خطب يحث المسلمين على الاشتراك في الفتوحات : « ليس لكم الحجاز بدار الا على النجعة » . (المصدر السابق ص ١٤٥ .)

وعدم الارتباط بالارض والصدام المستمر الذي ينتج عن تنقـــل القبائل وراء الماء والكـــلأ يميز المجتمعات الرعوية بالسيولة والتفكك السياسيين ويحـــول دون قيام ممالك وانظمة سلطوية مركزية . وقبل أن ننتقل لدراسة هـــذه النقطة الاخيرة تجدر الاشارة الى أن الارتباط بالارض يتضح أيضا من خـــلال دراسة اشكال العبادة لـــدى المجتمعات القبلية الرعوية . وكنا قد أشرنا الى أنـــه في حين تميل المجتمعات الفلاحيـــة لعبادة الشمس التي تنضج الثمار وتأتي بالخصب والحصاد فان المجتمعات الرعوية المتنقلة في

Digitized by Birzeit University Library

الصحراء تحت الشمس المحرقة تعبد عادة القمر والنجوم والينابيع والاشجار ، وتتغنى بالليل الذي يجلب البرودة والرطوبة وتخاطب القمر والنجوم التي تهديها الى طريقها في الليل . لذلك فاننا نجد أن المجتمعات الرعوية تسير عادة حسب التقويم القمري وليس الشمسي كما في المجتمعات الفلاحية . ولتوضيح هذه النقطة الاخيرة لا حاجة بنا الى العودة الى الشعر الجاهلي حيث وصف الليل والتغني به . كما اننا لسنا بحاجة الى الاشارة الى أن العرب أطلقت اسماء خاصة لكل ليلة من ليالي الشهر القمرية وربطت تلك التسمية (وتسمية الشهور القمرية أيضا) بأحداث من حياة الرعاة في الليل . (يذكر المسعودي على سبيل المثال كيف أن العرب كانت « تخبر عن القمر في كل ليلة على حسب ما هو به من الضياء وغيره على طريق المسألة والجواب فتقول : قيل للقمر ما أنت ابن ليلة . فقال : رضاع سخيلة فما أنت لثلاث ليال : قال : حديث فتيات يجتمعن من شتات . قيل : فما أنت لاربع ليال . قيل : غنمة رتع لا جائع ولا مرضع ... » الخ ، المسعودي ص ٣٥٨ ج١) .

كما تجدر الاشارة أيضا الى ما ذهب اليه بعض المؤرخين من أن هبل هو اله القمر عند العرب . وكذلك ما رواه المسعودي عن كون البيت الحرام بيت زحل . يقول المسعودي : « .. وقد ذهب قوم الى أن البيت الحرام على مرور الدهور معظم في سائر الاعصار لانه بيت زحل . وأن زحل تولاه لان زحل من شأنه البقاء والثبوت فما كان له فغير زائل ولا داثر وعن التعظيم غير خامل . وذكروا أمورا اعرضنا عن ذكرها لشناعة وصفها ... » (المسعودي ج١ ص ٣٧٥) .

والامور التي يأنف المسعودي من ذكرها هنا هي بالطبع تعدد الالهة . وهو ما تشكل ظاهرة ملازمة لظاهرة

Digitized by Birzeit University Library

التفكك السياسي القبلي وعدم خضوع القبائل لسلطة مركزية واحدة تمثل الها واحدا وتحكم باسمه . ولعل ابن خلدون قد كان أول من أشار الى ذلك بقوله : « والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الامم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع اهواءهم . فاذا كان الدين بالنبوءة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم .. وقد كان رستم اذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول : أكل عمر كبدي ، يعلم الكلاب الاداب .. » (المقدمة ص ١٥١ — ١٥٢) .

وهذا التفكك السياسي القبلي الذي يميز المجتمعات الرعوية الذي يحول دون قيام أنظمه حكم مركزية داخل الجزيرة العربية يشكل خطرا على أمن وسلامة الخطوط التجارية الواقعة على أطرافها وعلى الامبراطوريات والممالك المحيطة بها وصاحبة المصلحة فيها كما رأينا حتى الان . ويكفي أن نستمع الى روح تلك العصبية القبلية وما نتج عنها من فوضى سياسية على لسان عمرو بن كلثوم حين قتل عمرو بن هند :

اذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الخسف فينا

(راجع ابن الاثير ج١ ص ٢٦٦) .

كما كنا قد أشرنا الى أن مصلحة مكة كمحطة على طريق القوافل التجارية كانت تقتضي استقرار المجتمع المكي وابتعاده عن ارثه القبلي وصدامه المستمر من بيئته القبلية حيث تحتم أن تنطلق دعوى محاربة العصبية القبلية وتوحيد القبائل سياسيا بتوحيد ولائها لاله واحد من تلك المصلحة . والواقع أن تاريخ الجزيرة العربية قبل الاسلام هو سلسلة متواصلة من ذلك الصدام والتفكك السياسي في الداخل من ناحية وبين مجتمع قلب الجزيرة الرعوي

Digitized by Birzeit University Library

والحضارات المحيطة بها من الناحية الاخرى .

غير ان مقولة التفكك السياسي الداخلي هي مقولة نسبية أيضا . وبسبب بناء النسب القبلي الهرمي من ناحية وبتأثير وجود الممالك المحيطة من الناحية الاخرى فقد شهد قلب الجزيرة العربية في فترة ما قبل الاسلام بعض المحاولات لتوحيدها سياسيا .

وقد تراوحت تلك المحاولات بين قيام احدى القبائل باخضاع الاخرى واجبارها على دفع الخراج لها (وأحيانا عبادة آلهتها) وبين قيام مجموعة من القبائل المنتمية الى أصل واحد بالاجتماع على زعيم واحد لمواجهة خطر مشترك، أو قيام الامبراطوريات المجاورة بتمليك هذا الزعيم القبلي أو ذاك على منطقة الحدود معها بحيث يضمن أمن مصالحها التجارية وحدودها . والمراجع العربية تزخر بتلك المحاولات وبالصدامات التي نشأت عنها والتي عرفت بأيام العرب .

فمنها ما روى عن محاولة زهير بن جناب الكلبي زعيم قضاعة تمليك نفسه على بكر وتغلب ومنعهم من النجعة حتى يؤدوا الخراج والحروب التي أعقبت ذلك . (ابن الاثير ج١ ص ٢٠٦) . كما ينسب الى زهير هذا محاربته بني بغيض من غطفان الذين حاولوا بناء حرم لهم كحرم مكة تعبده العرب . الامر الذي اشعل الحرب بين كلب وغطفان . يقول ابن الاثير : « وكان سبب غزاته غطفان أن بني بغيض بن ريث بن غطفان حين خرجوا من تهامة ساروا بأجمعهم فتعرضت لهم صداء وفتكوا فيهم . فعزت بغيض بذلك واثرت وكثرت اموالها . فلما راوا ذلك قالوا : والله لنتخذن حرما مثل مكة ، لا يقتل صيده ولا يهاج عائذه فبنوا حرما وليه بنو مرة بن عوف . فلما بلغ فعلهم وما اجمعوا عليه زهير بن جناب (الكلبي زعيم قضاعة) قال : والله لا يكون ذلك ابدا وانا حي ولا اخلي غطفان تتخذ حرما ابدا . فنادى قومه فاجتمعوا اليه .. وقاتلهم ... وعطل ذلك الحرم » (ابن الاثير ج١ ص ٢٠٥) .

Digitized by Birzeit University Library

واذا أضفنا الى ذلك ما يرويه ابن الاثير من أن زهيرا هذا ظهر في نجد زمن قيام ابرهة بحملته على الكعبة وانه التقى به وأيده في ذلك ، استطعنا أن نقول بأن تلك كانت احدى المحاولات لتوحيد نجد بزعامة بني كلب وبهدف منافسة مكة على زعامة الجزيرة العربية . كما كنا قد أشرنا الى الروايات التي تحدثت عن ظهور مملكة كنده في نجد (وقبيلة كندة يمانية الاصل) وعلاقتها بملوك حمير في اليمن وانهيارها لرفض بني أسد دفع الخراج وتمردهم على ملكها حجر والد امرىء القيس وقتلهم اياه . (ابن الاثير ج١ ، ص ٢١٢ — ٢١٣) .

اما ظاهرة توحيد القبائل التي تنتمي الى أب واحد بشكل طارىء لمواجهة خطر داهم مشترك فقد اصطلح علماء الانتروبولوجيا على تسميتها بالانظمة السياسية الطارئة التي يتيحها الانتماء والتسلسل القبلي والابوي في النسب . وذلك أن تلك القبائل تلتقي وتفترق عند ذات الاب المشترك في نفس الوقت . وفي المراجع العربية اشارة الى مثل تلك الانظمة الطارئة التي تؤكد على أن نظام القبيلة الواحدة والمستقلة سياسيا لم يكن يعمل في فراغ مطلق بل في جو من الاحلاف والاحلاف المضادة . وهنا تجدر الاشارة الى ما يرويه ابن الاثير من أن قبائل معد كانت تجتمع كلها تحت لواء واحد حين يداهمها خطر خارجي مشترك كحروبها مع ملوك حمير في اليمن الذين كانوا يسعون الى اخضاع قبائل تهامة . يقول ابن الاثير « وكان لواء ربيعة بن نزار للاكبر فالاكبر من ولده : فكان اللواء في عنزة بن أسد بن ربيعة . وكانت سنتهم انهم يوفرون لحاهم ويقصون شواربهم فلا يفعل ذلك من ربيعة الا من يخالفهم ويريد حربهم . ثم تحول اللواء في عبد القيس بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار .. ثم تحول اللواء في النمر بن قاسط بن هنب وكان لهم غير سنة من تقدمهم . ثم تحول اللواء الى بكر بن وائل .. ثم تحول اللواء الى تغلب فوليه

Digitized by Birzeit University Library

وائل بن ربيعة (كليب) ... ولم يجتمع معد الا على ثلاثة نفر وهم : عامر بن الظرب ... وكان قائد معد حين تمذحجت وسارت الى تهامة وهي أول وقعة كانت بين تهامة واليمن . والثاني ربيعة بن الحارث بن مرة ... وكان قائد معد يوم السلان بين أهل اليمامة واليمن . والثالث وائل بن ربيعة وكان قائد معد يوم خزاز ففضّ جموع اليمن وهزمهم وجعلت له معد قسم الملك وتاجه وطاعته ... » (ابن الاثير ج١ ٢١٤ — ٢١٥) .

غير أن محاولات الوحدة من هذا النوع لم تكن تتجاوز بناء التفكك القبلي . فالقبائل كما قلنا كانت تفترق حين تلتقي . واجتماع ربيعة ومعد كلها على وائل بن ربيعة زعيم تغلب لم يمنع اندلاع الحرب بين هذه الاخيرة وأبناء عمومتها بكر بن وائل فيما عرف بحرب البسوس . كما أن اجتماع عبس وذبيان من غطفان على بني عامر بن صعصعه في ما عرف بيوم النباة لم يمنع اقتتالهما في حرب داحس والغبراء (ابن الاثير ج١ ص ٢٣٤) .

والحقيقة أن « أيام العرب » تزخر بهذه الحروب القبلية التي قيل فيها أجود وأجمل الشعر الجاهلي الذي يشكل أكبر دليل على حالة التفكك السياسي الذي يفرزه بناء الجزيرة القبلي . غير أن الاهم من ذلك من وجهة نظر دراستنا هذه هو كون هذا البناء القبلي قد شكل خطرا مستمرا على أطراف الجزيرة العربية حيث قامت الامبراطوريات على مر العصور بمحاولات مستمرة لصد ذلك الخطر .

وهذه النقطة هامة من وجهة نظر دراسة تاريخ المشرق العربي قبل الدعوة وخلال الفتوحات الاسلامية أيضا . اذ أن التعبير الذي ارتبط بتسمية العرب بهذا الاسم ارتبط أيضا بظهور القبائل العربية الاولى وغاراتها على أطراف الجزيرة منذ فجر التاريخ . وقد أشار د. جواد علي في كتابه **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام** الى ان

Digitized by Birzeit University Library

اسم العرب ارتبط في الفترة الاشورية الاولى بظهور القبائل المتنقلة التي سكنت الصحراء القاحلة (عربه ، عاربا) على حدود تلك الامبراطورية . أي أن هذا الاسم ارتبط بظاهرة الجفاف وعملية التنقل المستمرة .وفي الكتاب المذكور محاولة جدية لتقصي عملية الربط تلك على خلفية علاقة القبائل العربية المتنقلة داخل وعلى أطراف الجزيرة بالامبراطوريات القديمة التي نشأت على طرفي الهلال الخصيب (راجع الجزء الاول) .

ومن الناحية الاخرى فان « أيام العرب » والروايات التي وردت في المراجع العربية مليئة بالاشارات الى تلك العلاقة . ومع أن هذه المصادر الاخيرة لا تمكننا من القيام بدراسة تقريرية جدية في هذا المجال (خاصة بالنسبة لما عرب بالعرب البائدة كعاد وثمود وعتيد وطسم وجديس والعماليق وجرهم واياد وعنبل ووبار وعبد بن ضخم ودأسم وأميم وحضورا) ، فان ما فيها من المعلومات يكفي للوقوف على الخطوط العريضة لطبيعة تلك العلاقة .

وأول اشارة الى تلك العلاقة هو ما نجده في رواية للطبري (نقلها عنه ابن الاثير ايضا) حول محاولة نبوخذ نصر حماية حدود امبراطوريته وتأمين مصالحها التجارية بمحاربته القبائل العربية على أطراف الجزيرة واجبارها على الانتقال الى حياة الاستقرار في سواد العراق . يقول الطبري : « ... فوثب بختنصر على من كان في بلاده من تجار العرب ، وكانوا يقدمون عليهم بالتجارات والبياعات ويمتارون من عندهم الحب والتمر والثياب وغيرها . فجمع من ظفر به منهم فبنى لهم حيرا (شبه معتقل) على النجف وحصنهم . ثم ضمهم فيه ووكل بهم حرسا وحفظه ، ثم نادى في الناس بالغزو فتأهبوا لذلك . وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب فخرجت اليه طوائف منهم مسالمين مستأمنين فأنزلهم بختنصر السواد على شواطىء الفرات ، فابتنوا

Digitized by Birzeit University Library

موضع عسكرهم بعد فسموه الانبار (مكان حفظ الاسرى) ، وخلى عن اهل الحير فاتخذوها منزلا حياة بختنصر ... » (ج١ ص ٥٥٨) .

ومهما تكن من حقيقة التفاصيل التي يوردها الطبري هنا (كالخلاف حول أصل تسمية الحيرة) فانها تربط بوضوح بين محاولة نبوخذ نصر تأمين حدود امبراطوريته ومصالحه التجارية وبين الحروب التي كانت له مع القبائل العربية المتنقلة على أطراف تلك الحدود الصحراوية . والطبري يورد رواية اخرى يشير فيها الى ان نبوخذ نصر قام بتلك المحاولة كجزء من الحروب التي استهدفت توسيع حدود امبراطوريته والاستيلاء على سواحل شرقي البحر المتوسط وذلك عقب احتلاله للقدس وسبيه اليهود الى بابل : « فنظم بختنصر ما بين آيله والابله خيلا ورجالا ، ثم دخلوا على العرب فاستعرضوا كل ذي روح اتو عليه وقدروا عليه ... فالتقى عدنان وبختنصر بذات عرق ، فهزم بختنصر عدنان وسار في بلاد العرب حتى قدم الى حضور ، واتبع عدنان فانتهى بختنصر اليها وقد اجتمع أكثر العرب من أقطار عربة الى حضور ... فرجع بختنصر الى بابل بما جمع من سبايا عربة (اسم عام لبلاد العرب ، راجع معجم البلدان) ، فألقاهم بالانبار ، فقيل أنبار العرب ... فلما رجع بختنصر مات عدنان وبقيت بلاد العرب خرابا حياة بختنصر . فلما مات بختنصر خرج معد بن عدنان .. حتى أتى مكة فأقام أعلامها فحج وحج الانبياء معه ... » (نفس المصدر ص ٥٦٠) .

لن نتطرق هنا الى ما تتضمنه هذه الرواية من الاشارة الى أن مكة والحج أصبحت تشكل محورا هاما تنطلق منه دعوى توحيد القبائل العربية ضد اي هجوم خارجي . والنقطة الهامة الاخرى هي أن المد القبلي على اطراف الجزيرة العربية يصبح دالة تاريخية لضعف الامبراطوريات المحيطة بها ولاضطراب خطوط التجارة على تلك الاطراف .

Digitized by Birzeit University Library

وهو ما يؤكد الطبري عليه في حديثه عن ضغط القبائل العربية على حدود العراق مرة اخرى قبيل حملة الاسكندر على الشرق وقبيل قيام الدولة الساسانية وهي فترات تميزت بضعف الامبراطورية الفارسية وعرفت لدى المؤرخين العرب بفترة ملوك الطوائف . يقول الطبري : « وكان اجتماع من اجتمع من قبائل العرب (على التنوخ) بالبحرين (الساحل الشرقي للجزيرة) ، وتحالفهم وتعاقدهم أزمان ملوك الطوائف الذين ملكهم الاسكندر ، وفرق البلدان بينهم عند قتله دارا بن دارا ملك فارس ، الى أن ظهر اردشير ابن بابك ملك الفرس (الساسانيين) على ملوك الطوائف وقهرهم ودان له الناس وضبط له الملك . قال (صاحب الرواية) : وانما سمو ملوك الطوائف لان كل ملك منهم كان ملكه قليلا من الارض ، انما هي قصور وابيات ، وحولها خندق ، وعدوه قريب منه ، له من الارض مثل ذلك ونحوه ، يغير أحدهم على صاحبه ثم يرجع كالخطفة . قال (صاحب الرواية) : فتطلعت انفس من كان بالبحرين من العرب الى ريف العراق وطمعوا في غلبة الاعاجم على ما يلي بلاد العرب أو مشاركتهم فيه . واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف ، فأجمع رؤساؤهم على المسير الى العراق ووطن جماعة ممن كان معهم على ذلك . » (ج١ ص ٦١٠ — ٦١١) .

ويظهر انه في فترة ضعف ملوك الطوائف تلك قد تمت احدى الهجرات الكثيفة لقبائل الجزيرة العربية واليمن الى العراق ، الامر الذي يفسر كيف أن المؤرخين العرب ربطوا بين تلك الهجرات وما رووه عن مسير تبع الى العراق . كما أن ما تمخضت عنه تلك الهجرة الكثيفة وما يمكن اعتباره بالتدخل اليمني من ناحية وضعف الامبراطورية الفارسية من الناحية الاخرى هو بداية ظهور نظام استقرار ملكي عربي في جنوب العراق بزعامة جذيمة بن الابرش ومن بعده المناذرة من آل نصر بن ربيعة اللخمي . كما ان المراجع

Digitized by Birzeit University Library

العربية التي تورد ذلك تشير أيضا الى بداية النزاع بين تلك المملكة وبين ممالك وكيانات عربية اخرى أخذت تتبلور في تلك الفترة على الاطـراف الشمالية الغربية للجزيرة العربية ـ الامر الذي يحمل بين طياته تفسير مسألـة النزاع التاريخي بين المناذرة والغساسنة . (راجع ابن الاثير ، ج١ ، ص ١٣٥ والطبري ، ج١ ص ٧١٦) .

سنرى فيما بعد كيف أن طابع المشيخات القبلية طغى على تلك الكيانات بتأثير خلفيتها وبيئتها القبليتين . والاهم من ذلك هو أن هذا الطابع القبلي تجسد في تطور تلـك المشيخات كبارومتر سياسي لمقياس التوازن الدقيق بين المد القبلي من ناحية ومقدرة الامبراطوريات على التصدي لذلك المد من الناحية الاخرى . فضعف تلك الامبراطوريات كان ينعكس رأسا في تزايد المد القبلي خاصة في جنوب العراق الامر الذي كانت تجيره تلك المشيخات سياسيا في تأكيدها على استقلالها عن الامبراطورية الفارسية ورفضها التبعية لها . والروايات التي يوردها المؤرخون العرب ، وان كانت مضطربة وغير ذات طابع تقريري ، فان فيها الكثير عن مسألة ذلك التوازن . يقول البلاذري في وصفه لفترة حكم سابور بـن هرمز (بداية القرن الرابـع) : « وسمع الملوك ان ملك الفرس صغير في المهد فطمعت في مملكتهم الترك والعرب والروم . وكانت العرب اقرب الى بلاد فارس فسار جمع عظيم منهم في البحر من عبد القيس والبحرين الى بلاد فارس وسواحل اردشير خرة وغلبوا اهلها على مواشيهم ومعاشهم واكثروا الفساد . وغلبت اياد على سواد العراق واكثروا الفساد فيهم فمكثوا حينا لا يغزوهم احد من الفرس لصغر ملكهم .. فلما بلغ ست عشرة سنة وقوي على حمل السلاح جمع رؤساء اصحابه فذكر لهم ما اختل من أمرهم .. وسار بهم ونهاهم عـن الابقاء على احد من العرب . وقصد بلاد فارس واوقع بالعرب وهم غارون فقتل واسر واكثر ثم قطع البحر الى

Digitized by Birzeit University Library

الخط فقتل من بالبحرين ولم يلتفت الى غنيمة . وسار الى هجر وبها ناس من تميم وبكر بن وائل وعبد القيس فقتل منهم حتى سالت دماؤهم على الارض وأباد عبد القيس وقصد اليمامة واكثر في أهلها القتل وغور مياه العرب وقصد بكرا وتغلب فيما بين مناظر الشام والعراق فقتل وسبى وغور مياههم ... وكان ينزع اكتاف رؤسائهم ويقتل الى أن هلك فسموه سابور ذا الاكتاف لهذا . » (ابن الاثير ، ج١ ص ١٥٦ — ١٥٧ . كذلك راجع المسعودي ، ج١ ص ١٥٨) .

كما يذكر ابن الاثير في هذه الرواية ان غارات سابور ضد القبائل العربية أتت بعد قيام مملكة المناذرة بقليل ، الامر الذي يؤكد على أفادة المناذرة اللخميين من حالة الضعف والفوضى التي سبقت ذلك . وبعد تلك الغارات نجح سابور في ضبط حدود مملكته وأعاد اخضاع المناذرة بتوليته عمرو بن امرىء القيس بن عمر بن عدي الذي يعتبره المؤرخون العرب مؤسس تلك المملكة . (راجع ابن الاثير ، ج١ ص ١٥٨ وكذلك الطبري ، ج١ ص ٦١٤ والمسعودي ج١ ص ٢٩٣ — ٢٩٧) .

لن نحاول القيام هنا بدراسة تقريرية مفصلة لفترة حكم المناذرة اللخميين في العراق . غير أن كثرة الروايات التي يوردها المؤرخون العرب حول النزاع الذي انفجر بين هؤلاء وبين مملكة كندة المنافسة في نجد تستدعي التوقف قليلا ، وعلى الرغم من تضارب تلك الروايات التي يوردها كل من الطبري وابن الاثير حول ذلك النزاع فان ما نستطيع قوله هنا أن علاقة المناذرة بالفرس كانت محكومة بالدرجة التي تمكن فيها هؤلاء من حفظ حدود الامبراطورية من ناحية وباستعدادهم تقبل تبعيتهم وولائهم للفرس وذلك في وضع اختل فيه ميزان القوى السياسية في شرق وشمال شرق الجزيرة العربية بظهور مملكة كندة في نجد . (راجع الطبري

Digitized by Birzeit University Library

ج١ ص ٥٢٢ — ٥٢٣ وابن الاثير ج١ ص ١٦٤) كما خلد الشعر الجاهلي ذلك النزاع والحروب التي اندلعت بين الكنديين والمناذرة الى أن استتب الامر لهؤلاء اخيرا . من ذلك قول عمرو بن كلثوم يصف نتائج احد حملات المناذرة على شمالي نجد وقتلهم الكنديين في دير بني مرينا (حيث شاركت تغلب في الحرب الى جانب المنذر بن ماء السماء) :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

وقول امرىء القيس :

ملوك من بني حجر بن عمرو يساقون العشيـة يقتلونا
فلو في يوم معركـة أصيبو ولكـن في ديار بني مرينا

وعلى اساس ذلك التوازن الدقيق الذي نبع عن حاجة الامبراطورية الرومانية — البيزنطية في حفظ أمن حدودها ومصالحها التجارية في وجه المد القبلي شهدت الاطراف الغربية للهلال الخصيب ظهور مثل تلك المشيخات التـي ارتبطت بعلاقة من الحماية والولاء بتلك الامبراطورية ، وتشير المراجع العربية الى أن ظهور تلك المشيخات جاء على شكل دفعات من الهجرات القبلية المتتالية الى بـلاد الشام حيث كانت القبيلة الغالبة تدين بولائها للامبراطورية البيزنطية بدخولها النصرانية وتلتزم بالمحافظة على أمـن حدودها وقوافلها واخضاع القبائل المتاخمة لتلك الحدود . واذا كانت تلك المراجع تشير بشيء من الغموض والاضطراب الى ظهور مملكة العماليق بزعامة عمرو بـن الظرب بن حسان العمليقي كأول كيان من هذا النوع (في فترة حكم جذيمة بن الابرش على العراق) فان المسعودي يصف لنا تسلسل انتقال الحكم الى القبائل العربية التي هاجرت الى بلاد الشام على دفعات وحتى مجيء الغساسنة . واولى تلك القبائل العربية المهاجرة كانت بني قضاعة بن مالك بن حمير اليمانية . وهي في نظر المسعودي « اول من نزل الشام وانضافوا الى ملوك الروم ، فملكوهم بعد أن دخلوا

Digitized by Birzeit University Library

في النصرانية على من حوى الشام من العرب » . ويضيف المسعودي في روايته : « ... ثم وردت سليح الشام فغلبت على تنوخ (قضاعة اليمانية) وتنصر من ملكته الروم على العرب الذين بالشام .. وغلبت على من بالشام من العرب فملكها الروم على العرب . » (المسعودي ج١ ص ٢٩٧) .

وقد نشبت بين تلك الكيانات التي نشأت على طرفي الهلال الخصيب عدة حروب شكلت امتدادا للصراع بين الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية للسيطرة على المنطقة. والمراجع العربية و « أيام العرب » غنية بالروايات والاشعار التي خلدت تلك الحروب بين المناذرة والغساسنة . منها يوم عين اباغ بين المنذر بن ماء السماء وبين الحارث الاعرج ابن ابي شمر جبله حيث قتل المنذر . وفيها قال ابن الرعلاء الضبابي فيما نسب اليه من الشعر :

كم تركنا بالعين عين أباغ — من ملوك وسوقة أكفاء
امطرتهم سحائب الموت تترى — ان في الموت راحة الاشقياء

(راجع ابن الاثير ، ج١ ص ٢٢٣) .

غير أن مهمة كلا الدولتين الاولى كانت ضبط ظاهرة التنقل القبلية والمحافظة على أمن الحدود والقوافل التجارية. وللدلالة على ذلك تكفي الاشارة الى ما أورده ابن الاثير من الحروب التي كانت للغساسنة مع بني تغلب حين رحلت من العراق الى جزيرة الشام ، يقول ابن الاثير : « ثم انتفضت تغلب على المنذر (بن ماء السماء) ولحقت بالشام ... فخرج ملك غسان بالشام وهو الحارث بن ابي شمر الغساني فمر بافاريق من تغلب فلم يستقبلوه ، وركب عمرو ابن كلثوم التغلبي فلقيه فقال لـه : ما منع قومك أن يتلقوني ، فقال : لم يعلموا بمرورك ، فقال : لئن رجعت لاغزونهم غزوة تتركهم ايقاظا لقدومي ، فقال عمرو : ما استيقظ قوم الا نبل رأيهم وعزت جماعتهم فلا توقظن

Digitized by Birzeit University Library

نائمهم .. فلما عاد الحارث الاعرج غزا بني تغلب فاقتتلوا واشتد القتال بينهم ثم انهزم الحارث وبنو غسان وقتل اخو الحارث في عدد كثير ..» (ابن الاثير ، ج١ ص ٢٢٢) . وفي هذه الحروب ما نسب الى عمرو بن كلثوم قوله :

ألا فاعلم أبيت اللعن أنا أبيت اللعن فاد ما تريد
وأنا ليس حي من معد يقاومنا اذا لبس الحديد

وقولـــه :

هـــلا عطفت على أخيك اذا دعـــا
بالنكـل ويل أبيك يا ابن أبي شمر
فذق الـــذي جشمت نفسك واعترف
فيهـا أخاك وعامر بن أبـي حجـر

واذا كانت هذه الرواية تدل على شيء فانها تدل على خطر التفكك والفوضى السياسيين اللذين ينبعان عن البناء والتنقل القبليين . والسجل الحافل من الحروب التي خاضتها المناذرة ضد الغارات القبلية أكبر دليل عى ذلك التفكك السياسي . منها ما عرف بيوم أواره الاول بين المنذر بن امرىء القيس وبين بني بكر بن وائل ، وسببه كما يقول ابن الاثير هو « ان تغلب لما اخرجت سلمه بن الحارث عنها التجأ الى بكر بن وائل ... فلما صار عند بكر اذعنت له وحشدت عليه وقالوا : لا يملكنا غيرك . فبعث اليهم المنذر يدعوهم الى طاعته فأبوا ذلك .. وسار اليهم في جموعه ، فالتقوا بأواره فاقتتلوا قتالا شديدا ... » (ابن الاثير ، ج١ ص ٢٢٨) .

ومن هذه الحروب أيضا يوم أواره الثاني بين عمرو بن المنذر بن امرىء القيس وبين بني تميم ، ثم يوم الرحرحان بين النعمان بن امرىء القيس وبين قبائل قيس عيلان وهوازن وعامر بن صعصعة . (نفس المصدر ، ص ٢٢٩ — ٢٣٤) .

Digitized by Birzeit University Library

والى جانب التفكك السياسي فان بعض هذه الحروب تدلنا على طابع المشيخة العشائري الذي كان يحكم المناذرة والذي تحتم عن نشوء مملكتهم وتعاملها مع البيئة القبلية . وهو ما يبرز من خلال وقوفنا على السبب الذي من اجله اندلعت الحرب التي عرفت بيوم طخفة بين النعمان بن المنذر وبين بني يربوع . هذه الاخيرة تمردت على النعمان لمحاولته نقل الردافة — التي هي الوزارة — منهم ومنحها للحارث ابن مجاشع الدارمي . الامر الذي يؤكد على أن المناذرة حاولوا تأمين ولاء القبائل العربية لهم عن طريق ربط شيوخهم بمناصب منحوها لهم ، اي أن سعي المناذرة لضبط الفوضى والتفكك القبليين كان يتم أحيانا عن طريق استيعاب المؤسسات والمفاهيم السياسية القبلية وليس محاربتها مما شكل امتدادا للطابع القبلي لبيئتهم السياسية على مؤسسات مملكتهم . كما أن هزيمة النعمان في هذه الحرب اضطرته الى الرضوخ لطلب بني يربوع الابقاء على الردافة (التي هي جلوس شيخهم كوزير عن يمين الملك) فيهم . (ابن الاثير ، ج١ ص ٢٧٢) .

غير أن ما يكمن وراء حروب التفكك السياسي التي كانت للمناذرة في محاولتهم ضبط بيئتهم القبلية واخضاعها يبقى في الاساس الحاجة في تأمين خطوط وقوافل التجارة على أطرافها الجزيرة وداخلها . واذا كنا قد تطرقنا في السابق الى هذه النقطة الهامة فان الوقوف على بعض الحروب التي كانت لهم ضد الغارات القبلية على قوافلهم تكفي للتأكيد على هذا العامل الهام . من هذه الحروب ما عرف بيوم السلان بين النعمان بن المنذر وبين بني عامر ابن صعصعة . وسببها هو أن هذه الاخيرة اغارت على قافلة تجارية كان يجهزها النعمان كل سنة ويرسلها الى سوق عكاظ (وكانت تسمى اللطيمة) . ومن خلال رواية ابن الاثير حول هذه الحرب تتضح جوانب اخرى من الطابع القبلي الذي كان يسيطر على مملكة المناذرة وجيشهم .

Digitized by Birzeit University Library

اذ انه يروي كيف ان النعمان بن المنذر استعمل في هذه الحرب « صنائعة » . والصنائع من كان يصطنعه من قبائل العرب ويغزو به — كبني ضبة بن أود وغيرهم من الرباب وتميم . كما يذكر ابن الاثير في تلك الرواية أن بني عامر ابن صعصعة كانت « لقاحا » — وهو اسم كان يطلق على القبائل التي لا تدين للملوك . (ج١ ص ٢٦٨ — ٢٦٩) .

اما المناسبة الثانية التي تبرز خطر تلك البيئة القبلية الامني على القوافل التجارية فكانت ما عرف بيوم الصفقة وهو قيام المكعبر والي كسرى على البحرين بذبح بني تميم في حصن المشقر لاغارتهم على قوافل اليمن الى كسرى ونهبها . والروايات التي تصف ذلك تشير بوضوح الى أن الفرس كانوا يستعملون تلك المشيخات والمحميات لاداء مهمة التصدي للخطر القبلي وذلك لعجزهم عن القيام بذلك بأنفسهم بسبب طبيعة الصحراء القاسية . يقول ابن الاثير: « وأراد ارسال الجنود الى تميم فقيل له أن ماءهم قليل وبلادهم بلاد سوء وأشير عليه أن يرسل الى عامله بالبحرين .. وهو الذي سمته العرب المكعبر ... وكانت تميم تسير الى هجر للميره واللقاط . فأمر المكعبر مناديا ينادي ليحضر من كان ها هنا من بني تميم فان الملك قد أمر لهم بميره وطعام فحضروا ودخلوا المشقر وهو حصن ، فلما دخلوا قتل المكعبر رجالهم واستبقى غلمانهم ... وجعل الغلمان في السفن وعبر بهم الى فارس ... » (ج١ ، ص ١٩٠) .

Digitized by Birzeit University Library

الدعوة الاسلامية وتوازن التقائض التاريخي :

كنا قد حاولنا في المحاضرات السابقة وضع الخلفية التاريخية العامة لظهور الدعوة الاسلامية . وقد راينا كيف أن تاريخ العرب قبل الاسلام كان محكوما بعوامل مناخ وموقع الجزيرة العربية ، الامر الذي نتج عنه توازن تاريخي دقيق بين المراكز الحضارية التي نشأت على أطراف الجزيرة العربية كمحطات هامة على طرق قوافل تجارة الترانزيت الدولية من ناحية (والتي اعتاش بعضها وبشكل محدود على زراعة الواحات التي استلزمت تنظيم عملية الري الصناعي كاليمن والمدينة والطائف الخ ...) وبين بيئتها القبلية والرعوية المتنقلة داخل الجزيرة العربية . وهذه المراكز الحضارية شكلت بدورها نقاط التقاء تصارعت فيها قوى التفكك والفوضى القبليين من ناحية ومصالح الامبراطوريات القديمة في تأمين استقرار حدودها وسلامة قوافلها التجارية .

وعلى المستوى السياسي انعكس هذا التوازن الدقيق في تأثر تلك المراكز السريع بالتقلبات السياسية التي كانت تطرأ على تلك الامبراطوريات ووعيها الدقيق لحساسية واهمية موقعها من هذه الناحية . واذا كان ذلك يعني أن استقلال تلك المراكز السياسي بقي معرضا للخطر من قبل تلك الامبراطوريات لاهمية مواقعها فان ذلك الخطر قد اختزل بورود عامل التفكك السياسي القبلي الضاغط على أطراف الجزيرة والذي لم يكن يهدد وجود تلك المراكز فقط بل ومصالح تلك الامبراطوريات ايضا . والتقاء هذه العوامل والتيارات السياسية المتناقضة في تلك المراكز اعطاها دورا سياسيا مزدوجا . فبالنسبة للامبراطوريات المحيطة بالجزيرة شكلت تلك المراكز صمامات أمن ضرورية لاختزال

Digitized by Birzeit University Library

الخطر القبلي على مصالحها . غير أن خطرها على مصالح تلك الامبراطوريات تجسد في كونها القوى السياسية التي تستطيع تنظيم ذلك المخزون القبلي الخطير أيضا . بالنسبة للمجتمع القبلي كانت تلك المراكز تمثل الحضارات والامبراطوريات المحيطة وفي نفس الوقت كانت تمثل خطر البداوة والقبلية بالنسبة لذات الامبراطوريات .

وهذه الازدواجية في الدور السياسي انعكست على تطور البنية الاجتماعية لتلك المراكز كمزيج من البداوة القبلية وحضارة الاستقرار في ذلك الوقت . أي تطورها كمراكز شبه حضارية أفرزت مؤسسات وأطر حضارية على خلفية من الارث القبلي العشائري . رأينا ذلك في اليمن ولدى المناذرة وفي مكة أيضا . غير أن هذا المزيج لم يكن راكدا بل تميز بتوازن دقيق تأثر بالتغيرات السياسية التي تعرضت لها تلك المراكز والتي نبعت حتما عن موقعها الجيوستراتيجي وعلاقاتها بالامبراطوريات المحيطة . فالتوازن الاجتماعي بين عناصر الحضارة والبداوة داخل تلك المراكز هو جزء من التوازن السياسي في المنطقة . وتغير خطوط التجارة أو ضعف الامبراطوريات المحيطة كان ينعكس بشكل مباشر على ذلك التوازن الاجتماعي ويؤدي الى بداية فترة من المد القبلي ليس في علاقة تلك المراكز بمحيطها القبلي فقط وانما داخلها أيضا .

وقد رأينا ذلك جليا في دراستنا لتاريخ جميع تلك المراكز من وجهة نظر تتبع التغيرات التي طرأت على ذلك التوازن، واذا صحت هذه المواصفة بالنسبة لتاريخ اليمن وطرفي الهلال الخصيب في فترة ما قبل الاسلام فانها تصح بالدرجة الاولى بالنسبة لمكة وذلك بسبب موقعها الجغرافي . اذ اننا كنا قد رأينا كيف أن الامبراطوريات المحيطة بالجزيرة كانت تقوم بحملات احتلال مباشرة لتلك المراكز في حالة اختلال ذلك التوازن بالشكل الذي يهدد مصالحها . غير أن موقع مكة الجغرافي بعيدا عن متناول يد تلك الامبراطوريات

Digitized by Birzeit University Library

حال دون قيام تلك الاخيرة بحسم مسألة التوازن تلك في صالحها وممكن مكة من المحافظة على شيء من الاستقلال النسبي اي في ظل بقاء ذلك التوازن .

ونسبة استقلال مكة الى ذلك التوازن كانت تعني أن يتأثر المكيون بالتغيرات السياسية التي كانت تطرأ على تلك المراكز وأن يطوروا وعيا دقيقا لتلك التغيرات . وقد رأينا كيف تجسد ذلك بالايلاف الذي أخذه قصي لقريش من الممالك المحيطة بالجزيرة وبالاهتمام الذي أبداه زعماء مكة تجاه قيام الاحباش والفرس باحتلال اليمن أيضا .

غير أن ما ميز مكة عن بقية تلك المراكز هو مقدرتها على المحافظة على استقلالها النسبي الذي هو عدم تمكن أي من القوى السياسية المحيطة من اخضاعها على الرغم من أن محاولات كهذه قد تمت بالفعل . لذلك فقد أضيف للدور الذي لعبته مكة من المحافظة على ذلك التوازن تجاه بيئتها القبلية بعداً آخر تجسد في كونها القوة السياسية الوحيدة التي تستطيع تنظيم تلك البيئة وقيادتها سياسيا بمعزل عن خطر تدخل تلك الامبراطوريات من الخارج واخلال ذلك التوازن في صالحها .

هنا نستطيع العودة الى ما قلناه سابقا من أن تاريخ مكة قبل الاسلام قد شكل تجسيدا للطابع المزدوج الذي هو سعي المكيين في المحافظة على ذلك التوازن من ناحية وحمل في طياته امكانيات توحيد الجزيرة العربية سياسيا والصدام مع الامبراطوريات المحيطة بها من الناحية الاخرى. فتطور مكة كمحطة على طريق القوافل التجارية حتم أن يجد المكيون أنفسهم في صدام مع بيئة التفكك وعدم الاستقرار السياسي القبليين — الامر الذي يفسر كيف أن مكة حملت راية الوحدة السياسية بتوحيد القبائل على عبادة اله واحد منذ بداية نشأتها — والذي تجسد بدوره في قدسية البيت الحرام وحج العرب اليه وتحريم الحرب

Digitized by Birzeit University Library

في الاشهر الحرم الخ .. غير أن نجاح دعوة التوحيد تلك الذي يوفر الاستقرار السياسي باخضاع قبائل الجزيرة العربية ويؤمن طرق القوافل ومصالح الامبراطوريات التجارية كان يحمل في نفس الوقت بذور الصدام مع تلك الامبراطوريات عن طريق السيطرة على خطوط التجارة ايضا . ومن الناحية الاخرى فان ضعف المراكز الحضارية على اطراف الجزيرة العربية وانهيارها أو احتلالها من قبل احدى الامبراطوريات صاحبة المصالح في المنطقة كان يؤدي الى اختلال التوازن وبداية موجة جديدة من المد والتفكك السياسي القبليين . واختلال ذلك التوازن في صالح المد القبلي كان يعني على المستوى الديني انتشار ظاهرة تعدد الالهة والاوثان والطوطمية القبلية حتى داخل مكة .

من هنا نستطيع القول بأن التطورات التي مرت بها الجزيرة العربية في الفترة التي سبقت الاسلام بقليل قد حملت في طياتها مسألة الاخلال بذلك التوازن السياسي والاجتماعي داخل الجزيرة العربية وعلى اطرافها وحتمت تاريخيا أن تنطلق من مكة دعوة جديدة للتوحيد تجابه المد القبلي الذي تعرضت له الجزيرة وتسد الفراغ السياسي الذي أحدثته تلك التطورات على أطرافها .

واهم تلك التطورات كانت الحروب التي اندلعت بين الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية في النصف الثاني من القرن السادس وبداية القرن السابع ، والاضطراب العام الذي نتج عنها وعن ضعف تلك الامبراطوريات في المنطقة . وحالة الضعف والاضطراب تلك أدت كما رأينا الى ظهور موجة جديدة في المد القبلي ليس على اطراف الجزيرة العربية فحسب وانما داخلها ايضا مما أوجد حالة من السيولة السياسية بما يتيح امكانية اعادة صياغة مسألة التوازن لصالح أية قوة تستطيع سد الفجوة .

والقوة الوحيدة التي كانت تستطيع ذلك هي مكة . فاليمن كانت غارقة في حالة من الضعف والانحلال اللذين

Digitized by Birzeit University Library

نتجا عن توالي احتلال الاحباش والفرس لها والتي اصبحت قبيل الاسلام مجرد ولاية للامبراطورية الفارسية المنهوكة القوى ايضا . كما أن الحروب التي لم تتوقف طيلة القرن السادس تقريبا قد عرضت الهلال الخصيب للخراب باجتياح الجيوش البيزنطية لها مرة والفارسية مرة أخرى الامر الذي أضعف مقدرة تلك الامبراطوريات ومحمياتها على حمايـــة حدودهـــا .

ولعل أكبر دليل على المد القبلي الذي شهدته الجزيرة نتيجة لتلك التطورات هو معركة ذي قار التي يقال أنها وقعت في أوائل القرن السابع والتي انهزمت فيها جيوش الفرس وحلفائهم أمام القبائل العربية . ولا حاجة هنـــا لذكر الروايات المختلفة حول أسباب وتفاصيل المعركة . غير أن نتائج تلك المعركة أثبتت كيف أن جيش الفرس ومن والاهم من العرب بقيادة اياس بن قبيصة الطائي الذي ولاه كسرى على الحيرة لـــم تستطع الوقوف أمام قبائل شيبان وعجل وبكر بن وائل . (ابن الاثير ج١ ص ٢٠٠) .

كما أن الحروب القبلية التي شهدها جنوب العراق أواخر أيام المناذرة (والتي وقفنا على بعضها في المحاضرات السابقة) والتي أعقبت انهيار مملكة كندة في نجد تشهد ايضا على مدى قوة ذلك المد القبلي . وفي السابق كنا قد تطرقنا الى حرب الفجار كحلقة أخرى من ذلك المد الذي وصل الى أبواب مكة .

غير أن انتصار مكة في تلك الحرب وما تبعه من الموقع القيادي الذي أخذت تتمتع به عقب ذلك وعقب فشل محاولة ابرهة احتلالها أيضا جعل منها القوة الوحيدة التي تستطيع استغلال السيولة السياسية من أجل اخلال ذلك التوازن ضد المد القبلي داخل الجزيرة ومن أجل تأمين خطوط التجارة الدوليـــة وملىء الفراغ السياسي الـــذي أحدثه ضعف الامبراطوريتين على أطرافها .

وعلى هذه الخلفية تبرز أهمية دراسة الاسلام كقـــوة

Digitized by Birzeit University Library

سياسية حتمت ظروف وتركيبة مكة في تلك الفترة ظهورها وادائها لذلك الدور التاريخي في توحيد الجزيرة العربية في تلك الفترة وللدعوة الاسلامية كعقيدة وكأيديولوجيا لذلك الدور التاريخي . وقبل ان ننتقل الى البحث في ذلك الدور يجدر بنا التوقف قليلا على طبيعة المضامين الاجتماعية والفكرية التي حملتها تعاليم الدعوة الاسلامية والقيام بمحاولة لربط تلك المضامين بالدور السياسي الذي قام به الاسلام في توحيد الجزيرة العربية .

وهذه النقطة الهامة تشكل بدورها جزءا من السؤال الذي طالما طرح على لسان بعض المؤرخين المعاصرين حول أيديولوجية اي المجتمعات يشكل الدين الاسلامي يا ترى ، هل هو أيديولوجية المجتمع التجاري المكي ؟. واذا كانت الاجابة بنعم فما هو مكان العصبية القبلية فيه . وما موقفه من مسألة التمايز الطبقي ؟ هل هو دين المساواة والاشتراكية ؟ هل هو دين عقلاني ؟ وما هو مكان التأمل اللاعقلاني والغيبي فيه ؟ .

وقد بدأت هذه الاسئلة تطرح من جديد في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وذلك من مصدرين أساسيين . الاول هو أئمة الاصلاح الاجتماعي كجمال الدين الافغاني ومحمد عبده وكثير غيرهم ممن رفض بشكل دفاعي وتسليفي كون الدين الاسلامي عامل تخلف العالم الاسلامي وانحطاطه بالنسبة لاوروبا . والثاني : غالبية المستشرقين الغربيين ممن وقعوا في بداية القرن الحالي تحت تأثير نظرية ماكس فيبر التي ربطت بين البروتستانتية والتطور الراسمالي في أوروبا وخلصوا الى كون الدين الاسلامي عامل تخلف اجتماعي واقتصادي لكونه يبعث على الاتكالية والايمان بالقضاء والقدر والسلبية الخ ... .

وفي كتابه « الاسلام والراسمالية » حاول مكسيم

Digitized by Birzeit University Library

رودنسون الرد على هؤلاء بأن اوضح كيف أن مسألة الايمان في الاسلام هي مسألة وعي عقلاني ، نسبي وايجابي ، وان الاسلام يؤكد على عنصر المبادرة والمسؤولية الفردية الامر الذي يعكس كونه نتاجا فكريا للمجتمع التجاري الراقي الذي نشأ في مكة في تلك الفترة .

غير أن مكسيم رودنسون الذي اجتهد للاثبات بأن الدين الاسلامي لم يكن عائقا أمام التطور الرأسمالي لاقتصاد البلدان الاسلامية ، لم يحاول الاجابة على السؤال حول الاسباب التي من أجلها لم يشهد عالم العصور اوسطى الاسلامي تطورا من هذا النوع . ولان البحث في هذا السؤال الاخير يقتضي دراسة نمط الاقتصاد البضائعي الذي نما في الفترة العباسية على خلفية الخصائص الاقتصادية التي ميزت المدينة العربية وموقعها من الريف وطبيعة علاقات الملكية العربية على الارض ، ومقارنة ذلك بمرحلة التراكم الاولى للرأسمال التي شكل ظهور مدن العصور الوسطى في أوروبا كظاهرة انتاجية جديدة على المستويين الاقتصادي والاجتماعي مميزا لها ، فان الرجوع الى قاعدة علاقات الانتاج والدور الاقتصادي والسياسي الذي لعبه مجتمع مكة الشبه حضاري على مستوى الجزيرة العربية بتركيبتها القبلية المتنقلة وعلى مستوى تجارة الترانزيت الدولية في المنطقة ، تبقى الطريق الوحيدة للاجابة على سؤال : أيديولوجية من يا ترى شكل الدين الاسلامي ؟ بكلمات أخرى ما هي القوى الاجتماعية والظروف السياسية الخاصة التي أفرزت الدين الاسلامي ليس فقط كعقيدة بل وكدستور دولة أيضا ؟؟!

وقبل الاجابة على هذا السؤال نود التأكيد على أننا لا ننكر ما ذهب اليه مكسيم رودنسون وغيره من المؤرخين من أن الدين الاسلامي يتميز بمنطلقات عقلانية تشير الى درجة الرقي الحضاري العالية للمجتمع الذي افرزه ان لم يكن للمجتمع الذي خوطب من خلال القرآن . والعقلانية

Digitized by Birzeit University Library

هنا لا تنحصر فيما أشار اليه رودنسون من تكرار ضرب الامثال « لقوم يتفكرون » و « لقوم يعقلون » و « لقوم يذكرون » كآيات بينات في أكثر السور القرآنية فقط بل وتمتد الى عقلنة علاقة العابد بالمعبود وايمانه به عن طريق تجسيدها في عالم ومدركات البشر الملموسة والخاضعة لسيطرتهم العقلية أيضا . فوجود الخالق ليس امرا غيبيا ومنفصلا عن حياة المسلم واحاسيسه ومقاييسه في عالمه هذا . بل على العكس من ذلك تماما : وجود الخالق وقدرته يتجسدان في العالم الملموس الذي يحياه المسلم ويصبو لفهم كنهه . كما أن فهم كنه ذلك العالم هو « آية » بمعنى دليل للمسلم على وجود وقدرة الخالق ليس على مستوى الظواهر الطبيعية التي يعيشها الانسان بل على مستوى حياته الاجتماعية أيضا : « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الارض مختلفا الوانه ان في ذلك لآية لقوم يذكرون . » (النحل ، ١٠،١١، ١٢،١٣) وكذلك : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون . » (النحل ، ٩٠) .

وعن مسألة التفكر والادراك العقلانيين تلك ينبع عنصر الخيار والمسؤولية الفرديين : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . » (البقرة ، ٢٥٦) ، « انا أنزلنا عليك الكتاب بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انت عليهم بوكيل » (الزمر ، ٤١) ، « اليوم تجزي كل

Digitized by Birzeit University Library

نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب » (غافر ، ١٧) ، « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » (فصلت ، ٤٦) ، « وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » (مريم ٩٥) .

وبسبب تجسيد الايمان بالله في عالمنا الملموس والعلاقات التي نقيمها من خلال تماسنا مع ذلك العالم بمحض اختيارنا فان أعمالنا تصبح مقياسا لايماننا ونحاسب عليها ايضا . والاسلام لا يفصل الايمان عن اعمال المؤمن لذلك فهو ايجابي أيضا . ومن هنا تكرار « من آمن وعمل صالحاً » في اكثر الايات القرآنية التي تحث على الايمان . والايجابية في ذلك تتضح من خلال الآية التالية : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم . » (الانفال ، ٥٣) . أما عنصر الحساب والعقاب فينتج عن الخيار الطوعي والايجابية في اعمالنا التي هي دليل على ايماننا . وهو يعطي طابع « الاجر » الذي يرجوه المسلم من ربه لقاء ايمانه وتقواه وعمله الصالح : « وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم والله لا يحب الظالمين . » (آل عمران ، ٥٧) ، وكذلك : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون . » (البقرة ، ٢٤٥) .

وطالما تشكل أعمال المسلم مقياسا لايمانه فان قيمتها تنبع من الظرف الذي يحياه المؤمن والذي هو تجسيد لوجود الخالق وقدرته . والنسبية في عملية التقييم تلك تتضح من خلال الآية التالية : « ولا نكلف نفساً الا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون . » (المؤمنون ، ٦٢) .

ونحن لا ننكر ان هذه الاسس العقلانية (الفردية ، والايجابية ، والنسبية) وعنصر الخيار والمسؤولية والحساب والعقاب في الدين الاسلامي الى جانب عنصر الشك الذي يظهر بوضوح من خلال أسئلة المكيين وجدالهم مع الرسول

Digitized by Birzeit University Library

تدل على مجتمع راق متحضر ونمط حياة اقتصادية واجتماعية وسياسية تشكل المعاملات التجارية المعقدة وعوامل المبادرة والمسؤولية الفردية اهم ملامحه . وعنصر الشك يظهر بوضوح من خلال الايات التالية : « وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الاخرة واترفناهم في الحياة الدنيا ما هـذا الا بشر مثلكم يأكـل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن اطعتم بشراً مثلكم انكم اذاً لخاسرون . أيعدكم انكم اذا متم وكنتم تراباً وعظاماً انكم مخرجون . » (المؤمنون ، ٣٣، ٣٤، ٣٥) .

كما لا ننكر أيضا كون هذه القيم قد رافقت ظهـور الاطر والاساليب الليبرالية الديمقراطية التي افرزتها الثورات البرجوازيـة في اوروبا حيث كانت العقلانيـة والايجابية والنسبية والفردية تعني بالضرورة التأكيد على حرية الفرد في العمل والملكية والتنقل والراي والمعتقد . غير ان الفرق بين الديـن الاسلامي وبـين الايديولوجيات البرجوازيـة الديمقراطية في أوروبا العصر الحاضر يكمن في المنبـع الفلسفي الذي يضمن فعاليتها الاجتماعية والسياسية .

هنا نصل الى نقطة على جانب كبير من الاهمية . فقيم ومفاهيم الديمقراطيات البرجوازية الليبرالية في اوروبا العصر الحاضر نتجت عن تطور نمط الانتاج الراسمالي (التراكم التجاري الاولي ثم الصناعي) الذي حتم كسر الاطـر السياسية والاجتماعية القديمـة وفرض علـى الانسان الاوروبي أن يقف أمام الالة والملك والاله كفرد . وكانت المدن الاوروبية (التجاريـة والصناعية) هـي الظاهرة الاجتماعية التي افرزها هـذا النمط والتي حاربت بيئتها الاقطاعية أجتماعيا من اجل حرية الفرد في العمل والملكية والتنقل والمعتقد وسياسيا من أجل توحيد الوطن الذي هو السوق ضد كيانات التفتت والعزلة الاقطاعية .

لذلك فان مسألة الخيار والمسؤولية الفرديين في الاسلام

Digitized by Birzeit University Library

يجب ان تقاس بقيمتها الاجتماعية والسياسية وعلى خلفية الدور الذي لعبته مكة ، والمدينة العربية بشكل عام داخل بيئتها هي . صحيح أن المجتمع المكي كان مجتمعا تجاريا . وصحيح أن الاسلام قد أكد على مسألة انتماء وولاء المؤمن الفرديين تجاه ربه ورسوله ، وحارب العصبية القبلية التي وقفت عثرة أمام ذلك الولاء الفردي . غير ان مصدر سلطة الرسول بقي مطلقا لكونه ينبع عن مشيئة الخالق المطلقة التي تقف عند حدها الاجتهادات العقلانية . وعند ذلك الحد أيضا تقف الايجابية والنسبية والمسؤولية الفردية الخ ... في ايمانهم وأعمالهم : « قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً الا ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون . » (الاعراف ، ١٨٨) . وكذلك الاية : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (راجع مناقشة ابن رشد لهذه الاية في كتابه فصل المقال وتحقيق ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ، ص ٣٣) .

وطالما نبعت سلطة الرسول عن مشيئة الله المطلقة فانها تبقى مطلقة أيضا . الامر الذي ينفي الطابع الديمقراطي لاسس الخيار والمسؤولية والايجابية والنسبية الفردية : « واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين . » (الانفال ، ٤٦) ، « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم ان الله غفور رحيم . ولا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم . » (النور ، ٦٢ ، ٦٣) .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو كالتالي : لماذا

Digitized by Birzeit University Library

افرز المجتمع التجاري في مكة ايديولوجية سلطوية مركزية مطلقة بينما افرز تطور المدن الاوروبية ايديولوجيات ديمقراطية مركزية ؟ والجواب على ذلك يكمن في الاختلاف بين الادوار الاقتصادية والسياسية التي لعبتها مكة ومدن المشرق العربي منذ اقدم العصور وحتى يومنا هذا وبين تلك التي لعبتها المدن الاوروبية في نهاية عصر الاقطاع وبداية التطور الرأسمالي . صحيح ان التجارة قد شكلت وتشكل جزءا هاما من اقتصاد كلا المدينتين الشرقية والاوروبية . غير انه في حين شكلت تجارة المدن الاوروبية بداية لعملية تراكم الرأسمال الاولي فان مكة ومدن المشرق العربي عامة قد اعتاشت على تجارة الترانزيت والعمولات وقطاع الخدمات التي يرافقها في الاساس . وعملية تراكم الرأسمال التجاري الاولي وتركز الخبرة الفنية الى جانب فائض الانتاج الزراعي والهجرة من الريف ادت الى نمو المدن الغربية كظاهرة اجتماعية جديدة كنواة تحمل علاقات انتاج جديدة : تتبادل منتجاتها الصناعية مع بيئتها الريفية الاقطاعية وتدخل معها في صراع سياسي مصيري .

واذا كان ذلك قد ادى ان تحمل مدن اوروبا البرجوازية لواء تحرر الفرد (العامل) وتوحيد الوطن (السوق) في ظل نظام ديمقراطي مركزي فقد اختلف الوضع عنه في المشرق العربي . هنا لم تشكل مكة ظاهرة انتاجية جديدة بل اعتاشت على عمولة تجارة الترانزيت مما جعل الخدمات القطاع الاساسي في حياتها الاقتصادية (سقاية رفادة الخ ...) . كما ان وظيفة المؤسسات والاطر السياسية التي افرزها الاشتغال بهذا النوع من التجارة انحصرت في توفير أمن واستقرار قوافل النقل التجارية (اللواء) .

من هذا يتضح ايضا الطابع المركزي والمطلق لمفهوم الايمان والسلطة في الاسلام ، بخلاف ايديولوجية برجوازيات المدن الاوروبية الحديثة التي حملت لواء المركزية الديمقراطية في حربها مع بيئتها الاقطاعية وعلى مستوييها

Digitized by Birzeit University Library

السياسي والاجتماعي وذلك من أجل نشر سيطرة نمط الانتاج الرأسمالي (الذي حمل قيم حرية المبادرة والملكية والتنقل والمعتقد الفردية) على تلك البيئة .

أما مدن المشرق العربي ومكة في هذه الحالة فان رسالتها انحصرت في الحفاظ على الامن وتوسيع سلطتها . لذلك فرسالة التوحيد السياسي حملت لديها طابع فرض الايمان والسلطة المطلقين (ولاية البيت وقدسيته) ليس على تلك البيئة فحسب وانما داخل مكة أيضا . مما اعطى السلطة في المشرق طابعها الالهي دائما ومنع امكانية الفصل بين الدين والدولة ، بين الولاء لله والولاء للسلطان — واعطى الاسلام ميزة كونه دين دولة تتدخل هذه الاخيرة من خلاله في حياة وأعماله اليومية من ناحية ويتحكم الدين في جميع جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية (الزواج ، الميراث ، الربا الخ ...) .

power

+ من ذلك يتضح كيف أن الاسلام شكل دين دولة وسلطة منذ البداية وكيف أن الرسول أخذ منذ اللحظة الاولى لنزول الوحي يتصرف كزعيم سياسي يبحث عن حلفاء سياسيين Leader Confederate وعن قاعدة سياسية لانطلاق دعوته . كما يتضح أيضا كيف ان نشر الدعوة الاسلامية لم يكن يعني نشر تعاليم ومبادىء الدين الجديد فقط بل اقتضى تبني سياسة عملية والقيام بخطوات عسكرية محددة لتوحيد الجزيرة العربية وفرض تلك التعاليم والمبادىء . لذلك فعلى الرغم من عنصر الخيار والمسؤولية الفردية فان الحث على الجهاد في الاسلام يحوله الى أيديولوجية عسكرية مقاتلة أيضا : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . » (محمد ، ٤) ، « فلا تهنوا وتدعو الى السلم وانتم الاعلون والله

Digitized by Birzeit University Library

معكم ولن يتركم أعمالكم . » (محمد ، ٣٥) ، « قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم اولي بأس شديد تقاتلونهم او يسلموا فان تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً . » (الفتح ، ١٦) .

وقبل أن ننتقل الى الجوانب العملية في تطور الدعوة الاسلامية كقوة سياسية قامت بالدور التاريخي في توحيد الجزيرة العربية لا بد من التوقف عند نقطة هامة أخرى تتعلق بالميزات الاجتماعية لذلك الدور على خلفية مصالح مكة في حفظ الامن والسيطرة على بيئتها السياسية القبلية في الجزيرة العربية . وهنا لا بد من الرجوع الى الفرق بين مفهوم الوحدة الذي حملته الدعوة الاسلامية وبين المهام التاريخية التي كانت لمدن اوروبا العصر الحاضر في نشر مفهوم الوحدة القومية ومحاربة الحواجز التي فرضتها كيانات العزلة والتفكك الاقطاعيين . ذلك انه في حين حملت المدينة الاوروبية لواء الوحدة السياسية القومية كأيديولوجيا لعملية نمو وتوسع علاقات الانتاج الرأسمالية وسيطرتها على بيئتها الفلاحية ورسملة الريف وعلاقات الانتاج على الارض فان سعي محطات تجارة الترانزيت في الشرق للسيطرة السياسية على محيطها لم يحمل في طياته بذور تغيير علاقات الانتاج الاقتصادية والبنى الاجتماعية الخاصة بذلك المحيط . لذلك فان تلك السيطرة تنحصر هنا في طابعها العسكري القمعي فقط . كما أن مفهوم الوحدة في الشرق يبقى فوقيا ومترجرجا ولا يرتكز على عملية تحول عضوية في علاقات انتاج البيئة الريفية أو الرعوية للمدينة ، بل ان المهام والمصالح التجارية لتلك الاخيرة تستطيع التعايش في بيئة سياسية واجتماعية ذات طابع اجتماعي واقتصادي مختلف . والسيطرة السياسية لارستقراطية المدن التجارية تقوم على بنى اجتماعية عشائرية تكون لها امتداداتها داخل مدن المشرق وتجمع بين امتيازاتها العقارية

Digitized by Birzeit University Library

(أو حتى الرعوية) في تلك البيئة وبين نشاطها التجاري .

وذلك الترجرج وتلك الفوقية في مسألة الامن والوحدة السياسيين ينبعان عن ذلك التوازن التاريخي بين مدن المشرق كمحطات تجارية وبين بيئتها من ناحية وعن ميزان القوى التي تمثلها تلك المدن محليا ودوليا ايضا . وبالنسبة لمكة فان رسالة الامن والوحدة السياسيين التي حملتها الدعوة الاسلامية قامت على أساس من توازن النقائض مع بيئة التفكك السياسي القبلية والرعوية في الجزيرة العربية . لذلك فاننا نرى كيف انه في حين يؤكد الاسلام على واجب الايمان والانتماء الفرديين في علاقة المسلم بربه وبرسوله فانه ابقى على رابطة الدم واوصى المسلمين بذوي القربى وبعدم قطع الارحام الخ ... الامر الذي يتكرر في الكثير من الايات القرآنية بشكل يكرس العائلة والقبيلة كعوامل اجتماعية حية وهامة في المجتمع الاسلامي ليس على مستوى انتماء الفرد لها فقط بل وفي الجوانب الشرعية لحياته الاجتماعية أيضا (كالزواج والميراث الخ ...) .

من ذلك يتضح ايضا ان التركيز على مسألة الانتماء الفردي انحصر في حدود تحرك الدعوة الاسلامية داخل بيئتها الاجتماعية التي تشكل العصبية القبلية فيها أكبر أعداء رسالة الوحدة السياسية التي حملتها : « ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى من بعد ما تبين لهم انهم من أصحاب الجحيم . » (التوبة ، ١١٣) ، « ووصينا للأنسان بوالديه خيراً وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . » (العنكبوت ، ٨) .

وعلى أساس الموازنة بين الانتماء والطاعة الفرديين وبين مقتضيات تحرك الرسول والدعوة الاسلامية في بيئة تشكل الانتماء والتعصب والتحالفات القبلية أهم العوامل السياسية والاجتماعية فيها نستطيع الانتقال الان لدراسة الجوانب العملية في تحرك الرسول كصاحب سلطة سياسية

Digitized by Birzeit University Library

مركزية ومطلقة من خلال فهمنا لطبيعة تلك البيئة القبلية وعلى خلفية موقع ومصالح مكة التجارين على مستوى الجزيرة العربية والمنطقة ، وكون الاسلام أيديولوجيا تلك السلطة في تحركها السياسي ايضا وعلى جميع تلك المستويات.

ولعل الادوار التاريخية التي حتمت تلك العوامل أن يقوم بها الاسلام كانت واضحة للرسول منذ البداية . فهو يرسل أوائل المؤمنين الى اليمن ثم الى الحبشة لاقامة العلاقات الاولية بين الدعوة وتلك القوى المعنية بمصير مكة والجزيرة العربية . ثم ان ارساله عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ورسل آخرين الى قيصر حتى قبل أن يستتب له الامر في مكة يدلنا على وعي من جانبه للاثر الذي سيكون لتوحيد الجزيرة العربية تحت راية الدعوة الاسلامية على علاقة هذه الاخيرة بالامبراطوريات المجاورة . (راجع ابن الاثير ، ج١ ص ١٩٦ والمسعودي ج٢ ص ٢٩٦) . كما أن اللقاءات التي كانت له مع زعماء القبائل في عكاظ وفي مناسبات أخرى ، وتحالفه مع المدينة ، عدوة ومنافسة مكة ، والاجراءات التي قام بها بشأن مراكز القوى الموجودة هناك بعد هجرته وجملة غزواته وتحالفاته ، وحتى بعض التعاليم الاسلامية والايات القرآنية تدلنا على ادراكه لمسألة ذلك التوازن الاجتماعي والسياسي ليس في مكة فحسب بل وعلى مستوى الجزيرة العربية أيضا .

لنبدأ أولا بالمدينة . هنا كان على الرسول ان يأخذ بعين الاعتبار ثلاثة عوامل اساسية حددت تحركه في تلك المرحلة من حياة الدعوة الاسلامية . الاول الصراع التاريخي بين مكة ويثرب والثاني الصراعات والمنافسة القبلية بين الاوس والخزرج (وقد رأينا مدى الدور الذي لعبته قريش في ذلك قبل الاسلام) والثالث وجود اليهود كمركز سياسي قوي في المدينة (يعتقد المؤرخون العرب ان الجالية اليهودية قدمت الى يثرب بعد احتلال نبوخذ نصر للقدس وسبيه يهودها الى بابل . راجع البلاذري، فتوح البلدان ، ص١٧) .

Digitized by Birzeit University Library

وقبل ان ننتقل الى كيفية تحركه من خلال رؤيته للصراع والمنافسة التاريخية بين مكة والمدينة لا بد من الاشارة الى ان قيامه بمصالحة الاوس والخزرج كجزء من عملية الاعداد لمواجهة مكـــة ، ورفضه النزول على اي من وجهاء تلك القبائل انطلق من وعيه للصراعات الاجتماعية والسياسية داخل المدينة نفسها (راجع المسعودي ، ج١ ص ٤٠٢) .

وبالنسبة للانصار فقد راوا في هجرة الرسول اليهم واتخاذه من المدينة مركزا وعاصمة للدعوة الاسلامية تقوية لهم في منافستهم لمكانة قريش ومكة في الجزيرة العربية . كما أن الرسول عبر عن ذلك بنفسه حين ساوى بين المدينة ومكة من ناحية القدسية والاهمية وذلك باعلانه أن للمدينة حرمة كحرمة مكة . يقول البلاذري في رواية أن الرسول قال : « ان لكل نبي حرما واني حرمت المدينة كما حرم ابراهيم عليـــه السلام مكة ما بين حرثيها لا يختلى خلاها ولا يعضد شجرها ولا يحمـــل فيها السلاح لقتال ... » (البلاذري ، ص ٦ — ٧) .

واذا رأى الانصار في ذلك ضمانة لمركزهم القيادي المنافس لقريش في العرب فان الرسول قد سعى في البداية الـــى محالفة اليهود وطمأنتهم بأن دعوته واجراءاته في المدينة لا تناقض ديانتهم بل تأتي « مصدقا » لها ، ولا تعرض وجودهم ومركزهم للخطر . والدليل على ذلك هو اتخاذه من القدس قبلة الاسلام الاولى وما جاء في القرآن من الايات التي تشير الى النقاش الذي دار بين الرسول واليهود : « واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين . » (البقرة ، ٩٠) . ومع كثرة الايات التي تؤكد على أن الاسلام هو استمرار لما أنزل الله على ابراهيم واسحق وأنبياء اسرائيل فان منها مـــا دعا الى تحييد عداوة يهود المدينة له : « قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن لـــه

Digitized by Birzeit University Library

مخلصون » (البقرة ، ١٣٩) . ومرة اخرى : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » (البقرة ، ١٠١) .

والظاهر أن محاولات التحييد تلك تمت على شكل تحالفات قبلية كانت جزءا من البيئة السياسية القبلية في ذلك الوقت . وهذا على الاقل ما يتضح من الرواية التي تشير الى أن الرسول قد أجلى يهود بني النضير لنكثهم العهد ورفضهم اعانته « في دية رجلين من بني كلاب بن ربيعة موادعين له ، كان عمرو بن أمية الضمري قتلهما » (البلاذري ، ص ١٨) .

وقد شكلت مصادرة ممتلكات اليهود وتغيير القبلة من القدس الى مكة ضربة وجهها الرسول الى احدى مراكز القوى الاقتصادية والسياسية المنافسة داخل المدينة . كما أن تغيير القبلة جاء كجزء من عملية التراجعات التي أخذ الرسول يقدمها لزعماء قريش ومكة بهدف التوصل الى صلح معهم وذلك بعد أن كادت غزواته المتكررة ضد قوافل مكة التجارية تقضي عليها . والواقع أن هذه التراجعات التي انعكست على المستويين السياسي والاجتماعي وهدفت الى طمأنة زعامة قريش الى أن الاسلام لا يهدد مصالح مكة السياسية او نفوذ وموقع زعامتها الاقتصادية تثير عدة تساؤلات حول المضامين الاجتماعية التي حملتها الدعوة الاسلامية خاصة وأن الكثير من المؤرخين قد حاولوا اضفاء طابع الاشتراكية والمساواة على تعاليم تلك الدعوة .

هنا لا بد من الربط بين التنازلات التي قدمها الرسول والتي ضمنت لزعماء قريش مكانة مكة السياسية والاقتصادية في الجزيرة العربية من ناحية ومصالحهم الطبقية ومواقعهم الاجتماعية من الناحية الاخرى . وفي حين ضمن تحويل القبلة الى مكة والابقاء على قدسية الكعبة ومعظم شعائر

Digitized by Birzeit University Library

الحج موقع المكيين القيادي في الجزيرة العربية ، فان الاسلام لم يدع الى القضاء على العبودية (بل الى الرفق في معاملة العبد فقط) ولم يساو المراة بالرجل (بل دعا الاخير الى حسن معاملتها) ولم يدع الى الغاء الملكية الفردية بل كرسها : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما اللذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت ايمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون » (النحل ، ٧٠) . بل أن هنالك آيات قامت بعملية عقلنة واضحة للتفاوت الطبقي في المجتمع المكي : « ضرب الله مثلا عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون ، الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين احدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه اينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم . » (النحل ٧٥ ، ٧٦) . ومرة أخرى : « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم . » (الانعام ، ١٦٥) . وتكريس تلك المفاضلة والدعوة الى الحفاظ عليها : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله ان الله بكل شيء عليما . » (النساء ٣٢) .

سنعود الى هذه النقطة الاخيرة والى طبيعة المجتمع المكي الذي أفرز الدعوة الاسلامية من ناحية والتي عملت تلك الدعوة على تكريسها من الناحية الاخرى . هنا يجب القول أن مخاوف زعماء قريش من كون انتشار الدعوة الاسلامية تشكل تهديدا لمصالحهم قد بدأ يخف تدريجيا مما مهد لصلح الحديبية ولفتح مكة سلما . وهناك بعض الايات التي تتضمن اشارة واضحة الى كون تلك المخاوف قد انحصرت في سعي الرسول للسيطرة على زعامة مكة ولم تمتد الى طبيعة البنية الاجتماعية التي قامت عليها تلك

Digitized by Birzeit University Library

الزعامة من الاساس : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولـو شاء الله لأنزل ملائكة مـا سمعنا بهـذا في آبائنا الأولـين . » (المؤمنون ، ٢٤) .

والحقيقة ان ما روي عن فتح مكة يؤكد على أن الرسول لـم يضمن للمكيين مكانتهم في العـرب بل ضمن لقريش ولزعامتها مركزهما في الاسلام ايضا الامر الذي يتناسب مع التراجعات على المستوى الاجتماعي ايضا . والرواية التي يوردها البلاذري توضح هاتين النقطتين بشكل لا يدع مجالا للشك بأن فتح مكة لم يكن هزيمة لها أو لقريش ، الامر الذي بدا يثير حسد وتذمر الانصار والذي كان له الاثر الكبير على موقف هؤلاء من مسألة الخلافة بعد موت الرسول . يقول البلاذري : « ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اترون أوباش قريش . قالوا : نعم ، فقال باحدى يديه على الاخرى يشير أن اقتلوهم ثم قال : وافوني بالصفا. قال (عبد الله بن رباح صاحب الرواية) فانطلقنا فما يشاء أحد ان يقتل أحدا الا قتله . فجاء أبو سفيان فقال : يا رسول الله ! ابيدت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من داخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن . فقال بعض الانصار لبعض : أما الرجل فأدركته رغبة في قرابته ورأفة بعشيرته » (البلاذري ، ص ٤٥) . ويروي البلاذري ايضا أن الرسول قال لزعماء قريش بعد الفتح : « ما تظنون ؟ قالوا : نظن خيرا ونقول خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت . قال : فاني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام (لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين) . الا كل دين ومال ومأثرة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي ، الا سدانة البيت وسقاية الحاج » (البلاذري ، ص ٤٧) . وفي رواية ثانية أن الرسول قال ايضا : « مكة حرام لا يحل بيـع

Digitized by Birzeit University Library

رباعها ولا أجور بيوتها . » (ص ٤٨) .

وهنالك روايات أخرى تشير الى أن ضمانة الرسول لموقع زعامة قريش خاصة ومكة عامة تعدت ذلك بحيث عمل بنفسه على تثبيت ذلك الموقع وتكريسه عن طريق الاقطاعات والهبات والاعطيات . يقول ابن تيمية : « كما أباح الله في القرآن العطاء للمؤلفة قلوبهم من الصدقات وكما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم من الفيء ونحوه وهم السادة المطاعون في عشائرهم . كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي الاقرع بن حابس سيد بني تميم وعيينه بن حصن سيد بني فزارة وزيد الخير الطائي سيد بني نبهان وعلقمة بن علاثة العامري سيد بني كلاب ، ومثل سادات قريش من الطلقاء كصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وأبي سفيان بن حرب وسهل بن عمرو والحرث بن هشام . ففي الصحيحين عن أبي سعيد النحدري رضي الله عنه قال : بعث علي وهو باليمن بذهبية في تربتها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمها رسول الله صلى الله عيه وسلم بين أربعة نفر . الاقرع ابن حابس الحنظلي وعيينه بن حصن الفزاري وعلقمة بن علاثة العامري ثم أحد بني كلاب وزيد الخير الطائي أحد بني نبهان . قال : فغضبت قريش والانصار فقالوا : يعطي صناديد نجد ويدعنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني انما فعلت ذلك لتألفهم . فجاء رجل كث اللحية ، مشرف الوجنتين ، غائر العينين ، ناتىء الجبين ، محلوق الرأس فقال : اتق الله يا محمد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن يطع الله ان عصيته أنا . أيأمنني أهل الارض ولا تأمنوني . » (ابن تيمية : السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية ، ص ٢٤ — ٢٥) .

أما بالنسبة للنواحي الادارية في بناء الدولة الاسلامية فقد بدأت عملية ذلك البناء في المدينة حيث الحاجة في عملية

Digitized by Birzeit University Library

تنظيم الـري الصناعي واقطاع الاراضي التي استحوذت عليها الدولة نتيجة لاجلاء يهود المدينة بين اوائل المسلمين .

وحول الحاجة في تنظيم عملية توزيع المياه في المدينة فان ما قام به الرسول من وضع الاسس الادارية الاولى لعملية التنظيم تلك تدلنا على ما تحتمه ضرورات الـري الصناعي في الواحات والسدود من وجود سلطة مركزية تشرف على عملية التوزيع تلك . وقد أورد يحيى بن آدم القرشي رواية تقول : « قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيل مهزور (وادي بني قريظة) أن لاهل النخل الى العقبين ولاهل الزرع الى الشراكين ثم يرسلوا الماء الى من هو أسفل منهم » . وفي رواية أخرى أنه قال : « أسفل اهل الشرب أمراء اعلاه . » ويضيف القرشي رواية ثالثة تقول أيضا : « خاصم رجل من الانصار الزبير في شـرج (واد صغير) من شروج الحرة فقال رسول الله صلعم اشرب يا زبير ثم خل الماء » (كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي، ص ٦٩ — ٧٤) .

أما بالنسبة لعملية اقطاع الاراضي فان كافة المراجـع تشير الى أنها بدأت في عهد الرسول الذي خص المهاجرين بها في المدينة والتي استمرت بعد فتح مكة واستفاد منها زعماء قريش بالدرجة الاولى . وهذه المعلومات تناقض ما ذهب اليه اكثرية المؤرخين من أن ظاهرة اقطاع الاراضي بدأت زمن عثمان بن عفان وشكلت سببا في الفتنة عليه . يقول البلاذري : « واقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم من ارض بني النضير ابا بكر وعبد الرحمن بن عوف وابا دجانة سماك بن خرشة الساعدي وغيرهم » . وفي رواية اخرى : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اقطع بلال ابن الحارث المزني معادن بناحية الفرع . » وهنالك رواية ثالثة تقول بأن الرسول اقطع بلالا العقيق . كما انه اقطع عليا بن أبي طالب أراضي الفقيرين وبئر قيس والشجرة . واقطع الزبير بن العوام « أرضا من أرض بني النضير (وقيل من أرض خيبر) ذات نخل . » (راجع البلاذري ، ص ١٣

Digitized by Birzeit University Library

ـ ٢١ وكذلك المقريزي ، الخطط ، ج١ ص ١٥٥) .

وقد كانت لعملية اقطاع الاراضي وقسمتها بين المسلمين ايام الرسول أهمية بالنسبة لتطور الانظمة الادارية الاسلامية بعد وفاته . ومع أن الروايات تتضارب هنا الا أن اكثرها يشير الى انه في حين قسم الرسول اراضي بني النضير وأبقى اراضي خيبر في ايدي اهلها يفلحونها على النصف لفتحه اياهما عنوة فانه ابقى اراضي فدك خالصة لنفسه لانه « لم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب » أي لم يفتتحوها عنوة . (راجع القرشي ، ص ٢٣ وأبا يوسف ص ٥٠ ـ ٥١ ، والبلاذري ص ٣١ ـ ٣٣) .

كما افتتح الرسول وادي القرى عنوة . لذلك فقد خمس أموال أهلها من متاع وأثاث واخذ لنفسه الخمس وقسم الاربعة أخماس الباقية بين المسلمين ، « وترك النخل والارض في ايدي اليهود وعاملهم على نحو ما عامل عليه اهل خيبر . » (البلاذري ، ص ٣٩) . أما اهالي تيماء فقد صالحوا الرسول دون قتال وذلك مقابل دفع الجزية فبقيت أرضهم لهم . والمهم في هذه الرواية هو ما تذكره من أن الرسول ولى أثنين من زعماء قريش وأبناء سادتها على كل من وادي القرى وتيماء . وهما عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ويزيد بن أبي سفيان اللذين اسلما يوم فتحهما . (البلاذري ، ص ٤٠) . كما انه اخذ يقطع رؤساء القبائل ممن اسلموا ووفدوا عليه بعض اراضي هذه المناطق التي افتتحها . يقول البلاذري : « اقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة بن النعمان بن هوذه العذري رمية سوطه من وادي القرى ، وكان سيد بني عذره . وهو اول اهل الحجاز ممن قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بصدقة بني عذره . » (نفس المصدر) .

هذا نصل الى مرحلة يشكل فيها انتصار الدعوة الاسلامية وتحول مكة والمدينة الى مركز اداري وسياسي يحكم الدولة الاسلامية ويجبي مداخيلها الاقتصادية (من

Digitized by Birzeit University Library

الزكاة والجزية والخراج) نقطة التقاء خطيرة للكثير من التيارات والعناصر المتناقضة على جميع المستويات ، ونقطة الالتقاء هذه تشكل استمرارا تاريخيا لمسألة التوازن السياسي والاجتماعي بين عناصر الاستقرار الحضاري والتنقل القبلي ليس فقط في مكة والحجاز وانما على مستوى الجزيرة العربية عامة في تلك الفترة . واذا كان انتصار الدعوة الاسلامية يشكل من ناحية انتصارا لمجتمع التمايز الطبقي المتحضر ولمسألة الوحدة السياسية القائمة على الايمان والولاء الفرديين فان تحرك الدعوة الاسلامية في بيئتها القبلية ليس فقط في مكة والمدينة بل وفي الجزيرة العربية بشكل يحتم تضمين اسس الدعوة واجراءات الدولة السياسية والادارية بعض مضامين تلك البيئة القبلية والتراجع أمامها أو على الاقل مصالحتها بهدف احتواءها . وهذه التراجعات التي أتاحت استمرار مسألة ذلك التوازن التاريخي في الجزيرة العربية تمت على جميع المستويات . فعلى الرغم من محاربة الاسلام للعصبية القبلية التي هي الوثنية على المستوى الديني والتفكك على المستوى السياسي ، فقد ابقى الاسلام على رابطة الدم وأوصى المؤمنين بذوي القربى وعدم قطع الارحام الخ .. الامر الذي يتكرر في اكثر من آية بشكل يكرس العائلة والقبلية كعامل اجتماعي واقتصادي حي وهام في المجتمع الاسلامي ليس على مستوى انتماء الفرد لها فقط بل وفي حياته الاجتماعية أيضا . (الزواج والميراث الخ ...) .

وعن بقاء الانتماء القبلي والروابط العشائرية كعوامل اجتماعية حية في الدعوة الاسلامية التي تقوم على الايمان والولاء الفرديين ، والجمع بين هذين التيارين المتناقضين بشكل يحفظ ذلك التوازن لدى المسلم ولدى الدعوة ككل في مكة وعلى مستوى الجزيرة العربية عامة كانت هنالك نتائج سياسية خطيرة بالنسبة للدولة الاسلامية . الامر الذي يدعونا الى حصر الرأي القائل بكون الدعوة الاسلامية ثورة

Digitized by Birzeit University Library

اجتماعية للفقراء على الاغنياء او ثورة سياسية لمكة المتحضرة على الجزيرة القبلية وفهمه في حدود ذلك التوازن فقط .

وعلى المستوى السياسي رأينا كيف ان الرسول قد قدم في حدود ذلك التوازن تراجعات للمدينة في منافستها لمكة ، وعاد وقدم ذات التراجعات لزعامة مكة الاقتصادية والسياسية . واذا كانت الدعوة الاسلامية تشكل تاريخيا حربا على الوثنية القبلية فان تحرك تلك الدعوة في اطار ذلك التوازن وحدوده يفسر تراجعها امام بيئتها القبلية ايضا . الامر الذي تجسد في التحالفات التي كانت للرسول مع بعض شيوخ القبائل والاعطيات والاقطاعات التي خصصها لهم . يقول البلاذري : « قالوا : لما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا عام الحديبية وكتب القضية على الهدنة ، وانه من احب ان يدخل في عهد محمد صلى الله عليه وسلم دخل ومن احب أن يدخل في عهد قريش دخل ، ومن اتاه منهم ومن حلفائهم رده ، قام من كان من كنانة فقالوا : ندخل في عهد قريش ومدتها ، وقامت خزاعة فقالت : ندخل في عهد محمد وعقده . وقد كان بين عبد المطلب وخزاعة حلف قديم ، فلذلك قال عمرو بن سالم بن حصيرة الخزاعي :

لا هم اني ناشد محمد حلف أبينا وأبيه الاتلدا »

(البلاذري ، ص ٤١) .

وهذه الرواية تدلنا بوضوح على ان صلح الحديبية وانهياره قد تم بتأثير النزاعات والاحلاف القبلية التي كانت في الجاهلية بين بني هاشم من ناحية وبني امية من الناحية الاخرى . والبلاذري يذكر هنا رواية اخرى اضافت الى هذا البيت بيتا آخر من الشعر يدل على انه عندما اندلعت الحرب بين خزاعة وكنانة وانحازت قريش الى هذه الاخيرة انحاز محمد الى خزاعة . يقول عمرو بن سالم في حثه للرسول على دخول الحرب :

Digitized by Birzeit University Library

فانصر هداك الله نصرا أيدا وادع عباد الله يأتوا مددا

وفي حدود ذلك التوازن ايضا ، وعلى الرغم من تذمر الانصار كما رأينا ، يقرر الرسول الابقاء على ارستقراطية مكة وزعامتها من قريش ، وخاصة الامويين ، الذين يتولون المناصب العالية في الدولة الاسلامية من ناحية ، وتتحول مكة والمدينة الى مركز سياسي واقتصادي يقوم بتوحيد الجزيرة العربية عن طريق ربط شيوخ قبائلها بولاء شخصي للرسول مقابل دفع الزكاة أو الجزية أو عن طريق احياء التحالف الذي كان لهم مع زعامة قريش في الجاهلية . فثقيف وجرش خضعت من غير قتال وفرضت عليهما الجزية « على كل حالم ممن بهما من اهل الكتاب دينارا » . كما ولى الرسول على جرش أبا سفيان بن حرب (البلاذري ، ص ٧١) . وعلى هذا الاساس صولحت أيلة وأذرح والجرباء ومنا ايضا .

أما الطائف فقد تحولت الى منطقة نفوذ للمكيين بعد أن كان لهم أراض فيها في الجاهلية . وبعد فتحها اصبحت تدفع زكاتها من الزبيب وقيل العسل ايضا على أساس العشر ، وولى الرسول عثمان بن ابي العاص عليها . يقول البلاذري : « قالوا : وكانت للعباس بن عبد المطلب رحمه الله أرض بالطائف ، وكان الزبيب يحمل منها فينبذ في السقاية للحاج . وكانت لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها . فلما فتحت مكة واسلم اهلها طمعت ثقيف فيها . حتى اذا فتحت الطائف اقرت في ايدي المكيين ، وصارت أرض الطائف مخلافا من مخاليف مكة » (البلاذري ، ص ٦٦) .

وعلى هذا الاساس صولحت نجران واليمن وعدن وحضرموت وعمان والبحرين ايضا على الجزية من اهل الكتاب دينار على كل حالم (وفي رواية يوردها القرشي ، ص ٥٣ ، على كل حالمة ايضا) . كما أن هنالك رواية تشير الى أن الرسول أمر بأخذ الجزية من مجوس البحرين

Digitized by Birzeit University Library

ايضا . وفيما عدا اهـل الكتاب والمجوس فقـد فرض الاسلام على العرب ولم تقبل منهم الجزية . يقول ابـو يوسف : « فأما أهل الكتاب من العرب فهم بمنزلة الاعاجم تقبل منهم الجزية . كما اضعف (بمعنى ضاعف) عمـر رضي الله عنه على بني تغلب الصدقة عوضا عن الخراج (كحالة استثنائية لان تغلب رفضت دفع الخراج او الجزية) . وكما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل حالم دينارا أو عدله معافريا في أهل اليمن ، فهذا عندنا كأهل الكتاب . وكما صالح أهل نجران على فدية . وأما العجم فتقبل الجزية من أهل الكتاب منهم والمشركين وعبدة الاوثان والنيران من الرجال منهم . وقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس اهـل هجر (البحرين) والمجوس اهـل شرك وليسوا بأهل كتـاب .. » (ابو يوسف ، ص ٦٦) .

واما من كان يسلم من العرب فتفرض الزكاة او الصدقة على مدخوله من الحنطة والشعير والتمر والزبيب والذرة . ولم تكن تؤخذ الزكاة من العسل دائما ، واختلفت الروايات حول اخذها من الزعفران والحناء والورد والخضر والفواكه (عدا ما يبس منها او كيل بمكيال كالتمر والزبيب) . واما مقدار الزكاة فقد جاء في كتاب من الرسول الى عمرو ابن حزم حين بعثه على اليمن قوله : « وما كتب علـى المؤمنين من الصدقة من العقار عشر ما سقي البعل وسقت السماء ونصف العشر مما سقى الغرب » (والغرب هنا بمعنى الدلو بينما البعل يعني ما سقي سيحا) . (راجع البلاذري ، ص ٨٤ — ٨٩) .

Digitized by Birzeit University Library

حفظ التوازن ومسألة الخلافة في الاسلام :

هكذا نشأت عن الدعوة الاسلامية دولة أوتوقراطية مركزية وحّدت مجتمع الجزيرة القبلي بزعامة مكة وعن طريق فرضها عبادة اله واحد بدل عبادة الاوثان والشرك القبلي . وعن توحيد القبائل العربية نتجت طاقة عسكرية هائلة كانت الحروب القبلية تختزلها فيما سبق تمكنت من توجيهها لسد الفراغ السياسي والسيطرة على خطوط التجارة الدولية على أطراف الهلال الخصيب .

وعلى الرغم من الطابع الاوتوقراطي للسلطة في عهد الرسول الذي جمع بين القيادة السياسيه والعسكرية الفعلية من ناحية وشرعية تلك القيادة المطلقة ذات المنبع الالهي فان تلك السلطة ومسألة شرعيتها أيضا قد قامتا على أساس من التوازن الدقيق بين الاسس والقوى الاجتماعية والسياسية المتناقضة التي قامت عليها . واذا كان وجود الرسول يشكل الضمانة الوحيدة لمسألة استمرار ذلك التوازن على المستويات الاجتماعية والسياسية وحتى الشرعية فان وفاته المفاجئة قد أدت الى ظهور جميع تلك القوى المتناقضة ذات الجذور العميقة في تركيبة مكة والجزيرة العربية الاجتماعية والسياسية ، والتي حاولت الاخلال بذلك التوازن كل في مصلحتها .

هكذا شكل اجتماع الانصار في سقيفة بني ساعده اول حضور لجميع تلك القوى والتيارات المتصارعة حول تحديد مفهوم السلطة في الاسلام . وقبل الدخول في محاولة لتتبع تلك التيارات تجدر الاشارة الى أن اجتماع السقيفة قد شكل في حد ذاته اول مناسبة يظهر فيها ذلك التقليد القبلي الذي هو عقد اجتماع عام لاختيار شيخ جديد للقبيلة . واعادة بعث هذا الاطار القبلي يجب أن تفهم على خلفية غياب الاطر السياسية الشرعية في تلك المرحلة من حياة

Digitized by Birzeit University Library

الدولة الاسلامية ، واستمرار بقاء القبيلة كاطار اجتماعي وسياسي وعسكري وحيد لم يتح للاسلام القضاء عليه بسبب وجود ذلك التوازن .

واجتماع الانصار في السقيفة والنقاشات التي كانت لهم مع المهاجرين بعثت من جديد مسألة النزاع التاريخي بين المدينة ومكة ، بين الانصار وقريش — وهو ما شكل في حينه أحد الاسس التي قامت عليها الدعوة الاسلامية كما رأينا . فالانصار اعتبروا انتصار تلك الدعوة وفتح مكة نصرا مبينا لهم على قريش . اعتبروا انفسهم « كتيبة الاسلام الاولى » ، ومدينتهم عاصمة الدولة الاسلامية والسلطة لهم دون شك . وعلى لسان شاعرهم صرمة بن انس من بني عامر بن النجار الذي فاخر بفضلهم على الرسول والاسلام قائلا :

ثوى في قريش بضع عشرة حجة
يذكر لا يلقى صديقا مواتيا
ويعرض في أهله المواسم نفسه
فلم ير من يوفي ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه
وأصبح مسرورا بطيبة راضينا
وأصبح لا يخشى من الناس واحدا
بعيدا ولا يخشى من الناس دانيا
بذلنا له الاموال في كل ملكنا
وانفسنا عند الوغى والتآسيا .

وجذور هذا الموقف الذي اتخذه الانصار يكمن في أن اسلامهم شكل اعلانا منهم العصيان على مكة وامتدادا لصراعهم معها . وذلك يفسر تذمرهم من موقف الرسول المتسامح تجاه قريش عام فتح مكة . وموقفهم هذا يظهر من خلال جميع الروايات التي وردت حول ما دار يوم

Digitized by Birzeit University Library

السقيفة . يقول ابن الاثير : « لما توفي رسول الله (ص) اجتمع الانصار في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة ، فبلغ ذلك ابا بكر فأتاهم ومعه عمر (بن الخطاب) وأبو عبيده بن الجراح . » (ج٢ ، ط ١٩٥٥ ، بيروت ، ص ٢١٤) . وعلى لسان عمر بن الخطاب حول ما دار هناك يورد ابن الاثير الرواية التالية : « فأتينا الانصار وهم مجتمعون في سقيفة بني ساعده وبين اظهرهم رجل مزمل . قلت من هذا ؟ قالوا سعد بن عبادة . قلت ما شأنه ؟ قالوا وجع . فقام رجل (من الانصار) فحمد الله واثنى عليه وقاله : اما بعد فنحن الانصار وكتيبة الاسلام وأنتم يا معشر قريش رهط بيننا ... » (نفس المصدر، ص ٢١٦) .

٦ وعلى هذا الاساس طالب الانصار أن تنتقل الخلافة بينهم وبين قريش بشكل دوري . أما موقف المهاجرين فقد ورد على لسان ابي بكر في خطبته التي رد فيها على الانصار قائلا : « نحن المهاجرون ، أول الناس اسلاما ، واوسطهم دارا ، واكرم الناس احسابا ، واحسنهم وجوها ، واكثر الناس ولادة في العرب ، وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم . أسلمنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم . فأنتم اخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفيء ، وانصارنا على العدو . آويتم ونصرتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيرا . نحن الامراء وأنتم الوزراء . لا تدين العرب الا لهذا الحي من قريش ، وأنتم محقوقون الا تنفسوا على اخوانكم من المهاجرين ما ساق الله اليهم . » (الجاحظ ، البيان والتبيين، ج٤ ، ص ٩ — ١٠) .

سنعود الى الاسس التي وردت في هذه الخطبة والتي اعتمد عليها ابو بكر في حصره الخلافة في المهاجرين . أما بالنسبة لموقف الانصار من ذلك فان الروايات تشير الى أن بعضهم لم يوافق على ذلك واصر على اشراكهم في السلطة . واحد هؤلاء كان الحباب بن المنذر بن الجموح

Digitized by Birzeit University Library

الذي رد على أبي بكر قائلا : « منا أمير ومنكم أمير . فان أبو فاجلوهم يا معشر الانصار عن البلاد (أي المدينة) ، فبأسيافكم دان الناس لهذا الدين . وان شئتم اعدناها جذعة، انا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب .. » (ابن الاثير ، نفس المصدر ، ص ٢١٦) .

ويظهر هنا بوضوح مـــا رآه الانصار من ان انتصار الدعوة الاسلامية شكل انتصارا لهم على قريش الى درجة ان الحباب هدد باشعال الحرب بينهم ثانية ، كما يتضح من خلال الروايات الاخرى أن بعض الانصار لم يقتنع بحجة أبي بكر في واجب تولية الخلافة للمهاجرين لكونهم « أمس الناس رحما بالرسول » . وهؤلاء طالبوا ، كما طالب بعض المهاجرين أيضا ، بأنه في حالة الرجوع الى مسألة القرابة الى الرسول ، فان أولى الناس بالخلافة يكون عندها علي ابن أبي طالب . يقول ابن الاثير : « فقالت الانصار وبعض المهاجرين : لا نبايع الا عليا . قال (صاحب الرواية) : وتخلف علي وبنو هاشم والزبير وطلحة عن البيعة . وقال الزبير : لا أغمد سيفا حتى يبايع علي . فقال عمر (بن الخطاب) : خذوا سيفه واضربوا به الحجر ... » (ابن الاثير ، نفس المصدر ، ص ٢١٤) .

وفي المطالبة بتوليـــة علي يوم السقيفة تكمـــن الجذور التاريخية للشيعة التي عادت وظهرت على السطح أواخر أيام عثمان وزمن الصراع بين علي ومعاوية . وتشير الروايات المختلفة الى ان علياً وبقية بني هاشم الذين ارتكزوا على قرابتهم للرسول في مطالبتهم بالخلافة لم يبايعوا ابا بكر الا بعد مضي ستة أشهر حين توفيت فاطمة بنت الرسول وزوجة ابن عمه علي . يقول المسعودي : « ولما بويع أبو بكر في يوم السقيفة وجددت البيعة له يوم الثلاثاء على العامة ، خرج علي فقال : افسدت علينا أمورنا ، ولم تستشر ولم ترع لنا حقا . فقال أبو بكر : بلى ، ولكني خشيت الفتنة . وكان للمهاجرين والانصار يوم السقيفة خطب طويل ومجاذبة

Digitized by Birzeit University Library

في الامامة ، ... ولم يبايعه أحد من بني هاشم حتى ماتت فاطمة رضي الله عنها . » (المسعودي ، ج٢ ص ٣٠٧ — ٣٠٨) .

ومطالبة بني هاشم بالخلافة اعتمدت على التقليد الذي نشأ في مكة قبيل الاسلام والذي انتقلت بموجبه الزعامة السياسية التي ارتبطت بولاية البيت بشكل وراثي . وحول حق علي الوراثي في الخلافة بدأت تتبلور أولى مراكز القوى في الدولة الاسلامية والتي ظهرت بعد بيعة عثمان مباشرة . يقول المسعودي : « وقد كان عمار (بن ياسر) حين بويع عثمان بلغ قول أبي سفيان صخر بن حرب في دار عثمان عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان ودخل داره ومعه بنو أمية فقال أبو سفيان : أفيكم أحد من غيركم ، وكان قد عمي ، قالوا : لا ، قال : يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن الى صبيانكم وراثة ... . فقام عمار (بن ياسر) في المسجد فقال : يا معشر قريش أما اذا صرفتم هذا الامر عن أهل بيتكم ههنا مرة وههنا مرة فما أنا بآمن أن ينزعه الله فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتوه في غير أهله . وقام المقداد (بن الاسود) فقال : ما رأيت ما اوذي به أهل هذا البيت بعد نبيهم . فقال له عبد الرحمن بن عوف : وما أنت وذاك يا مقداد بن عمرو فقال : اني والله لاحبهم بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الحق معهم وفيهم أعجب من قريش وانت تطولهم على الناس أهل هذا البيت قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده من أيديهم . أما وأيم الحق يا عبد الرحمن لو أجد على قريش انصاراً لقاتلتهم كقتالي اياهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ... » (المسعودي ، ج١ ، ص ٤٤٠)

من هنا يظهر الاستمرار في اعتبار الوراثة وعصبية

Digitized by Birzeit University Library

البطون والافخاذ داخل قريش كعامل هام في تحديد مسألة السلطة وحصرها . وقبل أن نعود الى التيار الذي مثله أبو بكر وعمر وأبو عبيدة يوم السقيفة لا بد من الاشارة الى أن أبي سفيان الذي سعى من أجل استعادة بني امية للسلطة فيما بعد انطلق من ذات الاعتبار في كون تلك السلطة تنتقل وراثيا داخل اقوى تلك البطون . وهذا الاعتبار دفعه يوم السقيفة الى الوقوف الى جانب علي بن ابي طالب مع ما في ذلك من الغرابة التي دفعت عليا الى عدم تقبل دعم أبي سفيان خشية أن يكون قد قام بذلك بدافع انتهازي . يقول ابن الاثير : « .. وقيل : لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول : اني لأرى عجاجة لا يطفئها الا دم . يا آل عبد مناف (الذين منهم بنو هاشم وبنو أمية) فيم أبو بكر من أموركم ؟ أين المستضعفان ؟ أين الاذلان علي والعباس ؟ ما بال هذا الامر في أقل حي من قريش ؟ ثم قال لعلي : أبسط يدك أبايعك . فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالا ... فزجره علي وقال : والله انك ما أردت بهذا الا الفتنة ، وانك والله طالما بغيت بالاسلام شرا . لا حاجة لنا في نصيحتك . » (ابن الاثير ، نفس المصدر ، ص ٢١٤ــ٢١٥)

على هذه الخلفية تبرز أهمية وحيوية موقف التيار الوسطي الذي مثله أبو بكر في خطبته والذي سعى الى الحفاظ على طابع توازن جميع تلك التيارات داخل اطار الخلافة . فأبو بكر ، ومن بعده عمر أيضا ، لا ينتمي الى اي من البطون القوية في قريش . ومع ذلك فهو أقرب الى النبي من الانصار الامر الذي مكنه من الجمع بين الاسبقية في الاسلام من ناحية وبين انتمائه الى قريش أيضا التي « لا تدين العرب الا لها » . ومع ان ابا بكر قد اعترف حسب الرواية التي أوردناها بحق علي في الخلافة على أساس وراثي فقد ارتكز على نفس عامل الوراثة عندما ذكر الانصار بأنه أقرب منهم الى الرسول . بذلك استطاع

Digitized by Birzeit University Library

أبو بكر الجمع بين عامل الوراثة المكي قبل الاسلام وعامل الاسبقية والقدم في الدعوة (قدمنا في القرآن عليكم) وعامل آخر نبع عن مركز قريش القيادي التقليدي بين القبائل العربية في الجاهلية (لا تدين العرب الا لهذاالحي من قريش) . وكونه لا ينتمي الى أي من بطون قريش القوية والمتنازعة على السلطة مكنه من أن يشكل حلا وسطا الامر الذي عبر عنه عندما برر ذلك بقوله لعلي « ولكني خشيت الفتنة » .

وهذا الموقف الوسطي الذي مثله أبو بكر وعمر وأبو عبيدة مكن الدولة الاسلامية من حصر القوى والتيارات المتناقضة التي قامت عليها الدعوة في اطار من التوان الدقيق . ونحن سنرى كيف أن الفتوحات من ناحية وتولية عثمان الخلافة من الناحية الاخرى أدت الى ادخال عوامل اجتماعية واقتصادية جديدة اخلت بمسألة ذلك التوازن وأدت الى الفتنة على عثمان والصراع بين علي ومعاوية .

هنا تجدر الاشارة الى أن طرح عمر لمسألة الشورى ووصيته أن يتم اختيار الخليفة من بعده من بين ستة من الصحابة يجب أن يفهم على خلفية ذلك التوازن أيضا . وتشير بعض المراجع الى أن عمر قال عندما طلب اليه تعيين الخليفة من بعده : « لو كان أبو عبيدة حيا لاوصيت له » . وهو ما يشير بوضوح الى أن عمر كان يبحث عمن يستطيع تمثيل تيار التوازن الوسطي الذي مثله هو وأبو بكر من قبله . ولعدم وجود مثل هذا المرشح فقد أوصى بحصر الخلافة في ستة مرشحين هم علي وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وجعلها شورى بين المسلمين .

وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن هذه الشورى تجسد روح العدالة والمساواة في الاسلام . كما ادعى آخرون بأنها استمرار لتقليد قبلي يتم بموجبه اختيار شيخ القبيلة بشكل ديمقراطي .

Digitized by Birzeit University Library

غير أننا لا نميل الى تقبل أي من القولين . كما أننا لا نقبل مـا ورد في بعض المراجع العربية من أن عمر لم يضع ثقته الشخصية في أي من هؤلاء المرشحين وانه نسب الى كل واحد منهم صفة منعته من تعيينه خليفة من بعده . فهذه المراجـع تشير الى أن عمـر كان يخشى من علي « صلابته » وأن « فيه فكاهة » ومن عثمان ميله لاهله ، ومن الزبير أنه « مؤمن الرضا ، كافر الغضب ، شحيح » ومن عبد الرحمن بن عوف ضعفه ومن طلحة كبرياؤه وزهوه ومن سعد أنه رجل حرب لا يصلح للسياسة .

وما يدفعنا الى عدم تقبل هذه الاراء ان عمر حصر الخلافة في هؤلاء الستة على الرغم من المآخذ التي كانت له على كل واحد منهم . والنظر الى الموقع القيادي مـن قريش الذي تمتع به هؤلاء الستة على خلفية الصراعات التي وقفنا عليها بين بطون قريش المختلفة على السلطة يوضح لنا كيف أن عمر حصر الخلافة عمليا في زعماء اقوى بطون قريش المتنازعة ولم يعهدها الى هـؤلاء الصحابة كأشخاص كما لم يجعلها شورى بين المسلمين . فعلي سيد بني هاشم وعثمان شيخ بني أمية ، وطلحة سيد بني تيم والزبير زعيم بني أسد بن عبد العزى وسعد بي ابي وقاص وعبد الرحمن بن عوف رئيسا بني زهرة بن كلاب . (راجع الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ١٠ وكذلك البلاذري : انساب الاشراف ، ج٥ ص ١٧) .

وقد تجسد تيار ابي بكر وعمر الوسطي في سياستهما الفعلية تجاه مراكز القوى والتيارات الاخرى داخل الدولة الاسلامية . وقد عبر أبو بكر عن ذلك بوضوح في الرواية التي أوردها المسعودي : « وبلغ أبو بكر رضي الله عنه عن ابي سفيان صخر بن حرب أمر فأحضره وأقبل يصيح عليه ، وأبو سفيان يتملقه ويتذلل له . واقبل أبو قحافة فسمع صياح أبي بكر فقال لقائده : على من يصيح ابني ؟ فقال له على أبي سفيان . فدنا من أبي بكر وقال له :

Digitized by Birzeit University Library

أعلى أبي سفيان ترفع صوتك يا عتيق الله وقد كان بالامس سيد قريش في الجاهلية ، لقد تعديت طورك وجزت مقدارك . فتبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والانصار وقال له : يا أبت ، ان الله قد رفع بالاسلام قوما واذل به آخرين . » (المسعودي ، ج٢ ص ٣٠٦) .

غير أن سياسة أبي بكر من ارستقراطية قريش وزعامتها في الجاهلية لم تختلف عن سياسته تجاه بني هاشم والانصار الذين شكلوا مراكز القوى الهامة الاخرى في تلك الفترة . وذلك ما يؤكد عليه ما روي عنه أنه قال قبل وفاته : « ما أنا الا على ثلاث فعلتها وددت أني تركتها وثلاث تركتها وددت أني فعلتها وثلاث وددت أني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها . فأما الثلاث التي فعلتها ووددت أني تركتها فوددت أني لم أكن فتشت بيت فاطمة .. والثلاث التي وددت أني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وددت أني سألته عن ميراث العمة وبنت الاخ فاي بنفسي منهما حاجة ووددت أني سألته هل للانصار في هذا نصيب فنعطيهم اياه .. » (ج١ ص ٤١٥) .

والواقع أن الخلاف بين أبي بكر وعمر من ناحية وبين بني هاشم من الناحية الاخرى لم يقتصر على مسألة الاحقية في الخلافة بل امتد الى قضايا أخرى منها مسألة نفوذ الهاشميين السياسي والاقتصادي في الدولة الاسلامية . وأول ما برز هذا الخلاف حول قضية حق الهاشميين في ان يعتبروا ورثة الرسول كذوي قربى له . والبلاذري يورد روايتين تؤكدان على سياسة أبي بكر تجاه ميراث الرسول ليس كزعيم سياسي فقط وانما كأحد بني هاشم أيضا . يقول البلاذري : « ان فاطمة رضي الله عنها قالت لابي بكر للصديق رضي الله عنه : أعطيني فدك فقد جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لي . فسألها البينة فجاءت بأم أيمن ورباح مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم (وفي

Digitized by Birzeit University Library

رواية أخرى أنها جاءت بعلي بن أبي طالب) فشهدا لها بذلك . فقال : ان هذا الامر لا تجوز فيه الا شهادة رجل وامراتين (وفي رواية اخرى : او رجلين) . » والرواية الثانية التي يوردها البلاذري هي : « ان فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتت أبا بكر الصديق رضي الله عنه فقالت له: من يرثم اذا مت؟ قال: ولدي واهلي . قالت: فما بالك ورثت رسول الله صلى الله عليه وسلم دوننا ؟ فقال : يا بنت رسول الله ! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انما هي طعمة أطعمنيها الله حياتي ، فاذا مت فهي بين المسلمين. » (البلاذري ، ص ٣٥—٣٦) .

والظاهر أن مصير سهم الرسول وذوي القربى من غنائم المسلمين كان مثار خلاف واحد القضايا الواجب تحديدها زمن أبي بكر وعمر تماما كالخلاف الذي ثار حول تحديد ورثته السياسيين . ويذكر أبو يوسف في كتاب الخراج ان الاية القرآنية التي عمل بموجبها زمن الرسول بالنسبة لتقسيم الغنائم كانت كالتالي : « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير . » ويضيف أبو يوسف ان هذا الخمس كان يقسمه الرسول الى خمسة أسهم : لله وللرسول سهم ، ولذي القربى سهم ، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم : « ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذي القربى وقسم على الثلاثة الباقين . » (أبو يوسف ، ص ١٩) .

والظاهر ان عليا قسمه على هذا النحو أيضا . غير أن جميع الروايات تؤكد على أن آل البيت استمروا بالمطالبة بسهمهم طيلة حياة أبي بكر وعمر . ومنها ما يورده أبو يوسف على لسان عبد الله بن عباس ابن عم الرسول : « عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوج من الخمس ايمنا

Digitized by Birzeit University Library

ونقضي منه مغرمنا فأبينا الا أن يسلمه لنا ، وأبى ذلك علينا » (نفس المصدر ، ص ١٩ — ٢٠) . كما يورد أبو يوسف حديث علي بن ابي طالب فيذلك : « قلت يا رسول الله : ان رايت أن توليني حقنا من الخمس فاقسمه في حياتك كي لا ينازعناه أحد بعدك فافعل . قال : ففعل . قال : فولانيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمته في حياته . ثم ولانيه أبو بكر رضي الله عنه فقسمته في حياته . ثم ولانيه عمر رضي الله عنه فقسمته في حياته ، حتى اذا كان آخر سنة من سني عمر فأتاه مال كثير فعزل حقنا ، ثم أرسل الي فقال : خذه فاقسمه . فقلت : يا أمين المؤمنين بنا عنه العام غنى وبالمسلمين اليه حاجة . فرده عليهم تلك السنة ثم لم يدعنا اليه أحد بعد عمر حتى قمت مقامي هذا . فلقيني العباس بن عبد المطلب بعد خروجي من عند عمر رضي الله عنه فقال : يا علي لقد حرمتنا الغداة شيئا لا يرد أبدا الى يوم القيامة . » (أبو يوسف ، ص ٢١) .

ومع اختلاف هذه الروايات فانها تجمع على أن مسألة حق وراثة بني هاشم الاقتصادية للرسول كانت مثار جدل وخلاف بعد موته تماما كمسألة وراثة السلطة السياسية عنه . وفي حين قال البعض بأن سهم ذوي القربى يذهب لاقرباء الرسول فقد قال البعض الاخر انه يذهب للخليفة أو حتى لاقرباء الخليفة من بعده .

وتمشيا مع روح اجتماع السقيفة نجد أن أبا بكر وعمر يتعمدان استبعاد بني هاشم عن مراكز القيادة ومناصب الولاية السياسية والعسكرية . ويروي المسعودي ما كان عبد الله بن عباس قد ذكره من « ان عمرا أرسل اليه فقال : يا ابن عباس ان عامل حمص هلك وكان من أهل الخير وأهل الخير قليل . وقد رجوت أن تكون منهم وفي نفسي منك شيء لم أره منك واعياني ذلك ، فما رايك في العمل ؟ فقال : لن أعمل حتى تخبرني بالذي في نفسك .

Digitized by Birzeit University Library

قال : وما تريد الى ذلك ؟ قال : اريده . فان كل شيء اخاف منه على نفسي خشيت منه عليها الذي خشيت وان كنت بريئا من مثله علمت اني لست من اهله فقبلت عملك هناك . فاني قلما رايت او ظننت شيئا الا عاينته . فقال : يا ابن عباس اني خشيت ان يأتي علي الذي هو آت وانت في عملك فتقول هلم الينا ولا هلم اليكم دون غيركم ، واني رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم . قال : والله قد رايت من ذلك فلم تراه فعل ذلك ؟ قال : والله ما ادري ، اضن بكم عن العمل فأهل ذلك انتم ، ام خشي ان تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العقاب ولا بد من عتاب ، فقد قرعت لك ، قال : فما رايك ؟ قال : اراني لا اعمل لك . قال ولم ، قلت : ان عملت لك وفي نفسك ما فيها لم ابرح قذى في عينك . قال : فأشر علي . قلت : اني ارى ان تستعمل صحيحا منك صحيحا لك . » (المسعودي ، ج١ ص ٤٢٧) .

ويظهر أن معاوية بن ابي سفيان قد اعتمد على هذه السياسة كسابقة بررت مطالبته بالخلافة واستبعاده لعلي ابن أبي طالب الذي مثل حق بني هاشم فيها أيام النزاع بينهما . وذلك ما يتضح من الحوار بين معاوية ومحمد بن ابي بكر حين كان هذا الاخير واليا لعلي على مصر . وقد كتب محمد بن ابي بكر اليه مشيرا الى حق علي في الخلافة : « ... وقد رايتك تسامي وانت انت وهو هو : اصدق الناس نية وافضل الناس ذرية وخير الناس زوجة وافضل الناس ابن عم . اخوه الشاري بنفسه يوم مؤته وعمه سيد الشهداء يوم احد وابوه الذاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن حوزته . وانت اللعين ابن اللعين لم تزل انت وابوك تبغيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم الغوائل وتجهران في اطفاء نور الله ، تجمعان على ذلك الجموع وتبذلان فيه المال وتؤلبان عليه القبائل . على ذلك مات ابوك ، وعليه خلفته ... » . اما رد معاوية فلم يتعد كونه

Digitized by Birzeit University Library

قد ذكر محمد بن ابي بكر بأن اباه كال أول من انتهك حق علي وبني هاشم. يقول : « من معاوية بن صخر الى الزاري على أبيه محمد بن ابي بكر . اما بعد ... فقد كنا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحقه لازما لنا مبرورا علينا . فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده وأتم له ما وعده واظهر دعوته فأبلج حجته وقبضه الله صلوات الله عليه ، كان أبوك وفاروقه أول من ابتزه حقه وخالفه على أمره . على ذلك اتفقا واتسقا ، ثم انهما دعواه الى بيعتهما فأبطأ عنهما وتلكأ عليهما فهما به الهموم وأرادا به العظيم ... » (المسعودي ، ج٢ ص ٥٩ — ٦٠) .

وكان من نتائج سياسة أبي بكر وعمر هذه أن ضعف بني هاشم سياسيا واقتصاديا مما أتاح لارستقراطية قريش الاموية من العمل على استعادة نفوذها تدريجيا . الامر الذي نتج في الاساس عن سياسة وازنت بدقة تامة بين انتصار الدعوة الاسلامية وبين الابقاء على مركز مكة وقريش القيادي في الجزيرة وأمام تصاعد قوة الانصار في المدينة . ونحن سنرى كيف أن وقوف الانصار الى جانب علي زمن الفتنة على عثمان وأثناء معركة الجمل وصراعه مع معاوية شكل أحد انعكاسات هذه السياسة ونتائجها أيضا .

غير أن أكثر ما تتجسد فيه تلك الموازنة الدقيقة هو ما جاء في وصية عمر بن الخطاب للخليفة من بعده والتي تضمنت الاسس التي انطلق منها ابو بكر في اجتماع يوم السقيفة . ويروي أبو يوسف أن عمر قال حين طعن : « أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله . وأوصيه بالمهاجرين الاولين أن يعرف لهم حقهم وكرامتهم . وأوصيه بالانصار الذين تبوأوا الدار والايمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم . وأوصيه بأهل الامصار ، فانهم ردء الاسلام وغيظ العدو وجباة المال ، أن لا يأخذ منهم الا فضلهم عن رضى منهم . وأوصيه بالاعراب ، فانهم أصل

Digitized by Birzeit University Library

العرب ومادة الاسلام ، ان يأخذ من حواشي اموالهم فيرد على فقرائهم . وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله (ص) ان يوفي بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم . » (أبو يوسف ، ص ١٤) .

سنرى كيف أن هذه الموازنة الدقيقة التي حملت بين طياتها تفضيل عمر للمهاجرين والانصار على باقي العرب ، وتفضيل هؤلاء على أهالي البلدان المفتوحة حملت أيضا بذور الفتنة على عثمان وثورات الخوارج والموالي الشيعة على الامويين وذلك على خلفية اختلال التوازن الذي احدثته الفتوحات الاسلامية بما كان لها من نتائج اقتصادية واجتماعية هامة . كما سنرى أيضا كيف أن جذور ذلك الخلل تعود الى ذلك البعد التاريخي الهام الذي شكلت فيه الدعوة الاسلامية حربا على المجتمع القبلي في الجزيرة والذي ظهر مع اختلال التوازن الذي احدثه موت الرسول . وقبل أن ننتقل الى هذه النقطة الاخيرة تجدر الاشارة الى ان هذا التوازن الاخير تجسد في الاعتبارات المتناقضة التي فرضتها تلك الخلفية على عمر في اختياره قادة المسلمين وولاتهم الاوائل . يقول المسعودي : « ... وقيل لعمر أمر على الناس رجلا من المهاجرين أو الانصار . فقال : لا أؤمر عليهم الا أول من انتدب . فأمر ابا عبيد بن عمرو الثقفي . فقيل له أتؤمر رجلا من ثقيف على المهاجرين والانصار ، فقال : كان أول من انتدب فوليته . وقد امرته ان لا يقطع امرا دون سلمه بن اسلم بن حويس وسليط بن قيس ، وأعلمته انهما من اهل بدر ... » (المسعودي ، ج١ ص ٤١٨ . كذلك راجع البلاذري ، ج٢ ص ٣٠٧) .

مكتبة جامعة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

اختلال التوازن ـ حـــروب الـــردة :

كنا قـد وقفنا في المحاضرة السابقـة على الخطوط العريضة في سياسة أبي بكر وعمر في حفظ توازن القاعدة السياسية والاجتماعية التي قامت عليها الدعوة الاسلامية في مكة والمدينة والتي تجسدت في خطبة أبي بكر يوم السقيفة. كما اشرنا ايضا الى ان سياسة حفظ التوازن تلك شكلت امتدادا حتميا لسياسة الرسول في الحفاظ على قريش ومكة بتركيبتها الاجتماعية والسياسية كنواة أساسية لتلك الدعوة تعمل على اخضاع مجتمع الجزيرة القبلي وتشكل أساسا لدولة مركزية موحدة . اي ان تلك السياسة التي ادت في النهاية الى فك مسألة تحالف الرسول مع الانصار في المدينة وتقديم التراجعات لارستقراطية مكة التجارية على حساب استبعاد الهاشميين عن السلطة شكلت جزءا من تحـرك الدعوة الاسلامية ككل وصراعها مـع بيئتها القبلية على مستوى الجزيرة العربية .

فـــي اطـــار واحـــد وعلـــى خلفيـــة اكتســـاب وربـــط تفاعـــل هـــذه القـــوى المتناقضـــة الدعوة الاسلامية بعض خصائص ومضامين بيئتها المعادية الذي تحتم عن تحرك الرسول من خلال تناقض تلك القوى هو الذي سيوضح في النهاية حتمية نجـاح زعامة قريش وارستقراطيتها الامويـة في الجاهلية في استعادة سيطرتها كما يفسر كيف أن فشل الهاشميين واستبعادهم عن السلطة كان نتيجة حتمية تاريخية لتناقض تلك القوى الجدلي ايضا .

كـل ذلك يظهر بوضوح اذا نظرنا الى يوم السقيفة وسياسة أبي بكر وعمر ، والفتوحات وما أعقبتها من نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية ، والفتنة على عثمان ايضا كامتدادات لتلك الحلقة المركزية من توازن النقائض التاريخية على مستوى دور المدينة ومكة السياسيين داخل الجزيرة

Digitized by Birzeit University Library

العربية ككل . واذا كان يوم السقيفة قد شكل محاولة لحفظ توازن تلك النقائض الذي اختل داخل مكة والمدينة بوفاة الرسول ، فان تلك المحاولة قد شكلت بدورها عملية اختزال تاريخية لتلك التناقضات اتيحت لابي بكر وعمر ، بل وفرضت عليهما ، بورود الاختلال العام في التوازن على شكل حروب الردة في الجزيرة العربية والفتوحات الاسلامية على مستوى المنطقة .

من هنا تنبع أهمية البحث في حروب الردة كظاهرة لاختلال توازن تلك الحلقة المركزية (أي على مستوى الجزيرة العربية) — الذي أدى بدوره الى حفظ توازن النقائض داخل مكة والمدينة بزعامة قريش التقليدية التي شكلت القوة التاريخية الوحيدة القادرة على حمل رسالة توحيد مجتمع الجزيرة القبلي سياسيا . كما أن وجود فجوة أختلال ميزان القوى السياسي بضعف الامبراطوريات على مستوى المنطقة حتم أن توجه الطاقة العسكرية التي أوجدها حفظ توازن نقائض الجزيرة العربية باتجاه سد تلك الفجوة على مستوى الفتوحات الاسلامية كما سنرى . وتوقف تلك الفتوحات والنتائج السياسية والاجتماعية التي كانت قد أوجدتها أدى الى بداية انعكاس تلك التناقضات بشكل تنازلي وعلى مستوى جميع حلقات توازن النقائض ، الامر الذي سنتطرق اليه عند بحثنا في الفتنة على عثمان .

سنبدأ أذن بالبحث في حروب الردة على خلفية التناقض التاريخي بين مجتمع التفكك السياسي وتعدد الالهة القبلي من ناحية وبين الدعوة الاسلامية كردة فعل لظاهرة المد القبلي داخل الجزيرة العربية وكمحاولة لتوحيد تلك الجزيرة باستغلال الامكانيات التي أتاحتها سيولة الظرف السياسي الذي نتج عن ذلك المد القبلي . وقد راينا كيف أن تحرك الرسول في محاولته تلك قد حتم عليه تضمين الدعوة الاسلامية بشكل عام وسياسته الفعلية بشكل خاص بعض

Digitized by Birzeit University Library

نقائضها التاريخية التي شكلت بدورها امتدادا حتميا لعناصر بيئة المد القبلي على المستويين الاجتماعي والسياسي .

ونجاحه في عملية حفظ توازن — النقائض تلك كان نسبيا بنسبة بروز الدولة الاسلامية كسلطة مركزية تجمع الزكاة والخراج والجزية في الجزيرة العربية من ناحية وكون عملية المركزة تلك قائمة على علاقات الولاء الشخصية لشيوخ القبائل العربية الذين كانوا يفدون على الرسول حاملين الزكاة ومذعنين بالطاعة .

ومن الطبيعي في هذه الحالة أن يختل ذلك التوازن وتبرز تلك التناقضات من جديد على خلفية انتهاء ذلك الولاء الشخصي بوفاة الرسول وظهور العصبيات وأحلاف التفكك القبليين ، وتأكيد القبائل العربية على استقلالها بارتدادها عن الاسلام الذي اعتبرته ولاء وخضوعا لسلطة الرسول وامتناعها عن دفع الزكاة التي اعتبرتها رمزا لذلك الخضوع واتخاذها أنبياء لها تأكيدا على تلك الاستقلالية .

فحروب الردة لم تكن اذن ضد أناس كفروا بعد ايمانهم، بل جاءت لاعادة توحيد الجزيرة العربية سياسيا . يقول البلاذري : « قالوا لما استخلف ابو بكر رحمه الله ارتدت طوائف من العرب ومنعت الصدقة . وقال قوم منهم : نقيم الصلاة ولا نؤدي الزكاة . فقال ابو بكر رضي الله عنه : لو منعوني عقالا مما اعطوه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم ... » (البلاذري ، ص ١١٣) . ومما يؤكد على ذلك أيضا ما جاء في الرواية التالية : « مر عمر بن الخطاب بقرة بن هبيره وحوله عسكر من بني عامر فقال قره : يا هذا ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة (أي الضريبة) ، فان انتم اعفيتموها من اخذ اموالها فستسمع لكم وتطيع ، وان ابيتم فلا ارى أن تجتمع عليكم . » (الدوري ، ص ٤٢) . وكذلك ما رواه البلاذري عن ارتداد بني حنظلة : « وكان مالك (بن نويره) عاملا للنبي صلى الله عليه وسلم على صدقات (زكاة) بني

Digitized by Birzeit University Library

حنظلة . فلما قبض صلى الله عليه وسلم خلى ما كان في يده من الضرائب وقال : شأنكم وأموالكم يا بني حنظلة . » (البلاذري ، ص ١١٧) .

سنعود الى مسألة قيام الرسول بتولية زعماء القبائل الذين وفدوا عليه واعلنوا عن ولائهم الشخصي له . وقبل ان نقوم بذلك لا بد من الاشارة الى ان وفود من ارتد من هؤلاء والاعلان عن تجديد ولائهم لابي بكر كان يكفي لان يعتبره هذا الاخير رجوعا الى الاسلام . منهم بنو كندة الذين ارتدوا بزعامة الاشعث بن قيس وتبعتهم في ذلك قبائل حضرموت ، وكذلك بنو بزاخة وعامر بن صعصعة ايضا . وعندما عاد الاشعث الى الاسلام وصالح ابا بكر زوجه الاخير اختـه .

والواقع ان لظاهرة ولاء شيوخ القبائل الشخصي لابي بكر جذور تعود الى المكانة التي تمتعت بها زعامة قريش بين قبائل الجزيرة العربية في الجاهلية كصاحبة ولاية البيت . كما كان لذلك امتداد زمن الرسول ايضا حين اخذت وفود تلك القبائل تأتي اليه معلنة عن ولائها له . واذا كنا قد اشرنا في السابق كيف ان الرسول قد اقطع حمزة بن النعمان بن هوذه زعيم بني عذره ارضا في وادي القرى بعد ان أتاه على راس وفد من قومه ، فان الرواية التالية عما دار بين الرسول ووفد اليمامة من بني حنيفة تؤكد على طابع الولاء الشخصي ايضا . ويذكر البلاذري ان ذلك الوفد كان مؤلفا من مجاعة بن مرارة والرجال بن عنفورة وثمامة (أو ابو ثمامة) بن كبير بن حبيب الذي هـو مسيلمة الكذاب . وان هذا الاخير قد قال للرسول عندها : « ان شئت خلينا الامر وبايعناك على انه لنا بعدك . فقال الرسول : لا ونعمة عين » . (البلاذري ، ص ١٠٥) . وبعد عودة الوفد الى اليمامة ادعى مسيلمة النبوة وشهد له الرجال بن عنفورة بأن الرسول قد اشركه في الامر معه فتبعه بنو حنيفة وسائر اليمامة . اما مجاعة بن مرارة فقد

Digitized by Birzeit University Library

بقي على اسلامه واقطعه عثمان قطائع اخرى . (البلاذري، ص ١١٢) .

ويذكر البلاذري ان الرسول قد اقطع فرات بن حيان زعيم بني عجل اراض باليمامة على النحو الذي كان يقطعه لزعماء القبائل الذين وفدوا عليه مسلمين . غير ان اسلام هؤلاء وولائهم للرسول لم يتعد كونهم اعتبروه ولاء شخصيا له او استمرارا للاحلاف القبلية التي كانوا يعقدونها مع قريش وفيما بينهم ايضا . وبالنسبة للولاء الشخصي للرسول فان البيتين التاليين يوضحان كيف أن هذا الولاء ينتهي بموت الرسول شأن كل الاحلاف القبلية :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا
فيا لعباد الله ما لابي بكر

أيورثنا بكرا اذا حلت بعده
وتلك لعمر الله قاصمة الظهر .

كما كنا قد اشرنا في السابق الى ما ذكره ابن تيمية من ان الرسول كان قد خص زعماء بعض القبائل القوية باعطيات كان يمنحها لهم من بيت المال مقابل ولائهم . واحد هؤلاء كان عيينه بن حصن زعيم فزارة وغطفان . والرواية التالية تؤكد على ان غطفان كانت متحالفة مع بني اسد بزعامة طليحة في الجاهلية من ناحية وان اسلام عيينه قام على اساس تحالف مشابه عقده مع الرسول وانتهى بموت الاخير مما برر بالنسبة له تجديد حلفه مع بني اسد واتباعه طليحة الاسدي الذي ادعى النبوة ايضا . اذ ان هذه الرواية تنسب الى عيينه ما قاله لقومه بعد وفاة الرسول : « ما اعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين اسد . واني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم ومبايع طليحة . والله لان نتبع نبيا من الحليفين احب الينا من قريش . ولقد مات محمد وبقي طليحة فطابقوه على رايه . »

Digitized by Birzeit University Library

كما يظهر من الرواية التالية كيف أن عيينه لم يكن مسلما كفر بعد ايمانه وانه عمليا لم يؤمن ابدا : « اخبرني من نظر الى عيينه بن حصن ، مجموعة يداه الى عنقـــه بحبل ، ينخسه غلمان المدينة بالجريد ويقولون : أي عدو الله ! أكفرت بعد ايمانك ؟ فيقول : والله ما كنت آمنت بالله قط . » (الدوري ، ص ٤٣) .

واذا كان الولاء للرسول يعني بالنسبة لزعماء القبائل دفع الزكاة والخضوع لسلطان المدينة ومكة فانه يفهم كيف أن تأكيد تلك القبائل على استقلاليتها ورفضها الخضوع اتخذ في بعض الاحيان ادعاء زعمائها النبوة ومحاولة بعضهم اقتسام السيطرة على الجزيرة العربية مع محمد وقريش . وهذا ما يتضح من خلال الرسالة التي بعث بها مسيلمة الكذاب بعد اعلانه النبوة الى الرسول : « مـــن مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله . اما بعد فاني اشركت في الامر معـــك ، وان لنا نصف الارض ولقريش نصف الارض ، ولكن قريشا قـــوم يعتدون . » (البلاذري ، ص ١٠٦) .

وظاهرة تعدد الانبياء الكذبة تنبع في الاساس من طبيعة التفكك السياسي القبلي لمجتمع الجزيرة العربية وتشكـــل امتدادا سياسيا لظاهرة تعدد الالهة والشرك . ومن هؤلاء الانبياء الكذبة الاسود بن كعب بن عوف العنسي زعيم عنس الذي ظهر في اليمن وسمى نفسه رحمان اليمن فتبعته قبائلها . ويقال ان اسمه كان عيسى وانه عرف بلهيعة او عيهله وانه لقب بالاسود للونـــه . وبالاضافة الى طليحـــة الاسدي ومسيلمة الكذاب فقد ظهر ذو التاج لقيط بن مالك الذي اتبعته قبائل الازد في عمان ايضا . كما ادعت النبوة سجاح بنت أوس (وقيل بنت الحرث) بن سويد وهي من بني حنظلة من تميم وكنيتها أم صادر . واتبعها قوم من تميم وقوم من اخوالها من بني تغلب . وكانت نهايتها أن قدمت علـــى مسيلمة وهو بحجر من اليمامة فآمنت به وتزوجته . وقد

Digitized by Birzeit University Library

قال فيها قيس بن عاصم :

أضحت نبيتنا أنثى نطوف بها وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

وكذلك قـــول شاعر آخر :

أضـــل اللـــه سعي بني تميم كما ضلت بخطبتها سجاح

(المسعودي ، ج١ ص ٤٠٦) .

والواقع أن المتتبع لحروب الردة يستطيع أن يخرج بنتيجة أن معظم قبائل الجزيرة العربية قد ارتدت بعد وفاة الرسول . وحتى بعد اسلام طليحة وأسر عيينه بن حصن التقى خالد بن الوليد ببعض بني أسد وغطفان بزعامـــة خارجه بن حصن بن حذيفة بالغمر . كما انه قاتل بني سليم بزعامة أبي شجره عمرو بن عبد العزي السلمي في جو قراقر وقيل في النقرة . والتقى ببعض بني تميم بالبطاح والبعوضه حيث قتل زعيمهم مالك بن نويره . وبالاضافة الى عنس فقد ارتدت بنو خلان باليمن الذين بعث اليهم أبو بكر بيعلي بن منبه لقتالهم . أما قتال بني كنده بزعامة الاشعث بن قيس فقد تولاه زياد بن لبيد الانصاري والمهاجر ابن أبي أمية . (البلاذري ، ص ١٢٣) .

Digitized by Birzeit University Library

الفتوحـات الاسلاميـــة :

انطلاقا من مبدأ حفظ التوازن عن طريق توسيع حلقة التناقض والصراع ، فقد حتم أن يؤدي اعادة توحيد الجزيرة العربية الى وجود طاقة عسكرية هائلة نتجت عن توقف الغارات القبلية وأخذت تبحث لها عن منفذ خارج الجزيرة العربية . لذلك من الممكن القول ان الفتوحات الاسلامية شكلت امتدادا تاريخيا لموجات الهجرة والغزو القبليين خارج حدود الجزيرة العربية ــ وهذه المرة بشكل منظم في اطار الجهاد والدعوة الاسلامية . كما نستطيع القول أن مكة والمدينة استطاعت السيطرة على المجتمع القبلي (التي هي حفظ توازن النقائض) بتوجيه طاقاتـــه العسكرية خارج حدود الجزيرة ، الامر الذي يفسر كيف ان ابا بكر وعمر كانا يقومان بتوجيه زعماء القبائل الذين يفدون مسلمين راسا الى العراق. ومن الناحية الاخرى فان الفتوحات الاسلامية لم تكن بالنسبة لتلك القبائل سوى استمرارا للغزوات التي كانت تشنها على أطراف الجزيرة واسلامها أعطى تلـك الغزوات طابع الفتح الشرعي فقط .

وهذه القضايا تتضح أكثر على خلفية ما رأيناه من أن الاسلام جاء عمليا لضبط ظاهرة الفوضى والغارات القبلية وتنظيمها وتوجيهها الى أطراف الجزيرة العربية . يقول ابن الاثير : « كان الشيطين لبكر بن وائل . فلما ظهـر الاسلام في نجد سارت بكر قبل السواد وبقي مقايس بن عمرو العائذي حليف بني شيبان بالشيطين . فلما اقامت بكر بالسواد لحقهم الوباء والطاعون الذي كان أيام كسرى شيرويه فعادوا هاربين فنزلوا العلع وهي مجدبـة وقد أخصب الشيطين ، فسارت تميم فنزلوا بها . وبلغت اخبار خصب الشيطين الى بكر فاجتمعوا وقالوا نغير على تميم ،

Digitized by Birzeit University Library

فان في دين ابن عبد المطلب ، يعنون النبي ، ان من قتل نفسا قتل بها ، فنغير هذه الغارة ثم نسلم عليها . فارتحلوا من لعلع بالذراري والاموال ... حتى صبحوهم وهم لا يشعرون فقاتلوهم قتالا شديداً وصبرت تميم ثم انهزمت .. » (ج١ ص ٢٧٤ — ٢٧٥) .

والاسلام كما قلنا اعطى تلك الغارات طابع الجهاد الشرعي ايضا . وما يدلنا على ذلك بوضوح هو ما روي عن ابي بكر أنه كان يستقبل وفود القبائل التي أتت اليه مسلمة ويعقد لها ألويتها ويسيرها الى حدود العراق . يقول البلاذري : « وأمر الامراء أن يعقدوا لكل قبيلة لواء يكون فيهم . » (ج١ ص ١٢٩) . لذلك فاننا نرى ان اكثر أمراء الفتح الاسلامي على حدود العراق في تلك الفترة كانوا من زعماء القبائل التي كانت تغير على السواد قبل الاسلام. يقول البلاذري : « قالوا : وكان المثنى بن حارثة بن سلمه بن ضمضم الشيباني يغير على السواد في رجال من قومه . فبلغ أبا بكر رضي الله عنه خبره فسأل عنه . فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقري : هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد . هذا المثنى ابن حارثة الشيباني . ثم ان المثنى قدم على ابي بكر فقال له : يا خليفة رسول الله ! استعملني على من أسلم من قومي لقاتل هذه الاعاجم من أهل فارس . فكتب له ابو بكر في ذلك عهدا فسار حتى نزل خفان ودعا قومه الى الاسلام فأسلموا . » (ج٢ ص ٢٩٥) .

وعلى هذه الخلفية يفهم كيف أن مهمة خالد بن الوليد الاولى في العراق انحصرت في تجميع طاقات القبائل العربية على أطراف السواد ودفعها موحدة لقتال الفرس . يقول البلاذري : « ثم ان ابا بكر رضي الله عنه كتب الى خالد ابن الوليد المخزومي يأمره بالمسير الى العراق ، ويقال بل وجهه من المدينة . وكتب الى المثنى بن حارثة يأمره بتلقيه

Digitized by Birzeit University Library

والسمع والطاعة له . » (ج٢ ص ٢٩٥) . وبالاضافة الى ذلك فان الامدادات التي كان يرسلها أبو بكر الى خالد انحصرت في توجيه المزيد من زعماء القبائل التي تأتي مسلمة اليه وأمرهم باعانته والانصياع لاوامره . من هؤلاء مذعور ابن عدي زعيم بني عجل وسويد بن قطبة زعيم بني ذهل ويقال جرير بن عبد الله زعيم بجيلـــه ايضا : « ثم سار (خالد) يريد الحيرة وخلف سويد بن قطبة على ناحيته وقال له : قد كنا عركنا هذه الاعاجم بناحيتك عركة أذلتهم لك . » (البلاذري ، ج٢ ص ٢٩٦) .

ومما يتضح من الروايات التي يوردها البلاذري أن عمر ابن الخطاب اتبع سياسة أبي بكر أيضا : « وقدم عليه (أي على عمر) خلق من الازد يريدون غزو الشام فدعاهم الى العراق ورغبهم في غناء آل كسرى . فردوا الاختيار اليه فأمرهم بالشخوص . » (ج٢ ص ٣١٠) . وأحيانا ما كانت هذه القبائل توافق على الغزو مقابل نصيب معين من الغنائم يتفق الخليفة معها عليه . يقول البلاذري : « وقدم جرير بن عبد الله من السراه في بجيله فسأل أن يأتي العراق على أن يعطى وقومه ربع ما غلبوا عليه فأجابه عمر الى ذلك فسار نحو العراق . » (نفس المصدر) . وفي رواية اخرى يذكر البلاذري « ان عمر وجه جرير بن عبد الله الى الكوفة بعد مقتل أبي عبيد (الثقفي) أول من وجه ، وقال له : هل لك في العراق وانفلك الثلث بعد الخمس ؟ قال : نعم » . (نفس المصدر) .

وعلى الرغم من تعدد الروايات التي يوردها المؤرخون العرب واختلافها ، «فانها تجمع على كون الغزو واغتنام الغنائم طابع الفتوحات الاساسي أن لم يكن الدافع لها أيضا » ، ومن هذه الروايات ما ورد في كتاب الخراج لابي يوسف عن الحديث الذي دار بين عمر وبين النعمان بن مقرن قبل توجه الاخير لفتح نهاوند : « فدخل عمر الى المسجد فاذا هو بالنعمان بن مقرن يصلي ، فقعد عمر الى

Digitized by Birzeit University Library

جنبه ، فلما قضى صلاته قال : لا اراني الا مستعملك . قال : اما جابياً فلا ، ولكن غازياً . قال فانك غاز . » (أبو يوسف ، ص ٣٢) . ويورد أبو يوسف رواية أخرى حول الحديث الذ يدار بين رستم وبين المغيرة بن شعبة رسول سعد بن أبي وقاص اليه قبيل القادسية : « فقال رستم : انبئوني ما جاء بكم من بلادكم ، فانا لا نرى لكم عـددا ولا عدة . فقال لـه المغيرة : كنا قوما في شقاء وضلالة ، فبعث الله فينا نبياً فهدانا الله به ورزقنا على يديه . فكان فيما رزقنا حبة زعموا انها تنبت في هذه الارض. فلما اكلنا منها واطعمنا اهلينا قالـوا : لا صبر لنا حتى تنزلونا هذه البلاد فنأكل هذه الحبة . » (نفس المصدر ، ص ٢٩) .

ولعل خالد بن الوليد قد نجح أكثر من غيره من قادة الفتح الاسلامي في توضيح هذه العلاقة بين الايمان والجهاد في الدعوة الاسلامية وبين دافع الغزو لدى القبائل العربية . ويذكر الطبري انه بعد معركة ذات السلاسل من حروب الردة : « قام خالد خطيبا في الناس يرغبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب وقال : ألا ترون الى الطعام كرفغ التراب ؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء الى الله عز وجل ، ولم يكن الا المعاش لكان الراي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والاقلال مـن تولاه ممن اثاقـل عما انتم عليه . » (الطبري ، ج٤ ، ص ٩) .

وهذا الربط واضح لدى كل من أبي بكر وعمر . اذ يروى أن أبا بكر قال يوم السقيفة : « لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله . فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الذل » (الدوري ، ص ٤٤) . كما ورد في مقدمة ابن خلدون ما كنا قد أشرنا اليه من أن عمر قام بعد مبايعته يحرض الناس

Digitized by Birzeit University Library

على الجهاد فقال : « ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ، ولا يقوى عليه اهله الا بذلك . اين القراء المهاجرون عن موعد الله ... » (ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٤٥) .

وسنكتفي هنا بما ورد في رواية اخرى عما دار بين عمرو بن العاص وزعماء الاقباط بعد أن علم انهم يريدون التمرد عليه وطرد المسلمين من مصر . اذ يقال انه امر بذبح جزور وطبخه ثم دعاهم الى اكله فتأففوا بينما اخذوا يراقبون جند المسلمين وهم ينهشون فيه ، فقال عمرو : « قد علمت أنكم ترون في انفسكم أمرا تريدون به الخروج، فخشيت أن تهلكوا . فأريتكم كيف كان العرب في بلادهم وطعامهم من لحم الجزور . ثم حالهم بعد ذلك في أرضكم وما فيها من الوان الطعام الذي رأيتم . فهل تظنون انهم يسلمون هذا البلد ويعودون الى ما كانوا فيه ! انهم يسلمون قبل ذلك حياتهم ويقاتلونكم أشد قتال . » (الدوري ، ص ٤٥) .

وطابع الغزو القبلي للفتوحات والتركيبة القبلية للجيش الاسلامي يظهران جليا من خلال تضارب الروايات في صدر الدولة الاسلامية حول من كان قائد المسلمين في العراق بعد انتقال خالد الى الشام : « وكان على الناس فيما تزعم بجلية جرير بن عبد الله ، وفيما تقول ربيعة المثنى بن حارثة . وقد قيل انهم كانوا متساويين ، على كل قوم رئيسهم . » (البلاذري ، ج٢ ص ٣١١) . على اي حال فعلى الرغم من تلك التركيبة القبلية وبقاء القبيلة هي الوحدة العسكرية الاساسية فقد انحصرت القيادة العامة للجيوش الاسلامية عادة في قريش ، وبعد مسير خالد الى الشام ولي سعد بن أبي وقاص (الذي هو سعد بن مالك بن اهيب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب) تلك القيادة في العراق .

كما تظهر تلك التركيبة القبلية واضحة في بداية النزاع بين القبائل المختلفة وزعامتها على تقسيم الغنائم ، الامر

Digitized by Birzeit University Library

الذي كانت له ابعاد سياسية خطيرة بالنسبة للفتنة على عثمان وللانحياز القبلي أثناء الصراع بين علي ومعاوية كما سنرى . والدليل على ذلك واضح من خلال تنازع الكوفيين (بزعامة سلمان بن ربيعة الباهلي) والشاميين (بزعامة حبيب بن مسلمة الفهري) على اقتسام الغنائم بعد فتح ارمينيه زمن عثمان بن عفان : « حتى تغالظ حبيب وسلمان في القول وتوعد بعض المسلمين سلمان بالقتل . قال الشاعر :

ان تقتلوا سلمان نقتل حبيبكم
وان ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

وكتب الى عثمان بذلك فكتب أن الغنيمة باردة لاهل الشام . » (البلاذري ، ج١ ص ٢٣٤) . ويروي البلاذري أيضا أن سعد بن ابي وقاص حاول حرمان قيس بن مكشوح الذي أمده به عمر على رأس وحدة شامية من غنائم القادسية : « فقدم متعجلا في سبع مئة وقد فتح على سعد . فسألوه الغنيمة فكتب الى عمر في ذلك ، فكتب اليه عمر : ان كان قيس قد قبل دفن القتلى فاقسم له نصيبه . » (نفس المصدر ، ج٢ ص ٣١٥) .

والواقع أن المتتبع لانتظام جيوش الفتح الاسلامي أثناء المعارك ، ولجو الانتماء والحماس والمفاخرة بالانساب قبيل تلك المعارك لا يستطيع الا الوقوف على مدى كون القبيلة هي الوحدة العسكرية الاساسية في الجيش الاسلامي . يقول المسعودي في سياق حديثه عن القادسية : « فبعث (سعد) لبني أسد لما نظر الى الموكب والفيول قد مالت الى بجيله فأمرهم بمعونتهم . ومالت عشرون فيلا نحو القلب فخرج طليحة بن خويلد الاسدي مع فرسان بني أسد فقتل منهم خمسمائة رجل سوى من قتل من غيرهم ، فباشروا قتال الفيلة حتى أوقفوها . واشتد الجلاد على بني أسد في هذا اليوم من سائر الناس وهذا اليوم يعرف بيوم اغواث . فلما أصبح الناس في اليوم الثاني أشرف على

Digitized by Birzeit University Library

الناس خيول المسلمين من الشام والامداد سائرة قد غطت بأسنتها الشمس عليها هاشم بن عتبة بن ابي وقاص في خمسة الاف فارس من بني ربيعة ومضر والف من اليمن ومعه القعقاع بن عمرو ... » (المسعودي ، ج١ ص ٤٢٢) .

والطابع القبلي لا يبرز من خلال تركيبة جيوش الفتح الاسلامي فقط بل من خلال الاستراتيجية العسكرية التي اتبعتها تلك الجيوش ايضا . ولعل استراتيجية الغارات القبلية الخاطفة ، وكون القبيلة وحدة عسكرية خفيفة التسليح وسريعة الحركة ، تستطيع القيام بهجوم مفاجيء وتقهقر سريع وانتشار في الصحراء عند الحاجة ، بعكس الجيوش الامبراطورية الثقيلة التسليح والبطيئة الحركة ، تفسر الى حد بعيد الانتصارات السريعة التي سجلها المسلمون . يقول المسعودي : « فقالت بجيله لجرير اعبر الدجلة الى المدائن ، فقال جرير : ليس ذلك بالراي وقد مضى لكم في ذلك عبرة من تقتل اخوانكم يوم الجسر ، ولكن امهلوا القوم فان جمعهم كثير حتى يعبروا اليكم فان فعلوا فهو الظفر ان شاء الله . فأقامت الفرس بالمدائن اياما ثم اخذوا بالعبور فلما عبر منهم النصف او نحوه حمل عليهم جرير فيمن أسرع معه من بجيلة .. » (المسعودي ، ج١ ص ٤٢٠) . كما أن لسرعة الحركة وللغارات الخاطفة كانت ايجابية هائلة في كل ما يتعلق بنقل المؤن والامدادات : « وكان جميع المسلمين ما بين تسعة الاف الى عشرة الاف ، فاذا احتاجوا الى العلف والطعام اخرجوا خيولا في البر فأغارت على أسفل الفرات . » (البلاذري ، ج٢ ص ٣١٤) .

كما ان عملية الاستيطان وتمصير الامصار واختطاط المدن والثغور حملت طابع الهجرة القبلي ايضا الامر الذي كانت له ابعاد اجتماعية وسياسية خطيرة لما نتج عنه من نقل مركز الثقل السياسي والعسكري للجزيرة العربية الى الامصار كما سنرى . يقول البلاذري : « ثم لما ولي

Digitized by Birzeit University Library

معاوية الشام والجزيرة لعثمان بن عفان رضي الله عنه أمره ان ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعتمال الارضين التي لا حق فيها لاحد . فأنزل بني تميم الرابية ، وانزل المازحين والمديبر أخلاطا من قيس وأسد وغيرهم . وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك ، والزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من اهل العطاء ، ثم جعلهم مع عماله . » (البلاذري ، ج١ ص ٢١١) . وما يرويه البلاذري عن كيفية اختطاط الكوفة وانزالها العرب يوضح طابع الاستيطان والهجرة القبليين بشكل بارز : « ... فتحول (سعد) الى الكوفة فاختطها واقطع الناس المنازل وانزل القبائل منازلهم ، وبنى مسجدها ، وذلك في سنة سبع عشرة ... واسهم لنزار واهل اليمن بسهمين على أنه من خرج بسهمه أولا فله الجانب الايسر وهو خيرهما . فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي ، وصارت خطط نـزار في الجانب الغربي مـن وراء تلك العلامات . وترك ما دونها فناء للمسجد ودار الامارة . » (نفس المصدر ، ج٢ ص ٣٣٨)

Digitized by Birzeit University Library

حفظ التوازن وبناء الدولة الاداري :

رأينا فيما سبق كيف أن الفتوحات الاسلامية شكلت امتدادا تاريخيا لظاهرة المد والهجرة القبليين في الجزيرة العربية . كما حاولنا الربط ايضا بين تلك الفتوحات ومبدأ حفظ توازن النقائض الذي نتج عن طريق مركزة الاسلام للسلطة السياسية على بيئة الجزيرة القبلية في مكة والمدينة — الامر الذي رأينا كيف انه اختزل الصراعات الاجتماعية والسياسية التي نشبت داخل هذه الاخيرة عند وفاة الرسول .

وانطلاقا من مبدأ حفظ ذلك التوازن وتلك السيطرة سنقوم هنا بتتبع ودراسة الجوانب السياسية والاجتماعية في عملية بناء الدولة الاسلامية الاداري بعد الفتوحات . كما سنرى أيضا كيف أن طابع المد القبلي الذي ميز تلك الفتوحات حمل بين طياته جذور اختلال ذلك التوازن وذلك على الرغم من المجهود الذي بذله عمر بن الخطاب في مركزة السلطة في مكة والمدينة وبسبب المعطيات السياسية والاقتصادية الجديدة التي نتجت عن تلك الفتوحات — الامر الذي تجسد في الفتنة على عثمان وزامن انفجار التناقضات التي حملتها الدعوة الاسلامية كجزء من الارث السياسي والاجتماعي لمكة قبل الاسلام .

وتعود جذور عملية تنظيم ومركزة الشؤون الادارية للدولة الاسلامية الى عهد الرسول ، الامر الذي كنا قد وقفنا عليه وعلى بعض جوانبه الشرعية كما وردت في القرآن ايضا . غير أن الاسس النهائية لعملية التنظيم تلك وضعت في خلافة عمر بن الخطاب وبعد موجة الفتوحات الاسلامية الاولى كما سنرى .

ويشير بعض المؤرخين الى أن عمر بن الخطاب اقتدى

Digitized by Birzeit University Library

في سياسته الادارية بالانظمة التي كانت متبعة من قبل الفرس والرومان في المشرق العربي وذلك الى جانب الارث الشرعي والسوابق التي كانت في هذا المجال أيام الرسول . وذلك بدليل ان ظاهرة الجزية (التي كانت تسمى خراج الجماجم — بمعنى ضريبة الراس) كضريبة يفرضها المحتل كانت معروفة في المنطقة منذ اقدم العصور . من هنا تبرز اهمية ما ذهب اليه كل من الطبري وابن الاثير من ان عمر اقتدى في نظام الضرائب بالانظمة التي اتبعها كسرى أنو شروان في العراق واجزاء من سوريا . يقول ابن الاثير : « فلما ملك أنو شروان أمر باستتمام ذلك ووضع الخراج على الحنطة والشعير والكرم والرطب والنخل والزيتون والارز على كل نوع من هذه الاشياء شيئا معلوما ويؤخذ في السنة في ثلاثة انجم ، وهي الوضائع التي اقتدى بها عمر بن الخطاب . وكتب كسرى الى القضاة في البلاد نسخة من الخراج ليمتنع العمال من الزيادة عليه وأمر ان يوضع عمن أصابت غلته جائحة بقدر جائحته . والزموا الناس الجزية ما خلا العظماء واهل البيوتات والجند والهرابذة والكتاب ومن في خدمة الملك ، كل انسان على قدره اثني عشر درهما وثمانية دراهم وستة دراهم واربعة دراهم واسقطها عمر عمن لم يبلغ عشرين سنة أو جاوز خمسين سنة . » (ج١ ص ١٨٤ كذلك راجع الطبري ، ج١ ص ٥٦٧ — ٥٦٨) .

وكان وارد الدولة الاسلامية في الاساس من الزكاة والجزية ومداخيل اراضي الصوافي ومن العشور والفيء والغنائم . وقد وقفنا فيما سبق على الاهمية التي كانت لدفع الزكاة في عملية بناء الدولة الاسلامية وفرض سلطتها على قبائل الجزيرة العربية الى درجة ان الجزية لم تكن تقبل من تلك القبائل بدلا عنها وعن الاسلام . وكانت الزكاة تسمى الصدقة او العشر . يقول القرشي : « واما الزكاة في الارض والزرع والثمار فما كان من ارض من هذه الارضين

Digitized by Birzeit University Library

التي لم يوضع عليها الخراج فهي أرض عشر والعشر هو الصدقة وهو الزكاة المفروضة على المسلمين في زرعهم وثمارهم . » (القرشي ، ص ٧٨) . وقد اختلف في مقدار الزكاة بالنسبة لانواع المحاصيل التي كانت تفرض عليها ، كما اختلف في الحد الادنى من المقدار الخاضع للزكاة من تلك المحاصيل : قال يحيى (بن آدم القرشي) فما كان منها يسقى سيحا او تسقيه السماء ففيه العشر . وما كان يسقى بالدلو ففيه نصف العشر وذلك فيما اخرجت من حنطة او شعير او تمر او زبيب . واما ما سوى هذه الاصناف مما اخرجت فانه يختلف فيها .. » (نفس المصدر)

أما حول الحد الادنى مما كانت تفرض عليه الزكاة فقد ذل البعض أنها تفرض في هذه المحاصيل قليلها وكثيرها . وقال البعض الاخر لا تفرض في اقل من خمسة اوساق من كل صنف

والخلاف نابع عن تعدد الروايات وتضاربها حول هذه الاصناف ومقاديرها . يقول القرشي : « وقد ذكر عن بعض اهل المدينة والشام انه تخرج زكاة الخضار من اثمانها على حساب مائتي درهم خمسة دراهم (اي خمسة دراهم على كل ما يساوي مائتي درهم منها) . » (ص ٧٩) . وفي نفس الوقت يورد القرشي روايات اخرى تقول ان الزكاة لم تكن تفرض على الخضار والبقول والفواكه الا ما جف منها او كيل بمكيال . وهو يعتمد في ذلك على كتاب قيل ان الرسول ارسله الى معاذ بن جبل وهو باليمن يأمره بأخذ الزكاة عن الحنطة والشعير والتمر والزبيب فقط .

والسبب الاخر الذي يزيد من هذه البلبلة هو اختلاف المكاييل والموازين من مكان الى آخر وبين الفترة التي عمل بها والفترة التي كتب فيها القرشي . ومع ان هذه الروايات تؤكد على ان الوسق كان يساوي ستين صاعا فان بعضها يشير الى انه يساوي ستين قفيزا « بقفيز الحجاجي » .

Digitized by Birzeit University Library

والقرشي يضيف الى ذلك قوله بأن القفيز الحجاجي هو الصاع وهو ما كان يساوي ثمانية أرطال في تلك الفترة وذلك على الرغم من أنه لم يتأكد من كون قفيز أو صاع عمر بن الخطاب يساوي القفيز الحجاجي أو يزيد عنه (القرشي ٩٩ — ١٠١) .

على أي حال فان ما يهمنا هنا أن نظام الضرائب في الاسلام قد ميز المسلمين عن غيرهم ليس بالنسبة لمسألة دفع الجزية فقط بل ومقدار الضريبة التي تجبى عن مدخول الارض أيضا . والفرق بين الزكاة والخراج لا يشير الى هذا التمييز فقط بل ويرتبط بمسألة ملكية الارض في الدولة الاسلامية . فأراضي المسلمين كانت تعرف أيضا بالاراضي العشرية أو العشور نسبة الى عشر المحاصيل التي كان هؤلاء يدفعونها زكاة عنها . كما أن الزكاة كانت تفرض على مقدار الدخل من تلك المحاصيل وليس على الارض . وفي حالة عدم زرع المسلم لارضه فقد كانت تعفى من الزكاة بعكس الاراضي الخراجية التي كانت ملزمة بدفع الخراج (الذي كان يتراوح بدوره بين ربع ونصف المحصول) زرعت أم لم تزرع . واذا حدث أن استأجر المسلم أرضا خراجية فقد كان يدفع عشر الغلة (اذا بلغت خمسة اوسق) بينما يدفع المؤجر خراج الارض . (القرشي ، ص ١٢٢) .

ويعود السبب في فرض الضرائب على الاراضي الخراجية في حالة زرعها أو عدمه الى اعتبار تلك الاراضي ملكا للدولة الاسلامية في حين اعتبرت الاراضي العشرية أراضي ملك فقط . الامر الذي يعني أن عامة الاراضي الزراعية التي افتتحت كانت تعتبر أراضي الدولة ككل ، الامر الذي يفسر غياب الملكية الفردية على الارض من ناحية ويرتبط بشكل غير مباشر بمسألة سلطة الدولة المطلقة في الاسلام أيضا . وقبل أن ننتقل الى البحث في مسألة غياب الملكية الفردية أو قلتها تجدر الاشارة الى أن احد دلائل التمييز بين العرب المسلمين وغيرهم هو اعتبار

Digitized by Birzeit University Library

عمر بن الخطاب أراضي الجزيرة العربية عامة أرض عشر (أي ملكيـــة فردية) الامر الـــذي ارتبط بدوره بامتناع الرسول عن جعلها ارضا خراجية لانه لم يقبل الجزية من العرب وخيرهم بين الاسلام والقتل في اغلب الاحيان . واذا كان الرسول قد قبل الجزية من عرب الجزيرة العربية من أهل الكتاب فان اجراءات عمر بن الخطاب اتت لتؤكد على طابـــع تلك الجزيرة العربي والمسلم . (ابو يوسف ، ص ٥٨ ــ ٥٩) .

وقد اعتبر الخراج فيئا عاما للدولة الاسلامية ككل وذلك بموجب الاية : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابـــن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم . » ويورد ابو يوسف آيات أخرى اعتمد عليها في تثبيت مسألة ملكية الدولة على الارض منها الاية : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » ، وكذلك « والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ثم ، « والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم . »

ويعلق ابو يوسف على ابعاد مفهوم ملكية الدولة المطلقة كما وردت في هذه الايات بقوله : « فهذا والله اعلم لمن جاء من بعدهم من المؤمنين الى يوم القيامة . » (ابو يوسف ، ص ٢٣) . وهذا المفهوم هو تحديدا ما يفسر رفض عمر بن الخطاب تقسيم اراضي السواد ومصر وبلدان اخرى على الرغم من أن اكثرهاافتتح عنوة . اذ أن ما افتتح عنوة كان يعتبر غنيمـــة تقسم على من افتتحها مـــن المسلمين بعد تخميسها (اي تقسم اربعة اخماسها بعد ان يأخذ الرسول

Digitized by Birzeit University Library

الخمس) . واما ما « لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب » فكان يذهب كله للرسول يتصرف فيه حسب ما يرى من احتياجات الدولة . وما كان يهرب عنه اهله ويتركوه فيسمى اراضي الصوافي التي تذهب ايضا للرسول او للخليفة التي يتصرف فيها كما يشاء .

هذا من الناحية النظرية . غير ان الرسول لم يقسم اربعة اخماس اراضي خيبر على الرغم من انها افتتحت عنوة بل حصر مفهوم الغنيمة في المتاع والسلاح والدواب فقط كما راينا . ومن الناحية الاخرى فقد قسم اراضي بني النضير ، الامر الذي يعيدنا مرة اخرى الى مفهوم ملكية الدولة المطلقة على الارض . يقول القرشي : « والغنيمة جميع ما اصابوا من شيء قل ذلك او كثر حتى الابرة ، الا الارضين فان الارضين الى الامام ان رأى أن يخمسها ويقسم اربعة اخماسها للذين ظهروا عليها فعل ذلك وان رأى ان يدعها فيئا للمسلمين على حالها ابدا فعل بعد ان يتشاور في ذلك ويجتهد رايه لان رسول الله صلعم قد وقف بعض ما ظهر عليه من الاراضي فلم يقسمها وقد قسم بعض ما ظهر عليه . » (القرشي ٤ ــ ٥) .

من هنا نستطيع العودة الى الاعتبارات التي دفعت عمر الى عدم قسمة السواد بين من افتتحوه من المسلمين على الرغم من ان اكثره افتتح عنوة وعلى الرغم من ان هؤلاء طالبوه بذلك . فعمر اراد وقف الارض كأملاك لكافة المسلمين اي للدولة . وموقفه هذا واضح من خلال الكتاب الذي ارسله الى سعد بن ابي وقاص بعد القادسية : « واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين » (ابو يوسف ، ص ٢٤) .

من هنا يتضح ايضا كيف ان عمر اراد بذلك ضمان مدخول ثابت للدولة لكي تستطيع توزيع الاعطيات والمخصصات للفاتحين المسلمين الذين اراد لهم ان يبقوا

Digitized by Birzeit University Library

كنخبة عسكرية مقاتلة يعيشون على الجزية والخراج الذي يؤديه اهالي البلاد المفتوحة . وما يدل على ذلك هو ما روي عنه انه قال : « فأنتم مستخلفون في الارض ، قاهرون لاهلها ... . فلم تصبح امة مخالفة لدينكم الا امتان : امة مستعبدة للاسلام يجزون لكم تستصفون معائشهم وكدائحهم ورشح جباههم ، عليهم المؤونة ولكم المنفعة .. وامة قد ملىء الله قلوبهم رعبا . » (الطبري ، ط الحسينية ، ج٥ ص ٢٧) . كما يروي ابو يوسف أن عمر قال حين طولب بقسمة السواد : « وقد رايت أن أحبس الارضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين : المقاتلة والذرية ومن يأتي من بعدهم . أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام — الشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ، لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ، وادرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الارضون والعلوج ؟ » (ابو يوسف ، ص ٢٥) .

واعتبارات عمر هذه ، والاساس الشرعي الذي اعتمد عليه في ذلك (بما فيه من السوابق زمن الرسول) يبرز مسألة عدم فصل الملكية عن سلطة الدولة المطلقة ومهامها الامنية الاولى في الاسلام ، الامر الذي ينبع تاريخيا عن اهمية مسألة الامن بالنسبة لمدن المشرق العربي التي يشكل موقعها الجغرافي واشتغالها بتجارة الترانزيت الدولية أساس قدسية السلطة والامن المطلقين بالنسبة لها .

من هنا يفهم كيف أن اي بحث في علاقات الملكية على الارض يجب أن ينطلق من كون تلك العلاقات دالة للاشتغال بتجارة الترانزيت كنمط أساسي في انتاج المشرق العربي بحيث يشكل القطاع الزراعي أو الرعوي المحيط رديفا اقتصاديا وسياسيا لها . وبالنسبة لصدر الدولة الاسلامية فان ذلك يرتبط بشكل مباشر بمسألة الوحدة السياسية

Digitized by Birzeit University Library

ايضا . اذ أن توزيع الاراضي كان سيؤدي حتما الى تفتيت القاعدة المادية لوحدة الدولة الاسلامية خاصة بسبب القاعدة القبلية المترجرجة لتلك الوحدة . وهذا ما يتضح من الرواية التالية التي يوردها البلاذري : « قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابية ، فأراد قسمة الارض بين المسلمين لانها فتحت عنوة . فقال له معاذ بن جبل : والله لئن قسمتها ليكونن ما نكره ويصير الشيء الكثير في أيدي القوم ثم يبيدون فيبقى ذلك لواحد ، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون عن الاسلام مسدا فلا يجدون شيئا ، فانظر أمرا يسع أولهم وآخرهم ، فصار الى قول معاذ . » (البلاذري ج١ ص ١٧٩) . أما القرشي فيورد رواية أخرى تنسب الى عمر قوله : « لولا أن يترك آخر الناس لا شيء لهم ما فتح الله على المسلمين قرية الا قسمتها سهمانا كما قسمت خيبر سهمانا . ولكني أخشى أن يبقى آخر الناس لا شيء لهم . » (القرشي ، ص ٢٨ — ٢٩) . والقرشي يورد هنا رواية تشير الى أن علي رفض قسمة السواد حين دخل الكوفة لنفس الاسباب وقوله : « أيها الناس أعينوا على أنفسكم فان السبعة أو قال التسعة يكونون في القرية فيحيونها باذن الله عز وجل . ولولا أن يضرب بعضكم وجوه بعض لقسمت هذا السواد بينكم . » (نفس المصدر ، ص ٣٠) . كما أن عليا كان أحد الذين أشاروا على عمر بعدم قسمة السواد على ما يبدو وقال حين استشير في ذلك : « دعهم يكونون مادة للمسلمين » .

غير أن سياسة عمر هذه لم تمر دون معارضة ، ويذكر أنه كان قد وعد جرير بن عبد الله البجلي بربع السواد ، الامر الذي تراجع عنه فيما بعد وقال لجرير : « يا جرير : لولا انني قاسم مسؤول لكنتم على ما كنتم عليه ، ولكني أرى أن ترده على المسلمين . فرده عليهم وأعطاهم عمر (اي أعطى بجيله) ثمانين دينارا . » (القرشي ، ص ٢٩)

أما مصدر الضغوط الاساسي على عمر فكان من

Digitized by Birzeit University Library

الصحابة الذين اشتركوا في فتح العراق على ما يبدو . ومنهم عبد الرحمن بن عوف الذي يروى انه طالب بقسمة السواد على من افتتحه من المسلمين قائلا : « ما الارض والعلوج الا مما أفاء الله عليهم . » ويقول ابو يوسف : « فأكثروا على عمر رضي الله عنه وقالوا : اتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ، ولابناء القوم ولابناء ابنائهم ولم يحضروا ؟ » . كما يتضح من رواية اخرى لابي يوسف أن رباح المزني وغيره من الصحابة كان ممن طالب بقسمة الارض ايضا . والدليل على ذلك ما رواه عن عمر أنه قال : « اللهم اكفني بلالا واصحابه . » (أبو يوسف ، ص ٢٤ — ٢٥ ، كذلك راجع البلاذري ، ج٢ ص ٣٢٧ — ٣٢٩) .

وقد اتبع عمر نفس السياسة بالنسبة لمصر . ولعل ذلك يفسر اختلاف الرواة والمؤرخين العرب حول كونها قد افتتحت عنوة لاعتبار ارضها فيئا خراجيا كما قدمنا . (البلاذري ، ج١ ص ٢٥٢) . غير أن الاهمية الاولى لهذه السياسة تكمن في كونها مفتاحا لفهم مسألة علاقات الملكية العقارية في صدر الدولة الاسلامية . كما قدمنا . والماوردي يربط في كتابه **الاحكام السلطانية** بين تلك الملكية وبين هذه السياسة . فالاقطاع بالنسبة له ضربان اقطاع استغلال (للاراضي الخراجية) واقطاع تمليك . أما اقطاع التمليك فقد نبع في صدر الدولة الاسلامية عن مصدرين أساسيين : الاول الاراضي العشرية التي اسلم عليها أهلها قبل فتحها والثاني ما أحياه المسلمون من أراضي الموات .

سنتطرق في المستقبل الى مسألة اقطاع الاراضي واحيائها . أما بالنسبة لماوردي فانه يشير الى ان اقطاع التمليك ينقسم الى موات وعامر . وهذا الاخير يجوز أن يقطعه الامام حتى اذا كان في دار الحرب ، أي اقطاع الارض قبل فتحها ، والذي يسمى اقطاع النفل . ويضيف المقريزي الى ذلك قوله في أنواع اقطاع التمليك العامر :

Digitized by Birzeit University Library

« احدهما ما يتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه الا بتلك الارض في حق لبيت المال اذا كانت في دار الاسلام . فاذا كانت في دار الحرب حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد فأراد الامام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها فانه يجوز (على وجه النفل) .. » (الخطط ، ج١ ص ١٥٧) .

وفي المحاضرات السابقة كنا قد أشرنا الى قيام الرسول باقطاع الصحابة من الاراضي الخراجية وقسمة بعض الاراضي التي افتتحت عنوة . وبالاضافة الى ذلك فهنالك عدة روايات تشير الى أنه اقطع بعض المسلمين أراض في الشام والعراق على سبيل النفل . يقول المقريزي : « وأما الارض التي جعلها النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الناس وهي عامرة لها أهل ، فاعطاء الامام يكون على وجه النفل. ومن ذلك ما أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم تميما الداري فانه أعطاه أرضا بالشام من قبل أن تفتح الشام وقبل أن يملكها المسلمون فجعلها له نفلا من أموال الحرب اذا ظهر عليهم .. » (نفس المصدر ، ص ١٥٧) .

هنا نصل الى نقطة نستطيع من خلالها اضافة بعد آخر لظاهرة اقطاع الاراضي وتمليكها في ايام الرسول والخليفتين من بعده . وتجمع الروايات على أن الرسول قد شجع تمليك من كان يحيي أرضا مواتا وذلك على الرغم من أنه سبق عمر في كونه أراد الابقاء على المسلمين كفئة عسكرية مقاتلة ومميزة ولم يرد لهم أن يشتغلوا بالزراعة . والدليل على ذلك هو ما يرويه القرشي من حديث نسب الى الرسول قوله : « جعل الله رزق هذه الامة في سنابك خيلها وأسنة رماحها ما لم يزرعوا فاذا زرعوا كانوا (كغيرهم) من الناس . » (القرشي ، ص ٥٩) . وفي نفس الوقت فان الكثير من الروايات تتحدث عن تشجيعه لعملية احياء الارض الموات وامتلاكها في المدينة . منها قوله : « من أحيا أرضا ميتة فله رقبتها وليس لعرق ظالم

Digitized by Birzeit University Library

حق (أي يجب الا يحفر في أرض غيره) . » وكذلك قوله : « ان عادي الارض لله ولرسوله ولكم من بعد فمن احيا شيئا من موتان الارض فهو احق به . » (القرشي ص ٦٠ — ٦٢) .

وهذه النقطة الاخيرة تتضمن ما أقره الرسول من أن الدولة هي المالك الاول في الاسلام حتى بالنسبة لتمليك الذين يحيون الارض الموات وبالنسبة للاراضي العشرية أيضا . وعلى الرغم من أن عمر قد أقر ملكية الاراضي الموات التي كانت تستصلح ، الا ان مفهوم الحق الاول للدولة في التملك بقي الاساس الذي انطلق منه في سياسته . وهذا على ما يبدو هو مظهر التضارب في الروايات التي تنسب له تلك السياسة . فقد روي عنه أنه قال : « من احيا مواتا فهو أحق به . » والقرشي الذي يورد هذه الرواية يضيف اليها تفسيرا من عنده لسياسة عمر هذه : « واحياء الارض ان يستخرج منها عينا أو قليبا أو يسوق اليها الماء وهي أرض لم تزرع ولم تكن في يد أحد قبله يزرعها أو يستخرجها حتى تصلح للزرع فهذه لصاحبها ابدا لا تخرج من ملكه وأن عطلها بعد ذلك لان الرسول صلعم قال من أحيى أرضا فهي له فهذا اذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها للناس فان مات فهي لورثته وله أن يبيعها من يشاء . » (القرشي ، ص ٦٥) .

ولعل التردد والتناقض في سياسة عمر تجاه الملكية الفردية على الارض ومحاولته الحد من انتشارها وتثبيت ملكية الدولة نبع فيما نبع عنه عن قيام الرسول باقطاع أراضي الموات كأراضي عشرية من قبله . لذلك فعلى الرغم من اقراره بمبدأ تمليك من كان يحيي الارض الموات فانه كان قد روي عنه أيضا قوله : « من عطل أرضا ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له . » (نفس المصدر) . وكذلك موقفه من أراض كان الرسول قد اقطعها

Digitized by Birzeit University Library

لبني مزينة وجهينة فعطلوها ثلاث سنين ثم جاء من أحياها من غيرهم وادعى حق ملكيتها فقال عمر : « لو كانت مني أو من أبي بكر لرددتها ولكنها قطيعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين فلم يعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها . » (ابو يوسف ، ص ٦١) . ولعل أكثر ما يوضح موقف عمر من مسألة حق الملكية هو الرواية التالية التي ينقلها القرشي : « جاء بلال بن الحارث المزني الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقطعه أرضا فأقطعها له طويلة عريضة . فلما ولي عمر قال له : يا بلال انك استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضا طويلة عريضة فقطعها لك وان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يمنع شيئا يسئله وانت لا تطيق ما في يديك . فقال : أجل . فقال : انظر ما قويت عليه فامسكه وما لم تطق وما لم تقو عليه فادفعه نقسمه بين المسلمين . فقال : لا افعل والله شيئا أقطعنيه رسول الله صلعم فقال عمر والله لتفعلن فأخذ منه ما عجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين . » (القرشي ، ص ٦٧) .

واذا كانت كل هذه الروايات تجمع على أن الرسول والخليفتين من بعد قد ترددا في تقرير حق الملكية الفردية على الفرد للاسباب السياسية والاقتصادية التي وقفنا عليها ، فانه من الواضح أنهم قاموا باقطاع الاراضي الخراجية على نطاق واسع داخل الجزيرة العربية وبشكل محدود خارجها ايضا . فالرسول قد اقطع الجرف من اراضي النضير للزبير بن العوام ، كما أقطع بلالا معادن بناحية الفرع ويقال انه اقطعه العقيق بأكمله ، واقطع ابا بكر وعمر اراض بالمدينة كما اقطع بعض الصحابة اراض بالشام قبل فتحها ايضا . (المقريزي ، ج١ ص ١٥٥) . كما اقطع ابو بكر الزبير بن العوام اراض ما بين الجرف

Digitized by Birzeit University Library

وقناة (البلاذري ، ج١ ص ١٣) . أما عمر فقطع لعدة من الصحابة منهم عبد الله بن مسعود وسعد يعطيان ارضهما بالثلث والربع » (أبو يوسف ، ص ٦٢) . وفي روايات اخرى أن عمر اقطع عليا بن أبي طالب ينبع واقطع اسامة ابن زيد وخباب والزبير وغيرهم من الصحابة ايضا .

وهذه النقطة هامة جدا بالنسبة لدراسة حقيقة جذور الفتنة على عثمان . فالرسول والخليفتين من بعده قد اقطعوا الكثير من الاراضي قبل عثمان . وعثمان لم يستحدث ظاهرة الاقطاع في الاسلام . ومع أن الاقطاع قبل عثمان اتخذ صبغة التمليك وانحصر داخل الجزيرة العربية ، وعلى الرغم من أن ذلك قد تماشى مع سياسة عمر في الحفاظ على وحدة الدولة الاسلامية وكون العرب نخبتها العسكرية المقاتلة فان الضغوط التي واجهها هذا الاخير باتجاه اقرار التمليك الفردي تدل على أن عثمان قد شكل استمرارا للتطور الذي ورثه عن اسلافه فقط . كما أن بعض الروايات المتفرقة تشير الى أن عمر لم يستطع الوقوف بشكل مطلق أمام الضغوط التي واجهها بسبب ذلك التطور . فأبو يوسف يورد رواية تشير الى بعض الحالات النادرة التي اقطع فيها عمر خارج حدود الجزيرة والتي شكلت سابقة أيام عثمان بن عفان . يقول أبو يوسف : « وكتب عمر بن الخطاب الى ابي موسى الاشعري : ان ابا عبد الله سألني أرضا على شاطىء دجلة يقتلي فيها خيله . فان كانت ليس من أرض الجزية (اي ليست خراجية) ولا يجري اليها ماء الجزية فأعطها اياه . » (أبو يوسف ، ص ٥٧) . كما يذكر المقريزي أن عمر اقطع أرض منية الاصبغ بمصر لابن سندر الذي باعها ورثته فيما بعد للاصبغ بن عبد العزيز ابن مروان . (المقريزي ، ج١ ص ١٥٥ — ١٥٦) . كما يؤكد القرشي على أن عليا اتبع نفس سياسة عمر : « ولا نعلم عليا خالف عمر ولا غير شيئا مما صنع حين قدم الكوفة » . كما يروى عنه انه قال لاهل نجران الذين وفدوا

Digitized by Birzeit University Library

عليه يطالبونه بالسماح لهم بالعودة بعد ان أجلاهم عمر : « ان عمر كان رشيد الامـــر ولن أغير شيئا صنعه عمر » ، وقوله حين دخل الكوفة : « ما كنت لاحل عقدة شدها عمر » . (القرشي ، ص ٩) .

واهمية هذه القضايا تكمن في كونها تشكل مدخلا هاما للصراعات الاجتماعية والسياسية التي انفجرت أيام الفتنة على عثمان . كما أن سياسة عمر تجاه الاراضي الخراجية التي نبعت عن مفهوم السلطة وملكية الدولة في الاسلام تشكل أحد المداخل الهامة لدراسة تطور العلاقات العقارية في صدر الاسلام . وبسبب هذه السياسة فاننا نجد أن المسلمين لم يميلوا زمن عمر الى شراء الاراضي الخراجية لانه في حالة شرائها فان المسلم كان يؤدي عليها خراجها بالاضافة الى زكاة محصولها . ولعل سياسة عمر في اقرار الخراج على الارض كملك مطلق للدولة كانت السبب في ذلك . وذلك لان من اسلم من الموالي الذين افتتحت أرضهم بعد قتال وجعلت فيئا كانت تسقط عنه الجزية ويبقى الخراج على الارض . ومما يدل على ذلك قول عمر لعتبة بن فرقد حين اشترى أرض خراج « أد عنها ما كانت تؤدي » . (القرشي ، ص ١٠) كما يورد القرشي رواية أخرى تؤكد على تلك السياسة أيضا : « جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : اني قد أسلمت فضع عن أرضي الخراج . قال : لا ، ان أرضك قد اخذت عنوة » (نفس المصدر ، ص ٣٧) .

لذلك نجد أن المسلمين في فترة عمر يميلون الى شراء الاراضي التي صولح عيها اهها لانها تتحول الى اراض عشرية « الا أن تكون أرضا قد صولح عليها اهلها على أن يوضع الخراج عليها . » ، كما انهم لم يستحسنوا شراء اراض اعتبرت أن فتحها قد تم عنوة لنفس السبب . وما يؤكد على أن ذلك كان جزءا من سياسة عمر قوله : « لا تشتروا من عقار اهل الذمة ولا من بلادهم شيئا » وقوله : « لا ينبغي

Digitized by Birzeit University Library

لمسلم أن يقر بالصغار في عنقه . » (نفس المصدر ، ص ٣٩) . ولنفس السبب ايضا فاننا نرى ان الصحابة كانوا يشترطون على دهاقين الفرس ذوي الاراضي الخراجية ان يتكفلوا بدفع خراج الارض كشرط منهم لشراءها . يقول القرشي : « جاء دهقان الى عبد الله بن مسعود فقال : اشتر مني أرضي فقال عبد الله : على ان تكفيني خراجها ، قال : نعم ، فاشتراها منه . » (القرشي ، ص ٣٩) .

كما يروى عن علي بن أبي طالب ايضا انه « كان يكره أن يشترى من أرض الخراج شيئا ويقول : عليها خراج المسلمين » . ولعل هذا الحضر وتشدد الخلفاء في منع مثل ذلك الشراء واصرارهم على ابقاء الخراج على الارض حتى بعد بيعها للمسلم نبع عن محاولتهم منع تحول الارض الخراجية الى عشرية ، الامر الذي لم يكن يضر بميزانية الدولة بل ويناقض مفهوم السلطة ومهامها في الاسلام ايضا.

غير أن سياسة مركزة السلطة هذه التي وقفنا على ابعادها بالنسبة لمسألة الاقطاع وعلاقات الملكية ونظرة عمر الى مسألة الفتح في الاسلام والتي سنقف على جوانب اخرى منها حملت بين طياتها بذور التذمر والضغوط باتجاه توزيع الاراضي وقسمتها الامر الذي كانت عواقبه وخيمة زمن عثمان وذلك على خلفية انتقال مركز الثقل السياسي والعسكري بهجرة القبائل العربية الى أطراف الجزيرة كما سنرى . فعثمان لم يستحدث مسألة الاقطاع خارج حدود الجزيرة بل شكل استمرارا لقوة دفع عجلة التطور بذلك الاتجاه فقط . وفي راي المقريزي : « اقطع الزبير وخباب وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وابن هبار أزمان عثمان ، فان يكن عثمان اخطأ فالذين قبلوا منه الخطأ اخطأوا وهم الذين أخذنا عنهم ديننا . » ثم انه اذا كان عثمان قد شكل ضحية لحتمية سير ذلك التطور بالاتجاه الذي وقفنا عليه ، فان ذلك التطور يرتبط بصلب المفهوم الاسلامي لمسألة الملكية والسلطة والعلاقة بينهما كما رأينا .

Digitized by Birzeit University Library

وقبل أن ننتقل من سياسة الضرائب لدى عمر وأثرها على ملكية الاراضي في صدر الاسلام تجدر الاشارة الى أن هذه السياسة أتاحت لكبار الملاكين من دهاقين الفرس الاحتفاظ بأراضيهم . فهؤلاء كانت تسقط عنهم الجزية وتبقى أراضيهم خراجية بعد اسلامهم . يقول البلاذري : « فأسلم جميل بن بصبهري دهقان الفلاليج والنهرين وبسطام بن نرسي دهقان بابل وخطرينه والرفيل دهقان العال وفيروز دهقان نهر الملك وكوثى وغيرهم من الدهاقين . فلم يعرض لهم عمر بن الخطاب ولم يخرج الارض من أيديهم وأزال الجزية عن رقابهم . » (البلاذري ، ج٢ ص ٣٢٥) .

وبالنسبة لحق الدولة في ملكية الارض فان أكثر ما تجسد هذا الحق كان فيما عرف بأراضي الصوافي . ولعل جذور ظاهرة قيام اصطفاء الامام في الاسلام لبعض ما يقع في حوزة المسلمين عند الفتح تعود الى ظاهرة الصفي زمن الرسول . وقد كان الرسول يصطفي لنفسه ما يشاء بعد كل فتح وقبل قسمة الغنائم . وأبو يوسف يؤكد على أن دخل الرسول من الغنيمة كان يأتي من ثلاثة وجوه : « في القسمة الصفي ، وسهمه مع المسلمين في الاربعة الاخماس، وما جعله الله له من الخمس . » (أبو يوسف ، ص ٢٣) . هكذا اصطفى صفية بنت حيي يوم خيبر وسيف عاصم بن منبه يوم بدر الخ .. .

وحول ما اصطفاه عمر بن الخطاب من أراضي السواد يقول البلاذري : « اصطفى عمر بن الخطاب من السواد أرض من قتل في الحرب وأرض من هرب وكل أرض كسرى وكل أرض لاهل بيته وكل مغيض ماء وكل دير يزيد وكل صافية اصطفاها كسرى . فبلغت صوافيه سبعة الاف الف درهم . » (البلاذري ج٢ ص ٣٣٤) . وقد اعتبر عمر هذه الاراضي ملكا للدولة يتولى الامام زراعتها ويجمع محصولها فينفقه في الاعطيات والنفقات . ويضيف المقريزي:

Digitized by Birzeit University Library

« ثم ان عثمان رضي الله عنه اقطعها لانه راى اقطاعها أوفر لغلتها من تعطيلها وشرط على من اقطعها ان يأخذ منه حق الفيىء (اي الخراج) فكان مبلغ غلته خمسين الف الف درهم كان منها صلاته وعطاياه ثم تناقلها الخلفاء من بعده ... » (المقريزي ، ج١ ص ١٥٥) .

وتجمع الروايات على ان اقطاع عثمان اراضي الصوافي قد زاد من مدخول الدولة منها ، كما انه جاء في وقت اصبح فيها الاقطاع ظاهرة منتشرة . غير ان المهم بالنسبة لنا هو كون هذه الاراضي ملكا موقوفا للدولة . يقول القرشي : « وان شاء (الذمي) تركها (اي الارض) فقبضها الامام للمسلمين مع ما في يديه مما كان في اهل فارس ومن قتل منهم في الحرب ومن هرب وترك ارضه وكل ارض لم يكن فيها احد يمسح عليه ولم يوضع فيها الخراج ... فذلك للمسلمين وهو الى الامام ان شاء اقام فيها من يعمرها ويؤدي الى بيت مال المسلمين عنها شيئا ويكون الفضلة له وان شاء أنفق عليها من بيت مال المسلمين واستأجر من يقوم فيها ويكون فضلها للمسلمين وان شاء اقطعها رجلا ممن له غناء من المسلمين . » (القرشي ، ص ٨) .

أما بالنسبة لمقدار ضريبة الخراج فان تعدد الروايات واختلاف العملات والمقاييس من بلد الى بلد يسبب بعض الصعوبة والاضطراب في محاولة تحديده خاصة في فترة الفتوحات الاولى . ويجمل البلاذري هذه الروايات والمعلومات الواردة فيها كالاتي : « قالوا : ارسل عمر بن الخطاب عثمان بن حنيف الانصاري فمسح السواد وجعل على جريب النخل عشرة دراهم ، وعلى جريب الكرم عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب البر اربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين . » (البلاذري، ص ٣٣٠) . ومن ناحية اخرى فهو يورد روايات اخرى تؤكد على أنه وضع على جريب النخل ثمانية دراهم وليس عشرة . كما ان المعلومات الواردة في المراجع الاخرى تختلف

Digitized by Birzeit University Library

حول نـوع المحاصيل التي فرض عليها الخراج . فبينما احدها يذكر انه فرض على جريب القطن خمسة دراهم نجد ان الاخر لا يذكر القطن ابدا (نفس المصدر ص ٣٣١) .

اما بالنسبة لمصر فيروي البلاذري ان عمرو بن العاص وضع دينارا وثلاثة اراديب طعاما كخراج على كل جريب — دون أن يعطي أية تفاصيل حول اختلاف الخراج باختلاف المحاصيل (ج١ ص ٢٥٢) . والروايات التي يوردها أبو يوسف تزيد الامر التباسا لكون الخراج قد جمع عينا في بعض الاحيان وبمكاييل وموازين اختلفت من مكان الى آخر (أبو يوسف ، ص ٣٦) .

اما الاضطراب في مقادير الجزية التي فرضت على اهل الذمة فقد كان اشد من ذلك بكثير خاصة بالنسبة لما صالح عليه قادة الفتح المختلفين كل في ناحيته . ويذكر البلاذري أن اهل بصرى ومآب قد صالحوا زمن ابي بكر « على كل حالم دينار وجريب حنطة . » (ج١ ص ١٣٤) . كما يورد رواية اخرى تذكر ان الجزية التي فرضها يزيد بن ابي سفيان في الاردن وفلسطين كانت تتراوح بين دينارين وخمسة . (البلاذري ، ج١ ص ١٨٧) . اما عمرو بن العاص فقد فرض الجزية في مصر على كل رجـل دينارين في البداية — الامر الذي تجمع عليه كافة الروايات تقريبا . (راجع المقريزي ، الخطط ج١ ص ١٢٢ ، ١٥٩) . وبالنسبـة لخالد بن الوليد فيذكر البلاذري انه صالح اهل دمشق بفرضه الجزية « على كل رجل منهم دينارا وجريب حنطة وخـلا وزيتا لقوت المسلمين » (البلاذري ، ج١ ص ١٤٨) . كما يذكر في رواية أخرى أن الجزية التي صالح خالد اهل الحيرة عليها كانت اربعة عشر درهما وزن خمسة الامـر الذي يزيد من صعوبة توحيـد مقادير الجزية بين بلـد واخرى بسبب اختلاف الموازين والعملات المتداولة فيها . والصورة التي ينقلها البلاذري هي كالتالي : « عن يحيى ابن آدم قال : سمعت ان اهل الحيرة كانوا ستة آلاف

Digitized by Birzeit University Library

رجل . فالزم كل رجل منهم اربعة عشر درهما وزن خمسة ، فبلغ ذلك اربعة وثمانون الفا وزن خمسة ، تكون ستين الفا وزن سبعة ، وكتب لهم بذلك كتابا قد قراته . » . واخيرا ، فقد كانت الجزية التي فرضها عياض بن غنم على منطقة الجزيرة : على كل رجل دينار واحد ، « ووظف عليهم مع الدينار اقفزة من قمح وشيئا من زيت وخل وعسل . » (البلاذري ، ج١ ص ٢٠٥) . كما يذكر البلاذري ايضا ان الجزية التي فرضها ابو عبيدة على اهل حلب كانت « على كل حالم دينارا وجريبا » (نفس المصدر ص ١٧٤) .

وعلى الرغم من هذا الاضطراب الذي ميز الجباية الاسلامية بشكل عام في البداية فقد باشر عمر بن الخطاب بوضع نظام موحد لها . وتشير المراجع المختلفة الى ان الجزية قد استقرت نهائيا على اربعة دنانير او اربعين درهما على كل رجل كحد اقصى وان عمر « جعلهم طبقات لغنى الغني واقلال المقل وتوسط المتوسط » . وبالاضافة الى هذا المبلغ كانت الجزية تجبى عينا ايضا . يقول البلاذري : « ان عمر كتب الى امراء الاجناد يأمرهم ان يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى وان يجعلوها على اهل الورق على كل رجل اربعين درهما وعلى اهل الذهب اربعة دنانير وعليهم من ارزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان حنطة وثلاثة اقساط زيت كل شهر لكل انسان بالشام والجزيرة ، وجعل عليهم ودكا وعسلا لا ادري كم هو ، وجعل لكل انسان بمصر في كل شهر اردبا وكسوة وضيافة ثلاثة ايام (للمسلمين وجندهم) . » (البلاذري ، ج١ ص ١٤٨) .

وهنالك بعض الروايات المتفرقة التي تشير الى ان اهل الذمة كانوا في بعض الاحيان يدفعون بأولادهم كجزية . ويروي البلاذري مثلا « عن عبد الله بن هبيرة قال : لما فتح

Digitized by Birzeit University Library

عمرو بن العاص الاسكندرية سار في جنده يريد المغرب حتى قدم برقة وهي مدينة اطرابلس ، فصالح اهلها على الجزية وهي (بمجموع) ثلاثة عشر الف دينار يبيعون فيها من ابنائهم من احبوا بيعه . » وكذلك هو يروي « عن يزيد بن ابي حبيب ان عمرو بن العاص كتب في شرطه على اهل لواثة من البربر من اهل برقة : ان عليكم ان تبيعوا ابناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية . » (البلاذري ، ج١ ص ٢٦٤ — ٢٦٥) .

واذا كانت الجزية علامة خضوع خاصة بمن لم يقبل الاسلام من سكان البلدان المحتلة وتأتي للتمييز بينهم وبين المسلمين فقد ظهرت ايام عمر بن الخطاب بعض الصعوبات في فرض الجزية على نصارى القبائل العربية وخاصة من بني تغلب . وهذه الصعوبات يجب أن تفهم على خلفية المد القبلي العام ورفض بني تغلب دفع الجزية لكونها تناقض استقلالهم القبلي . وتجمع الروايات المختلفة على أن عمر ابن الخطاب لما استشار الصحابة في جزية بني تغلب قال له زرعة بن النعمان : « انشدك الله في بني تغلب فانهم قوم من العرب يأنفون من الجزية ، وهم قوم شديدة نكايتهم فلا تعن عدوك عليك بهم . » (البلاذري ، ص ٢١٧) . اذاك وافق عمر على اعفائهم من الجزية وفرض على ارضهم وماشيتهم ضعف ما على مثلها من اموال المسلمين من الزكاة . يقول البلاذري « عن الزهري قال : ليس في مواشي اهل الكتاب صدقة الا نصارى بني تغلب ، او قال نصارى العرب ، الذين عامة اموالهم المواشي ، فان عليهم ضعف ما على المسلمين . » (نفس المصدر) . كما اعتبر فقهاء الاسلام تلك الصدقة المضاعفة خراجا وليس جزية . لذلك فاذا اشترى المسلم ارضا كانت لاحد نصارى تغلب فانه يدفع زكاة مضاعفة عن محصولها ، كما ان الزكاة كانت تضاعف على التغلبي اذا اشترى ارضا عشرية . (راجع القرشي ، ص ١٢) .

Digitized by Birzeit University Library

وفي فترة خلافة عمر بن الخطاب وضعت الاسس الاولى لنظام الضرائب على التجارة (التي كانت تسمى العشور) ايضا . وتجمع الروايات على أن هذه العشور بلغت كالتالي : ربع عشر القيمة على تجارة المسلم ، ونصف العشر على تجارة الذمي والعشر على تجارة من دخل الدولة الاسلامية من اهل الحرب . كما تعين ان لا تعشر البضائع التي تبلغ قيمتها اقل من مائتي درهم (او عشرين مثقال ذهبا — مما يدل على أن مثقال الذهب الواحد كان يساوي عشرة دراهم انذاك — راجع ابا يوسف، ص ١٣٤ — ١٣٥ وكذلك انظمة الجزية المذكورة اعلاه .)

والظاهر أن انظمة الضرائب على التجارة لم تستقر بهذا الشكل النهائي الا بعد مضي فترة معينة تماما كما راينا بالنسبة للجزية . فالقرشي يورد في نهاية الكتاب الذي يذكر أن عمر بن الخطاب أرسله الى سعد بن ابي وقاص قوله : « ولا عشور على مسلم ولا على صاحب ذمة اذا ادى المسلم زكاة ماله وادى صاحب الذمة جزيته التي صالح عليها . انما العشور على اهل الحرب الذين اذا استأذنوا أن يتجروا في أرضنا فأولئك عليهم العشور . » (القرشي ، ص ٣٢) . أما الصيغة النهائية لتحديد عمر مقدار تلك العشور فقد وردت في كتابه الى ابي موسى الاشعري واليه على البصرة . يقول القرشي : « كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى ابي موسى الاشعري ان خذ من تجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم وما زاد على المائتين فمن كل اربعين درهما درهم ومن تجار اهل الخراج (اي الذمة) نصف العشر ومن تجار المشركين ممن لا يؤدي الخراج (اهل الحرب) العشر قال يعني اهل الحرب . » (القرشي ، ص ١٢٦) . وفي رواية اخرى للقرشي ان عبد الله بن عتبة « كان يأخذ من اهل الذمة انصاف عشور اموالهم فيما تجروا فيه » (ص ٤٩) . واذا كانت تجارتهم الخمر يضاعف ما يؤخذ منهم الى العشر . أما الابل والبقر

Digitized by Birzeit University Library

والغنم والمتاع الذي لهم وليس لهدف التجارة فلا يؤخذ عنه شيء ، الامر الذي يؤكد ايضا ما اشرنا اليه سابقا من أنه لم يفرض على مواشي اهل الذمة شيء سوى سائمة بني تغلب الذين دفعوا عنها الصدقة مضاعفة بدل الجزية .
(نفس المصدر ، ص ٤٩ — ٥٠) .

Digitized by Birzeit University Library

اختلال التوازن ــ الفتنة على عثمان والصراع بين علي ومعاوية :

اذا كانت أنظمة الضرائب ، (الخراج والجزية والعشور) ، تجسد سياسة المفهوم الهرمي للسلطة المركزية لدى عمر بن الخطاب التي انطلقت من مبدأ تمييز المسلمين عن اهل الشرك ، والعرب عن بقية المسلمين ، والمهاجرين والانصار عن هؤلاء وأولئك ، فان أكثر ما تجسد ذلك المفهوم كان في السياسة ألتي اتبعها عندما وضع دواوين (سجلات) الجند والاعطيات .

ومع اختلاف الروايات وتعددها فانها تشير الى ان أبا بكر قد واجه ، خلال فترة خلافته القصيرة بعض الضغوط باتجاه انتهاج سياسة مفاضلة بين المسلمين في الاعطيات . يقول أبو يوسف : « وبقيت بقية من المال فقسمها بين الناس بالسوية على الصغير والكبير ، والحر والمملوك ، والذكر والانثى ، فخرج على سبعة دراهم وثلث لكل انسان . فلما كان العام المقبل جاء مال كثير هو أكثر من ذلك فقسمه بين الناس فأصاب كل انسان عشرين درهما . قال (صاحب الرواية) : فجاء ناس من المسلمين فقالوا : يا خليفة رسول الله ، انك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ، ومن الناس الناس لهم فضل وسوابق وقدم . فلو فضلت اهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم ، قال : أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفني بذلك . وانما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه وهذا معاش فالاسوة فيه خير من الاثرة . » (كتاب الخراج ، ص ٤٢) .

وبالنسبة لعمر بن الخطاب ، فأبو يوسف يشير في موضع آخر من كتابه (ص ٢٤) الى أن عمر « اتبع رأي أبي بكر في التسوية بين الناس » حتى افتتح العراق وقدم

Digitized by Birzeit University Library

عليه جند القادسية : « فلما جاء فتح العراق شاور الناس في التفضيل ، ورأى انه الراي ، فأشار بذلك من رآه . » ومع أنه من الصعب الوقوف على السبب المباشر الذي اتبع عمر من أجله تلك السياسة الجديدة ، فاننا نستطيع القول بأنه رأى فيها تجسيدا للاسس التي وضعها أبو بكر يوم السقيفة . وعلى الرغم مما روي عنه أنه قال : « والله الذي لا اله الا هو ما احد الا وله في هذا المال حق أعطيه أو منعه ، وما احد أحق به من أحد الا عبد مملوك ، وما انا فيه الا كأحدكم ... » الا انه استدرك بعد ذلك فقال : « ... ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالرجل وتلاده في الاسلام ، والرجل وقدمه في الاسلام والرجل وغناه في الاسلام والرجل وحاجته في الاسلام . » (أبو يوسف ص ٤٦) . وفي رواية أخرى أنه قال : « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه . ففرض لاهل السوابق والقدم من المهاجرين والانصار ممن شهد بدرا خمسة الاف خمسة الاف (في العام) .. » ، ولمن أسلم بعد بدر حتى الحديبية أربعة الاف ، ولمن أسلم بعد الحديبية حتى نهاية حروب الردة ثلاثة الاف ، ولمن أسلم بعد الردة حتى القادسية واليرموك الفين ، ولمن أسلم بعد ذلك الف درهم في العام . (أبو يوسف ، ص ٤٢ ، كذلك راجع ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، ص ٢٣ — ٢٤) .

وقبل أن ننتهي من هذه النقطة لا بد من التأكيد على أنه نتيجة لسياسة عمر هذه في المفاضلة بموجب المنزلة من الكتاب والقسم من الرسول والسوابق والفضل التي نبعت عن روح يوم السقيفة وتمشت معها فقد وضع المهاجرون والانصار وعامة المكيين والمدنيين في المراتب الثلاث الاولى بينما وجد عامة العرب انفسهم في المرتبتين الاخيرتين .

Digitized by Birzeit University Library

ولكي نستطيع الوقوف على أبعاد وخطورة سياسة المفاضلة هذه وأهميتها بالنسبة لمحاولة تقصي جذور الفتنة على عثمان لا بد لنا من تقييمها على خلفية طابع المد القبلي الذي اتسمت به الفتوحات الاسلامية والموقع القيادي الذي كان للمهاجرين والانصار بشكل عام ولقريش بشكل خاص في امارة الجيوش وولاية الامصار والذي نبع عن مبدأ الحفاظ على مركزية السلطة في الاسلام في حدود توازن النقائض التاريخي الذي وقفنا عليه .

فنظرة سريعة الى قادة الفتح الاسلامي (كخالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وعمرو ابن العاص ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة) من ناحية والى طابع المد والغزو القبليين اللذين ميزا الفتوحات الاسلامية وموجة الهجرة والاستيطان العربيين على أطراف الجزيرة تكفي لان توضح لنا الخطورة الكامنة في مبدأ الحفاظ على مركزية السلطة في حدود ذلك التوازن . وسياسة المفاضلة التي انطلقت من ذلك المبدأ لم تنحصر في مسألة الاعطيات فقط بل أصبحت تعني ان يتولى القرشيون مراكز الصدارة والنفوذ الاقتصادية والسياسية في الدولة الاسلامية أيضا . كما أن بناء أنظمة الجزية والخراج بموجب ذلك المبدأ كان يعني ذهاب وارد الامصار الى المدينة ومكة حيث يوزع من هناك على شكل اعطيات تميز المكيين والمدنيين عن أهالي الامصار الذين أصبحوا يشكلون مركز الثقل السياسي والعسكري الجديد بسبب الطابع القبلي للفتوحات والهجرة الاسلامية .

لنبدأ أولا بكيفية تجسيد تلك السياسة على مستوى ولاية المكيين والمدنيين للامصار . هنا رأينا مدى الضغوط التي تعرض لها عمر عند توليته أبا عبيد الثقفي على « المهاجرين والانصار » وتراجعه أمام تلك الضغوط عندما أمر أبا عبيد « أن لا يقطع أمرا » دون الرجوع الى اثنين من أهل بدر . والمتتبع لسياسة تعيين قادة الفتح وولاة

Digitized by Birzeit University Library

الامصار زمن عمر بن الخطاب لا يستطيع الا الوقوف على روح تلك المفاضلة . وتشير احدى الروايات الى أن عتبة ابن غزوان السلمي (حليف نوفل بن عبد مناف) الذي فتح الابله واختط البصرة ، ولى مجاشعا بن مسعود على هذه الاخيرة قبل قدومه على عمر . فقال له عمر : « لعمري لاهل المدر كانوا أولى بأن يستعملوا من اهل الوبر . ثم كتب الى المغيرة (بن شعبه) بعهده على البصرة . » (البلاذري ، ج٢ ص ٤٢٢) . كما يذكر البلاذري أن أبا سفيان شكر عمر بن الخطاب حين ولى معاوية على جند الشام مكان اخيه يزيد قائلا : « وصلتك يا أمير المؤمنين رحم . » (ج١ ص ١٦٧) .

هنا يجدر بنا التوقف قليلا . فسياسة أبي بكر وعمر في تولية زعامة قريش مقاليد القيادة والسلطة حتمت أن يستعيد هؤلاء نفوذهم ويسيطرون تدريجيا على جهاز السلطة في الدولة الاسلامية . كما أن سياسة الاقطاعات والمفاضلة في الاعطيات مكنت هؤلاء من توسيع نفوذهم الاقتصادي أيضا كما سنرى . غير أن هذه السياسة لم تكن تعني أن ابا بكر وعمر لم يكونا على جانب من الزهد والورع في مسلكهما الشخصي . وكل ما يعنيه ذلك هو انهما شكلا امتدادا لسياسة الرسول في المحافظة على قريش التاريخية كقوة وحيدة تستطيع الوقوف أمام تصاعد قوة الانصار من ناحية والسيطرة على الجزيرة العربية واخضاعها من الناحية الاخرى . واستبعاد آل هاشم عن مراكز السلطة والنفوذ في جهاز الدولة من ناحية واختيار الشورى لعثمان خليفة من الناحية الاخرى تحتم عن توازن النقائض هذا ، وذلك على الرغم من أن عليا كان أقرب بزهده وورعه الشخصيين الى عمر وأبي بكر .

ولعل حتمية هذا التطور ، الذي شكل مصير علي والهاشميين المأساوي نتيجة حتمية له ، والذي شكلت تولية عثمان لاقاربه واعتماده عليهم أحد امتداداته الحتمية لكون

Digitized by Birzeit University Library

اختيار الشورى له لم يولد قناعات ثابتة ونهائية لدى الصحابة ، تتجسد في الخطبة التي القاها عتبة بن غزوان السلمي بعد فتحه الابله : « ولقد رايتني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لنا طعام الا ورق الشجر حتى قرحت اشداقنا ، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فأتزرت بنصفها واتزر بنصفها ، فما أصبح اليوم أحد منا حيا الا أصبح اميرا على مصر من الامصار . واني أعوذ بالله من ان اكون في نفسي عظيما وعند الله صغيرا . وانها لم تكن نبوة قط الا تناسخت حتى تكون عاقبتها ملكا ، وستخبرون الامراء بعدي فتعرفون وتنكرون . » (البيان والتبيين ، ج٢ ص ٦٩) .

ولم يعش عتبة ليرى كيف تحققت توقعاته ومخاوفه . غير اننا نستطيع القول أن ابا بكر وعمر كانا يدركان حتمية هذا التطور بمتناقضاته ومخاطره ويعيشان تلك التناقضات بشكل مأساوي . الامر الذي يتضح من قراءة وصية ابي بكر لعمر حين اوصى له بالخلافة : « .. واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين قد انتفخت اجوافهم وطمحت ابصارهم واحب كل امرىء لنفسه وان لهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فاياك ان تكونه . » (ابو يوسف ، ص ١١ — ١٢) .

ولعل اكبر دليل على كون عمر الذي عرف بزهده وتقواه قد عاش مأساة التطور الذي حتمه توازن — النقائض التاريخي يكمن في الرواية التالية التي يوردها البلاذري عن ابن سيرين « عن ابي هريرة انه لما قدم من البحرين قال له عمر : يا عدو الله وعدو كتابه ! اسرقت مال الله ؟ قال : لست عدو الله ولا عدو كتابه ولكني عدو من عاداهما ؛ ولم أسرق مال الله . قال : فمن اين اجتمعت لك عشرة الاف درهم ؟ قال : خيل تناسلت ، وعطاء تلاحق ، وسهام اجتمعت . فقبضها منه . » (البلاذري ، ج١ ص ١٠١) .

Digitized by Birzeit University Library

غير أن ما حتمه نجاح الدعوة الاسلامية في الابقاء على قريش كنواتها وعلى العرب كمادة الاسلام ، وما اقتضاه ذلك من القيام بمركزة السلطة في الدولة الاسلامية حول هذه المحاور ، (الامر الذي ميز سياسة عمر في الاقطاعات وعقد الالوية والاعطيات والانظمة الادارية ومفهوم الملكية الخ ...) يفسر ما خشي عتبة بن غزوان السلمي أن يحدث من ناحية وما حملته الفتوحات في طياتها من تطورات حتمية. والصورة التالية التي يوردها المسعودي على لسان عبد الله بن عتبة توضح ذلك : « وذكر عبد الله بن عتبة أن عثمان يوم قتل كان عند خازنه من المال خمسون ومائة الف دينار والف الف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة الف دينار وخلف خيلا كثيرة وابلا . وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور منهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمئة (السنة التي كتب فيها المسعودي) تنزلها التجار وارباب الاموال واصحاب الجهات من البحرين وغيرهم . وابتنى دورا بمصر والكوفة والاسكندرية وما ذكر من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول الى هذه الغاية . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار وخلف الزبير الف فرس والف عبد والف امة وخططا بحيث ذكرنا من الامصار . وكذلك طلحة بن عبد الله التيمي ابتنى داره بالكوفة المشهورة به في هذا الوقت المعروفة بالكناس بدار الطلحيين وكانت غلته من العراق كل يوم الف دينار وقيل اكثر من ذلك ، وبناحية السراة اكثر مما ذكرنا . وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج. وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ابتنى داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس وله الف بعير وعشرة الاف من الغنم وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله اربعة وثمانين الفا . وابتنى سعد بن ابي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها ووسع فضاءها وجعل اعلاها شرفات . وقد ذكر سعيد بن

Digitized by Birzeit University Library

المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع بقيمة مائة الف دينار . وابتنى المقداد داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل اعلاها شرفات وجعلها مجصصة الظاهر والباطن . ومات يعلى ابن منبه وخلف خمسمائة الف دينار وديونا على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة الف دينار وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه .. » (المسعودي ، ج١ ص ٤٣٣ — ٤٣٤) .

غير أن ما يهمنا هنا هو أن مركزة السلطة السياسية التي قام بها عمر لمواجهة المد القبلي كانت تعني أن يذهب مدخول الامصار الى المدينة ويوزع من هناك على شكل اعطيات شعر اهل الامصار بأن حقهم فيها مغبون . واذا أضفنا الى تلك المركزة والمفاضلة التي نبعت عن الحاجة في ضبط النقيض القبلي مسألة توازن النقائض داخل نواة الدعوة الاسلامية التي هي مكة والمدينة يتضح عندها كيف أن تلك المركزة كانت تعتمد على تماسك تلك النواة داخليا وان اية صراعات داخلها كانت تجد لها أصداء في الامصار التي اصبحت تشكل بدورها مراكز ثقل سياسية وعسكرية في الدولة الاسلامية تقوم على قوة العنصر القبلي فيها . ولتوضيح هذه النقطة نورد هنا بضعة روايات تبين كيف أن أي خلاف داخل مركز الدولة الاسلامية كان يعكس تذمر الامصار ويغذيه في نفس الوقت وبالعكس . يقول البلاذري: « كان عمر بن الخطاب يكتب أموال عماله اذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذ منهم . فكتب الى عمرو بن العاص : انه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر . فكتب اليه عمرو : ان ارضنا ارض مزدرع ومتجر ، فنحن نصيب فضلا عما نحتاج اليه لنفقتنا . فكتب اليه : اني قد خبرت من عمال السوء ما كفى ، وكتابك الي كتاب من قد أقلقه

Digitized by Birzeit University Library

الاخذ بالحق . وقد سؤت بك ظنا ، وقد وجهت اليك محمد ابن مسلمة ليقاسمك فقاسمه ماله . » (البلاذري ج١ ص ٢٥٧) .

والظاهر أن عمروا تذمر من ذلك . اذ روي أيضا أنه « لما قاسم محمد بن مسلمة عمرو بن العاص قال عمرو : ان زمانا عاملنا فيه ابن حنتمة هذه المعاملة لزمان سوء . لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج . فقال محمد : مه ! لولا زمان ابن حنتمة هذا الذي تكرهه الفيت معتقلا عنزا بفناء بيتك يسرك غرزها ويسوءك بكؤها . قال : أنشدك الله أن لا تخبر عمر بقولي ، فان المجالس بالامانة . قال : لا اذكر شيئا مما جرى بيننا وعمر حي . » (ص ٢٥٨) .

غير ان هذا التذمر لم يعكس الصراعات التقليدية التي كانت بين بطون قريش على السلطة فقط بل قام على قاعدة من تذمر اهالي الامصار بشكل غذى فيه أحدهما الاخر . وتعود جذور هذا التذمر الاخير الى سياسة عمر في المركزة والمفاضلة على الرغم من أنه انتشر بسبب عدم وجود قناعات موحدة داخل المدينة حول خلافة عثمان وفي فترتها . والرواية التالية حول تذمر أهل البصرة أيام عمر وروايات مماثلة حول استياء عمر من الفوضى القبلية في الكوفة تشير إلى ذلك بوضوح . يقول البلاذري : « قدم الاحنف بن قيس على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أهل البصرة . فجعل يسألهم رجلا رجلا والاحنف في ناحية البيت في بت لا يتكلم . فقال له عمر أما لك حاجة ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين . ان مفاتيح الخير بيد الله ، وان اخواننا من أهل الامصار نزلوا منازل الامم الخالية بين المياه العذبة والجنان الملتفة . وانا نزلنا سبخة نشاشة لا يجف ندأها ولا ينبت مرعاها . ناحيتها من قبل المشرق الاجاج ومن قبل المغرب الفلاة . فليس لنا زرع ولا ضرع .

Digitized by Birzeit University Library

تأتينا منافعنا وميراثنا في مثل مرىء النعامة ، يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين . وتخرج المراة لذلك فتربق ولدها كما يربق العنز يخاف بادرة العدو او أكل السبع ، فألا ترفع خسيستنا وتجبر فاقتنا نكن كقوم هلكوا . فألحق عمر ذراري أهل البصرة في العطاء ، وكتب الى أبي موسى يأمره أن يحتفر لهم نهرا . » (البلاذري ، ج٢ ص ٤٣٧) .

وهذا التذمر يصبح خطيرا على خلفية النعرة والتفكك السياسي القبليين الى درجة اننا نجد عمر يشكو من عدم مقدرة ولاته ضبط الكوفيين والسيطرة عليهم . ويروى عنه في ذلك انه قال بعد ان عزل سعدا وعمار بن ياسر بطلب من الكوفيين : « من عذيري من أهل الكوفة ! اذا استعملت عليهم القوي فجروه ، وان وليت عليهم الضعيف حقروه . » (نفس المصدر ، ص ٣٤٣) .

والظاهر أن عمر كان يدرك خطورة انتقال مركز ثقل الدولة الاسلامية السياسي والعسكري الى الامصار على مستقبلها . فقد روي انه قال عندما طعن : « أوصي الخليفة من بعدي بأهل الامصار خيرا ، فانهم جباة المال وغيظ العدو وردىء المسلمين . وان يقسم بينهم فيئهم بالعدل وان لا يحمل من عندهم فضل الا بطيب انفسهم . » (القرشي ، ص ٥٢) .

واذا كان عثمان قد ورث عن سابقيه تذمر الامصار (الذي تعود جذوره الى حروب الردة) من ناحية وصراع التيارات المختلفة داخل نواة الدعوة الاسلامية ، فان ذلك التذمر وتلك الصراعات قد ازدادت حدة زمن خلافته وذلك بورود عاملين اساسيين . الاول : ان مبايعته لم تورث قناعات تامة داخل مركز الدعوة الاسلامية ، لذلك فقد كان من المتوقع أن تنحصر المحافظة على مركزية السلطة ووحدة الدولة الاسلامية في ميله الى الاعتماد على أهله من بني امية أكثر فأكثر ــ ذلك الميل الذي ادى بدوره الى اذكاء تلك

Digitized by Birzeit University Library

الصراعات على مستوى بطون قريش وحول حق الهاشميين في الخلافة بغياب تيار أبي بكر وعمر الوسطيين وعلى مستوى مظاهر البذخ التي نتجت عن تكدس أموال الامصار في مكة والمدينة كوجه آخر لمركزة السلطة فيهما .

واحتجاجات أبي ذر الغفاري وغيره من الصحابة على تلك المظاهر تربط بوضوح بين هذه العوامل المختلفة وتعود بنا الى الجذور الشرعية لمسألة مركزة السلطة في الاسلام والنتائج التي ترتبت عنها على خلفية تذمر الامصار . وذلك يرتبط بدوره بما طرأ من توقف الفتوحات زمن عثمان الامر الذي أدى الى قلة الغنائم من ناحية واستمرار ذهاب خراج الامصار الى المدينة . أما حجة ولاة عثمان فكانت أن المال مال الله أي الدولة في حين رددت الامصار صيحة أبي ذر « المال مال المسلمين » . ولتبيان ذلك نورد الرواية التالية التي ينقلها الدوري عن الطبري : « قال أحدهم يخاطب أبا ذر : يا أبا ذر ، الا تعجب من معاوية أمير الشام يقول ان المال مال الله . الا ان كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويأخذه دونهم . فجاء أبو ذر الى معاوية وقال له : ما يدعوك أن تسمي مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله ، والمال مال الله ، والامر لله ؟ قال : فلا تقله . قال : فاني لا أقول انه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين . » (الدوري ، ص ٥٥) . والرواية التي يوردها المسعودي تؤكد على مدى الخطورة التي كانت لاحتجاجات أبي ذر على ربط عثمان وولاته كون مال الله يعني مال السلطان الذي يتولى تنفيذ شريعته في عباده . اذ هو يذكر كيف أن أبا ذر اعترض على سياسة عثمان عندما سأل الاخير : « أترون بأسا أن نأخذ مالا من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينوبنا من أمورنا ونعطيكموه . » وكان رد عثمان على ذلك الاعتراض أن قال : « ما أكثر اذاك لي . غيب وجهك عني فقد آذيتني . فخرج أبو ذر

Digitized by Birzeit University Library

الى الشام فكتب معاوية الى عثمان ان ابا ذر تجتمع اليه الجموع ولا آمن أن يفسدهم عليك ، فان كان لك في القوم حاجة فاحمله اليك . فكتب اليه عثمان بحمله فحمله ... » (المسعودي ، ج١ ص ٤٣٨) .

وعلى الرغم من نفي ابي ذر الى الربذة فان احتجاجاته على عثمان وولاته لم تلق صداها في الامصار فحسب بل انها وقعت على ارضية من احتداد الصراع حول حق الهاشميين في السلطة الذي اتخذ شكل تذمر بعض الصحابة على تركيز السلطة في ايدي بني امية . ويذكر المسعودي أن عليا واخاه عقيل وابن اخيه عبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر ذهبوا لتشييع ابي ذر عندما نفي من المدينة على الرغم من أن عثمان منع الناس من ذلك . ولما حاول مروان بن الحكم منعهم من ذلك ضرب علي ناقته بالسوط . ثم ان عليا قال عندما بلغه غضب عثمان « غضب الخيل على اللجم » . ولما لامه عثمان على ذلك قال علي : « واما أنا فوالله لئن شتمتني لاشتمنك أنت بمثلها بما لا أكذب ولا أقول الا حقا . قال عثمان : ولم لا يشتمك اذا شتمته ؟ فوالله ما انت عندي بأفضل منه . فغضب علي بن ابي طالب وقال : الي تقول هذا القول وبمروان تعدلني ؟ فأنا والله أفضل منك وابي افضل من أبيك وامي افضل من امك وهذه نبلي قد نثلتها وهلم فاقبل بنبلك . فغضب عثمان واحمر وجهه فقام ودخل داره . » (المسعودي ، ج١ ص ٤٣٩) .

وحتى لو افترضنا ان عليا لم يشترك بشكل فعلي في عملية التحريض على عثمان وسلمنا بصحة الروايات التي تشير الى انه ارسل ولديه للدفاع عنه عندما حوصر في بيته، فان عدم وجود قناعات تامة لدى بعض اعضاء الشورى حول خلافة عثمان واعتماد الاخير كليا على بني امية قد جعل من حق علي في الخلافة نقطة استقطاب لاذكاء الصراعات بين بطون قريش ضد الامويين . والمسعودي الذي كنا قد اشرنا الى روايته حول خطبة عمار بن ياسر والمقداد بن الاسود ضد

Digitized by Birzeit University Library

مبايعة عثمان في المسجد يشير الى التفسخ الذي ولدته تلك المعارضة داخل بطون قريش : « .. وفي الناس بنو زهرة لاجل عبد الله بن مسعود لانه كان من احلافها . وهذيل لانه كان منها . وبنو مخزوم واحلافها لعمار (بن ياسر) . وغفار واحلافها لاجل أبي ذر . وتيم بن مرة مع محمد بن أبي بكر ، وغير هؤلاء ... » (المسعودي ص ٤٤١) .

وربط حق الهاشميين في الخلافة بمسألة الصراع داخل قريش على السلطة يعيدنا الى موقع الامويين داخل الدعوة الاسلامية في حدود توازن النقائض الذي فرضه تحرك الرسول وامتناعه في حينه عن اعتبار نجاح هذه الدعوة نهاية لنفوذ بني امية الامر الذي يعيد الانصار الى هذه الصورة ايضا . ومما يدل على هذه النقطة الاخيرة ما ورد في كتاب قيس بن سعد بن عبادة الانصاري والي علي على مصر الى معاوية : « اما بعد فانما انت وثني ابن وثني دخلت في الاسلام كرها وخرجت منه طوعا . لم يقدم ايمانك ولم يحدث نفاقك . وقد كان ابي وتر قوسه ورمى غرضه فشعب به من لم يبلغ عقبه ولا شق غباره . ونحن أنصار الدين الذي منه خرجت واعداء الدين الذي فيه دخلت ... » (المسعودي ، ج٢ ص ٦٢ — ٦٣) .

وهذه النقطة الاخيرة هامة من ناحية كونها تلقي ضوءا جديدا على الدعم الذي لاقاه علي من الانصار واوائل المهاجرين ممن شهدوا بدرا خلال معركتي الجمل وصفين . كما أنها تتضح من خلال ما كتبه المؤرخون العرب حول تسلم الامويين لمقاليد السلطة زمن عثمان . يقول المسعودي : « وقدم على عثمان عمه الحكم بن أبي العاص وابن عمه مروان وغيرهما من بني امية . ومروان هو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي غربه عن المدينة ونفاه عن جواره . وكان عماله جماعة منهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط (اخيه من امه) على الكوفة ، وهو

Digitized by Birzeit University Library

ممن اخبر النبي صلى الله عليه وسلم انه من اهل النار . وعبد الله بن أبي سرح (اخيه من الرضاعة) على مصر . ومعاوية بن أبي سفيان على الشام وعبد الله بن عامر على البصرة . وصرف عن الكوفة الوليد بن عقبه (بعد أن عرف بشرب الخمر) وولاها سعيد بن العاص . » (المسعودي ، ج٢ ص ٤٣٥) .

غير أن عثمان لم يكن أول من ولى الامويين كما راينا . ومن الناحية الاخرى فان تذمر عامة ابناء القبائل في الامصار يعود الى فترة عمر بن الخطاب والانظمة الادارية التي اتبعها . وما حدث زمن عثمان هو اختلال عام في توازن النقائض الذي أتاح وجود تيار عمر الوسطي اختزاله على المستوى الداخلي والذي أتاحته الفتوحات (ونتجت عنه أيضا) على مستوى الغزو والهجرة القبليين من الجزيرة الى الامصار .

هذه النقطة الاخيرة توضح لنا الكثير من الروايات التي تشير الى أن ثورة الامصار لم تكن على عثمان أو الامويين فحسب وانما كانت امتدادا للردة القبلية على قريش . كما انها توضح توازن النقائض الجديد الذي تجسد في اعتماد علي على الكوفيين في تثبيت سلطته في معركة الجمل ، والذي كانت نتيجته مأساوية بالنسبة لعلي وتجسدت في عدم سيطرته على معسكره الذي خلعه وانفض عنه .

ومما يدلنا على ذلك هو طبيعة الفوضى القبلية التي ميزت الفتنة على عثمان وولاته والتي شكلت تمردا على سلطان المدينة وقريش بالذات . ففي الكوفة نجدهم يعزلون الولاة بشكل لا يستطيع الخليفة السيطرة عليه . يقول المسعودي : « وخرج (الاشتر النخعي) الى الكوفة فسبق سعيد بن العاص (واليها) وصعد المنبر وسيفه في عنقه ما وضعه بعد ثم قال : اما بعد فان عاملكم الذي انكرتم تعديه وسوء سيرته قد رد عليكم وامر بتجهيزكم في البعوث . فبايعوني على أن لا يدخلها . فبايعه عشرة الاف من

Digitized by Birzeit University Library

اهل الكوفة . وخرج راكبا متخفيا يريد المدينة أو مكة . فلقي سعيدا بواقصة فأخبره بالخبر فانصرف الى المدينة . وكتب الاشتر الى عثمان : انا والله مـا منعنا عاملك الا ليفسد عليك . ول من احببت . فكتب اليهم : انظروا من كان عاملكم ايام عمر بن الخطاب فولوه . فنظروا فاذا هو ابـو موسى الاشعري فولـوه . » (المسعودي ، ج٢ ص ٤٣٧) .

وهذه الفوضى جمعت بين عوامل التفكك السياسي القبلي من ناحية وبين تذمر الامصار وثورتهم على قريش . والمسعودي يصف ردة فعل الكوفيين عندما خطب سعيد بن العاص في المسجد وقال : « انما هذا السواد فطير قريش . فقال له الاشتر وهو مالك بن الحرث النخعي : اتجعل ما افاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستانا لـك ولقومك ؟ . » (المسعودي ، نفس المصدر ص ٤٣٦) .

كما يصف المسعودي تردد عثمان عن عزل سعيد بن العاص وتحذير الاخير له من خطورة الاستسلام لتلك الفوضى : « وقدم على عثمان أمراؤه من الامصار ... فأقاموا بالمدينة اياما لا يردهم الى امصارهم كراهة أن يرد سعيدا الـى الكوفة ، وكره أن يعزله ، حتى كتب اليه من بأمصارهم يشكون كثرة الخراج وتعطيـل الثغور . فجمعهم عثمان وقال : ما ترون ؟ فقال معاوية : أما انا فراض بي جندي ... وقال سعيد بن العاص انك ان فعلت هذا كان اهل الكوفة هم الذين يولون ويعزلون . وقد صاروا حلقا في المسجد ليس لهم غير الاحاديث والخوض فجهزهم في البعوث حتى يكون هم احدهم ان يموت على ظهر دابته ... » (نفس المصدر) .

ولعل اكبر دليل على كون الفتنة على عثمان استمرارا لتمرد الامصار على سلطان قريش ما يرويه الطبري عـن جواب رجل من بني عبد القيس للزبير بن العوام حين قدم

Digitized by Birzeit University Library

هذا الاخير الى البصرة يحرض أهلها على علي : « يا معشر المهاجرين : أنتم أول من أجاب رسول الله (ص) فكان لكم بذلك فضل ، ثم دخل الناس في الاسلام كما دخلتم ، فلما توفي رسول الله (ص) بايعتم رجلا منكم ، والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك ، فرضينا واتبعناكم . فجعل الله عز وجل في امارته بركة . ثم مات رضي الله عنه واستخلف عليكم رجلا منكم ، فلم تشاورونا في ذلك ، فرضينا وسلمنا . فلما توفي الامير جعل الامر الى ستة نفر منكم ، فاخترتم عثمان وبايعتموه من غير شورة منا ... » (الطبري ، الاستقامة ، ج٣ ص ٤٨٦) .

ولعل خروج الزبير الى البصرة يدل بشكل واضح على مدى خطورة انتقال مركز الثقل السياسي والعسكري في الدولة الاسلامية خارج حدود الجزيرة العربية . الامر الذي يفسر ايضا اضطرار علي للانتقال الى الكوفة من أجل تثبيت سلطته . وقبل أن ننتقل الى دراسة القاعدة السياسية والعسكرية التي ارتكز عليها علي خلال معركة الجمل وصفين تجدر الاشارة الى أن محاصرة الكوفيين والمصريين لعثمان كانت أول دليل لخطورة ذلك الانتقال حيث أصبحت الصراعات داخل قريش على السلطة في الدولة الاسلامية تحسم على أساس ميزان القوى بين تلك المراكز القائمة على اساس الضغائن والاحلاف القبلية التي انتقلت مع الهجرة والفتوحات الى أطراف الهلال الخصيب . وكان من الطبيعي أن يؤدي ذلك الى اضعاف سلطة الدولة وتهديد وحدتها واحداث فراغ سياسي يتوقف ملؤه على مقدرة هذا الوالي أو ذاك على تثبيت سلطانه على جنوده وسط ذلك الجو من التحالفات والضغائن القبلية .

ولعل معاوية كان أول من ادرك طبيعة هذا التحول الجديد حين وجه حبيب بن مسلمة الفهري في جيش من الشاميين لنجدة عثمان حين حوصر ، الامر الذي كان من الممكن أن ينتهي بعملية احتلال عسكري للمدينة لولا أن قتل

Digitized by Birzeit University Library

عثمان وفر بنو امية من المدينة قبل وصول الشاميين . (راجع البلاذري ، ج١ ص ٢٤١) . ومن الناحية الاخرى فان رجوع مسلمة عن المدينة لم يغير من طبيعة موازين القوى السياسية التي احدثها ذلك التحول في الدولة الاسلامية . كما يلاحظ ايضا أن معسكر علي كان على علم بطبيعة وابعاد ذلك التحول . الامر الذي نستطيع أن نلمسه في النصائح التي وجهها اليه بعض الصحابة بالتريث في عزل ولاة عثمان وخاصة معاوية .

والدليل على ذلك هو ما أورده المسعودي في رواية ينسبها لعبد الله بن عباس : « ... فقلت له اخبرني عن شأن المغيرة ولم خلا بك . قال : جاءني بعد مقتل عثمان بيومين فقال اخلني ففعلت . فقال : ان النصح رخيص وانت بقية الناس وانا لك ناصح . وانا أشير عليك الا ترد عمال عثمان عامك هذا فاكتب اليهم باثباتهم على اعمالهم فان بايعوا لك واطمأن امرك عزلت من احببت وأقررت من احببت . فقلت له : والله لا اداهن في ديني ولا أعطي الرياء في امري . قال : فان كنت قد ابيت فانزع من شئت واترك معاوية فان له جراة وهو في أهل الشام مسموع منه ولك حجة في اثباته فقد كان عمر ولاه الشام كلها . فقلت له : لا والله لا استعمل معاوية يومين ابدا . فخرج من عندي على ما أشار به ثم عاد فقال : اني أشرت عليك بما أشرت به وابيت علي فنظرت في الامر واذا انت مصيب لا ينبغي ان تأخذ امرك بخدعة ولا يكون فيه دنسة . قال ابن عباس : فقلت له اول ما أشار عليك فقد نصحك واما الاخر فقد غشك وانا أشير عليك أن تثبت معاوية فان بايع لك فعلي أن أقلعه من منزله . قال : لا والله لا أعطيه الا السيف ... » (المسعودي ، ج٢ ص ٥ ــ ٦) .

ولكي يستطيع علي ذلك كان لا بد له ان ينتقل الى العراق احد مراكز القوى ومواقع تجمع القبائل العربية المهاجرة آنذاك ، وقبل أن ننتقل لدراسة طبيعة التحالف

Digitized by Birzeit University Library

الجديد بين علي والكوفيين يجدر التذكير بأن طلحة والزبير كانا قد سبقاه الى البصرة لتحريض أهلها عليه وذلك بعد أن نكثا بيعتهما له في المدينة .

والواقع أن أية محاولة لفهم خـروج طلحة والزبير (ومعهما عائشة) على علي في البصرة ترتبط بفهمنا لطبيعة التحالف المؤقت بين علي والكوفيين وذلك على خلفية وقوف طلحة والزبير الى جانب علي يوم السقيفة من ناحية وطابع المد القبلي الذي ميز الفتنة على عثمان كثورة على سلطان قريش والمدينة ككل .

ويمكننا توضيح هذه النقطة اذا عدنا الى طبيعة تحالف علي مع أهل العراق وربط ذلك التحالف بمسألة جـذور الصراع داخل قريش على السلطة . تلك الجذور التي تعود بنا بدورها الى مسألة توازن النقائض التاريخي الذي تحتم أن يتم فتح مكة في حدوده سلما والذي مكن بدوره مـن اخضاع الجزيرة العربية والفتوحات وبناء الدولة الاسلامية بثمن استعادة زعامة قريش التاريخية لنفوذها الاقتصادي وسيطرتها السياسية على تلك الدولة .

وتجاهل علي لحتمية هذا التطور وما أفرزه من معطيات اقتصادية وسياسية جديدة نتجت عن الفتوحات التي تجسدت في محاولته العودة بميزان المتناقضات التاريخي واذكـاء العناصر القديمة في صراع الدعوة الاسلامية ضد زعامة قريش التاريخية . الامر الذي يفسر ليس فقط دعم الانصار والكثير من صحابة بدر له بل وتحالف النقائض المؤقت الذي نشأ بينه وبين التيارات القبلية التي ثارت على عثمان كجزء من ثورتها على سيطرة قريش ومبـدأ المفاضلة في الاقطاعات والاعطيات الخ .. الذي كرس تلك السيطرة كما رأينا .

ولكي نستطيع توضيح طبيعة ذلك التحالف المؤقت تجدر العودة الى الدعم الذي لاقاه الكوفيون من علي حين شكوا واليهم الوليد بن عقبة الى عثمان . يقول المسعودي :

Digitized by Birzeit University Library

« فقال عثمان : وما يدريكما أنه شرب خمرا ؟ فقالا : هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية ، وأخرجا خاتمه فدفعاه اليه . فرزاهما ودفع في صدورهما وقال : تنحيا عني . فخرجا وأتيا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأخبراه بالقصة فأتى عثمان وهو يقول : دفعت الشهود وأبطلت الحدود . فقال عثمان : فما ترى ؟ قال : أرى أن تبعث الى صاحبك فان أقاما الشهادة عليه ولم يدل بحجة أقمت عليه الحد . فلما حضر الوليد دعاهما عثمان فأقاما الشهادة عليه ولم يدل بحجة فألقى عثمان السوط الى علي . فقال علي لابنه الحسن : قم يا بني فأقم عليه ما أوجب الله عليه . فقال يكفيه بعض ما ترى . فلما نظر الى امتناع الجماعة عن اقامة الحد عليه توقياً لغضب عثمان لقرابته منه أخذ علي السوط ودنا منه ... فأقبل الوليد يزوغ من علي فاجتذبه به فضرب به الارض وعلاه بالسوط . فقال عثمان ليس لك أن تفعل به هذا . قال بلى وشر من هذا . »
(المسعودي ، ج٢ ص ٤٣٦) .

غير ان تحالف علي مع الكوفيين لم ينبع عن دعمه لهم في شكواهم ضد شرب ولاة عثمان للخمرة فقط . بل ان ورعه وتقواه شكلا جزءاً من التيار الذي كان يضمن للكوفيين تأييده لتذمرهم من قريش ككل ومطالبتهم بالمساواة وتغيير جميع الانظمة الادارية والسياسات التي ميزت القرشيين عنهم . يقول المسعودي : « ... وانتزع علي أملاكا كانت لعثمان اقطعها جماعة من المسلمين ، وقسم ما في بيت المال على الناس ولم يفضل أحدا على أحد .. » (ج٢ ص ٤) . ومرة أخرى : « ودخل علي بيت مال الكوفة في جماعة من المهاجرين والانصار فنظر الى ما فيه من العين والورق فجعل يقول : يا صفراء غري غيري ، وادام النظر الى المال مفكرا ثم قال : اقسموه بين أصحابي ومن معي خمسمائة خمسمائة ففعلوا فما نقص درهم واحد وعدد الرجال اثنا عشر الفا . وقبض ما كان في عسكرهم من سلاح ودابة ومتاع وآلة

Digitized by Birzeit University Library

وغير ذلك فباعه وقسمه بين أصحابه وأخذ لنفسه ما أخذ لكل واحد ممن معه من أصحابه ... » (المسعودي ، ج٢ ص ١٥) .

وتحالف علي مع الكوفيين على أساس هذه السياسة لم يكن يشكل خطرا على الامويين فحسب . وطلحة والزبير وغيرهم كانا أول من ادرك أن سيطرة قريش ومصالحها ككل في خطر نتيجة لهذه السياسة . الامر الذي يمكننا من فهم التغيير الذي طرأ على موقفهما بالنسبة لحق علي في الخلافة في الفترة بين السقيفة ومعركة الجمل على خلفية الاثار الاقتصادية التي كانت للفتوحات والنفوذ والمكاسب التي عادت عليهم في تلك الفترة .

وتحالف هذه النقائض المؤقتة لا يفسر هزيمة معسكر الجمل فقط بل يلقي اضواء جديدة على عدم سيطرة علي على معسكره يوم الجمل وصفين وعلى الجوانب المأساوية في كونه قد أصبح أسيرا وسط جو فوضوي قبلي معاد . وبعد أن افسد الكوفيون عليه امكانية تفاهمه مع خصومه يوم الجمل نجدهم ينقسمون على فئات متخاصمة تسودها النعرة والتعصب القبليين حول مسألة التحكيم في صفين .

ولعل عليا كان يدرك حقيقة ذلك . الامر الذي يتضح من خلال قوله حين أجبر على التحكيم : « أيها الناس انه لم يكن من أمركم ما أحب حتى قرحتكم الحرب ، وقد والله اخذت منكم وتركت . واني كنت أمس أميرا فأصبحت اليوم مأمورا . » (المسعودي ، ج٢ ص ٢٧) .

وانتقال مسألة حسم الصراع السياسي في الدولة الاسلامية الى مراكز التجمع القبلية في الامصار يفسر النزعات القبلية والطابع القبلي للقوى المشاركة في صفين الامر الذي يتضح من خلال الوصف الاتي الذي يورده المسعودي لسير المعركة : « ... واخرج علي في اليوم الثالث وهو يوم الجمعة أبا اليقظان وهو عمار بن ياسر في عدة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والانصار فيمن شرع معهم من الناس،

Digitized by Birzeit University Library

واخرج معاوية عمرو بن العاص في تنوخ ونهر وغيرهما من اهل الشام ... . واخرج علي في اليوم الرابع وهو يوم السبت ابنه محمد بن الحنفية في همدان وغيرها ممن خف معه من الناس ، فأخرج اليه معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب في حمير ولخم وجذام ... » (المسعودي ، ج٢ ص ١٩ — ٢٠) . كما تدل الاشعار والمفاخرة التي قيلت اثناء المعركة على جو النعرات القبلية الذي ساد المعركة . من ذلك قول عبيد الله بن عمر :

أنـا عبيـد اللـه ينميني عمـر
خـير قـريش من مضـى ومـن غبـر
غـير نبـي اللـه والشيـخ الاغـر
والربعيـون فـلا أسقوا المطـر

ورد الاشتـر النخعـي عليـه :

انـي أنـا الاشتـر معـروف السـير
انـي أنـا الافعـى العراقي الذكـر
لست مـن الحـي ربيـع أو مضـر
لكنني مـن مذحـج البيض الغـرر

وقول صاحب لواء ذي الكلاع من جيش معاوية وقد كان من بني عذرة :

اثبـت فانـي لسـت مـن فزعى مضـر
نحـن اليمانيـون مـا فينا ضجـر
كيـف تـرى وقـع غـلام مـن عـذر
ينعـي ابـن عفـان ويلحي مـن عـذر

حتى علي اضطر الى الانجراف في جو النعرات القبلية التي سادت المعركة والذي فرضه عليه تحركه من خلالها . يقول المسعودي : « ولما قتل عمار ومن ذكرنا في هذا اليوم حرض علي عليه السلام الناس وقال لربيعة : انتم درعي ورمحي . فانتدب له ما بين عشرة الاف الى اكثر من ذلك

Digitized by Birzeit University Library

من ربيعة وغيرهم .. » (نفس المصدر ، ص ٢٥) .

ثم ان نظرة أخرى الى أسماء القبائل التي شاركت في المعركة تشير الى أنها تشكل امتدادا للصراع الجاهلي بين عرب الشمال (مضر وربيعة) الذين وقفوا في الاساس الى جانب علي وبين القبائل اليمانية (حمير ولخم وجذام وكلب الخ ...) التي وقفت الى جانب معاوية . كما يشير ذلك الى الدور الذي لعبه الصراع بين القبائل التي استوطنت بلاد الشام قبل الاسلام وبين تلك التي هاجرت ابان الفتوحات الاسلامية . وألى كون ذلك الصراع امتدادا للنزعات الاقليمية التي تعود جذورها الى الحروب بين القبائل التي استوطنت العراق وتلك التي استوطنت بلاد الشام بزعامة المناذرة والغساسنة . وهذه النزعة الاقليمية تتضح من خلال صيحة : « من لثغور الشام بعد أهل الشام ومن لثغور العراق بعد أهل العراق . » (المسعودي ، ج٢ ص ٢٧) .

وهذا بدوره يكفي لتفسير عجز علي عن السيطرة على معسكره . وحتى بعد قبوله التحكيم نجد أن معسكره يفرض عليه اختيار ابي موسى الاشعري حكما من طرفه لاعتبارات قبلية صرفة . يقول المسعودي : « ... فاختار أهل الشام عمرو بن العاص حكما . وقال الاشعث ومن ارتد بعد ذلك ألى رأي الخوارج : رضينا نحن بأبي موسى الاشعري . فقال علي : قد عصيتموني في أول الامر فلا تعصوني الان . اني لا أرى أن أولي أبا موسى الاشعري . فقال الاشعث ومن معه لا نرضى الا بأبي موسى الاشعري. فقال (علي) : ويحكم ليس بثقة ، فقد فارقني وخذل الناس عني ... ثم انه هرب شهورا حتى امنته ، لكن هذا عبد الله بن عباس أوليه ذلك . فقال الاشعث : والله لا يحكم فيها مضريان ... » (المسعودي ، ج٢ ص ٢٨) .

وفي رواية أخرى أن الاشعث قال « لا والله لا يحكم فيها مضريان حتى تقوم الساعة ، ولكن اجعله رجلا من

Digitized by Birzeit University Library

اهل اليمن اذا جعلوا رجلا من مضر » ولما حذر علي من انخداع ابي موسى الاشعري امام عمرو بن العاص أجاب الاشعث : « والله لان يحكما ببعض ما نكره واحدهما من اهل اليمن احب الينا من أن يكون ما نجد في حكمهما وهما مضريان . » (الدوري ، ص ٥٩ ، عن نصر بن مزاحم ، ص ٥٧٣) .

غير ان قبول علي التحكيم لم يكن يعني نهاية الخلافات والنعرات القبلية في معسكره . بل على العكس فقد أدى الى ازدياد خطر الصراع بين قبائل اليمن من ناحية وقبائل مضر وربيعة من الناحية الاخرى داخل ذلك المعسكر والى التشكيك في حق علي في الخلافة والخروج عليه . يقول المسعودي : « ومر الاشعث (بن قيس الكندي اليماني) بالصحيفة يقرؤها على الناس فرحا مسرورا حتى انتهى الى مجلس لبني تميم فيهم جماعة من زعمائهم منهم عروة ابن الزبير التميمي وهو اخو بلال الخارجي ، فقرأها عليهم فجرى بين الاشعث وبين اناس منهم خطب طويل وان الاشعث كان بدء هذا الامر والمانع لهم من قتال عدوهم حتى يفيئوا الى أمر الله . وقال عروة بن اديه أتحكمون في دين الله وأمره ونهيه الرجال . لا حكم الا لله . فكان أول من قالها وحكم بها . وتنوزع في ذلك . وشد بسيفه على الاشعث فضم فرسه عن الضربة فوقعت في عجز الفرس ونجا الاشعث وكادت العصبية أن تقع بين النزارية واليمانية . » (المسعودي ، ص ٢٩) .

لا حاجة الى التذكير هنا بأن الاشعث بن قيس هو الذي قادكنده حين ارتدت عن الاسلام . والقيمة الرمزية في ذلك تكمن في لقاء الاضداد الذي نتج عن محاولة علي الاخلال في توازن النقائض داخل قريش في جو من الثورة القبلية على قريش نفسها . واين تلك الدوافع القبلية التي وقفنا عليها من قول عمار بن ياسر يوم صفين « والذي نفسي

Digitized by Birzeit University Library

بيده لنقاتلنكم (أي الامويين) على تأويله كما قاتلناكم على تنزيله . »

كما أن روح التمرد القبلي على سلطان قريش التي وقفت وراء الفتنة على عثمان هي التي سادت معسكر علي . الامر الذي يفسر روح الديمقراطية والمساواة القبلية (والفوضى أيضا) التي سادت معسكر الخوارج والتي تعود جذورها الى بنية القبيلة العربية في الجاهلية وروح الديمقراطية العسكرية التي ميزتها الى جانب كونها عامل فوضى وتفكك سياسيين . الامر الذي يحتم الربط بين فوضى صفين والفتنة على عثمان والردة القبلية عن الاسلام — كحلقات متتالية في ظاهرة اختلال توازن النقائض الذي وقفنا على جذوره التاريخية .

ويتضح هذا الربط من خلال الروايات التي تؤكد على امتداد روح التمرد على قريش داخل معسكر علي . منها ما روي عن امرأة قتل أولادها الثلاثة الى جانب علي في صفين قولها :

أعيني جودا بدمع سرب
على فتية من خيار العرب
وما ضرهم غير جنبي النفوس
بأي امرىء من قريش غلب

وكذلك من تهديد علي بالقتل اذا هو رفض التحكيم الامر الذي يشير الى أن بعض من كان في معسكره قد اشترك بالفعل في قتل عثمان . اذ يروي المسعودي أن هؤلاء قالوا لعلي حين تردد في قبول التحكيم : « يا علي أجب القوم الى كتاب الله والا قتلناك كما قتلنا عثمان . » (ج٢ ص ٢٩) .

من هنا يتضح كيف أن الخوارج ربطوا فيما بعد بين مطلب المساواة وروح التمرد على قريش من ناحية وبين جذور الديمقراطية القبلية الفوضوية في مفهومهم لمسألة السلطة في الاسلام . وذلك من خلال صيحتهم « لا حكم الا

Digitized by Birzeit University Library

لله » من ناحية ورد علي عليهم : « كلمة حق يراد بها باطل . نعم انه لا حكم الا لله . ولكن هؤلاء يقولون لا امرة الا لله . وانه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر . » وكذلك من قولهم : « الامر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عز وجل ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . »

ولسنا هنا في معرض دراسة تطور الفكر السياسي والشرعي عند الخوارج على طوائفهم المختلفة . غير أن أية محاولة للقيام بمثل تلك الدراسة يجب أن تنطلق من محاولة لفهم روح الديمقراطية القبلية لديهم وتمردهم على مفهوم السلطة الذي نما تحت زعامة قريش في فترة صدر الاسلام والدولة الاموية . والنماذج التالية من شعر الخوارج تربط بوضوح بين هذه القضايا : منها قول الضحاك بن قيس الشيباني حين أجبر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك على الصلاة خلفه :

ألم تر أن الله أظهر دينه وصلت قريش خلف بكر بن وائل

وقول عتبان بن وصلة الشيباني :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة
وذو النصح ان لم يرع منك قريب
فانك ان لم ترض بكر بن وائل
يكن لك يوم بالعراق عصيب
ولا صلح ما دامت دنابر أرضنا
يقوم عليها من ثقيف خطيب
فان يك منهم كان مروان وابنه
وعمرو وذنكم هاشم وحبيب
فمنا سويد والبطين وقعنب
ومنا أمير المؤمنين شبيب

ولم يقتصر الخوارج على تطوير المعتقدات المناوئة لمفهوم الامامة والسلطة السياسية لدى قريش (بشقيها الهاشمي والاموي) فحسب بل انهم تعدوا في ذلك الى محاولة ابراز

Digitized by Birzeit University Library

العناصر الاولى في الدعوة الاسلامية المناهضة لذلك المفهوم وتثبيتها على أساس خلفية من الديمقراطية العسكرية التي أفرزتها بنية أوائل فرق الخوارج القبلية . وبالاضافة الى مساواة أكثر الفرق الخارجية بين الحـر والعبد والذمي والعربي في الحق في مسألة الامامة ، كان الخوارج الشبيبية (اتباع شبيب بن يزيد الشيباني) قد اجازوا امامة المـرأة أيضا . (راجع عبد القاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٩٢) .

وخروج تلك الفرق عن المنطلقات الشرعية الاساسية لمفهوم السلطة في الاسلام كما تطور في حدود توازن النقائض التاريخي داخل الدعوة الاسلامية حتم عليها ان ترفض قبول المؤسسات والنظم الادارية التي قامت زمن أبي بكر وعمر على أساس ذلك التوازن كما رأينا . ومن هذا المنطلق يمكننا فهـم رفض الخوارج التمييز بين ملكيـة الاراضي العشرية وملكية الاراضي الخراجية لرفضهم التمييز بـين عرب الجزيرة ومسلمي الامصار من غير العرب كما تطور زمن عمر بن الخطاب . يقول ابو يوسف : « واما الخوارج فانهم أخطأوا الحجة وجعلوا قرى عربية بمنزلة قرى أعجمية ولم يأخذوا بما اجتمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول عمر وعلي . ومن اجتمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هم أحسن تأويلا وتوفيقا من الخوارج . » (ابو يوسف ، ص ٥٩) .

ونستطيع ان نلمس مطلب الاخلال بذلك التوازن باتجاه تكريس عناصر العدل الاجتماعي في الدعوة الاسلامية كنظام سياسي واقتصادي في الدعم الذي لاقاه ليس فقط الخوارج بل والشيعة ايضا في جميـع ثورات الموالي والثورات الفلاحية زمن الدولة الاموية (كثورة المختار بن عبيد الذي « وعد عبيد اهل الكوفة باعطائهم أموال ساداتهم » وثورة عبد الحمن بن الاشعث بن قيس التي أحرقت فيها الدواوين وتم استيلاء الثوار على الاراضي الخراجية وأراضي الصوافي

Digitized by Birzeit University Library

وغيرها من الثورات ــ راجع البغدادي ، ص ٤٨ وكذلك محمود اسماعيل ، الحركات السرية في الاسلام ، ص ٤٠ ــ ٤١) .

غير أن مطلب العدل الاجتماعي والتمرد على سلطان الامويين الذين مثلوا سيطرة تيار الارستقراطية القرشية في الدولة الاسلامية اقترن لدى الشيعة بتطوير مفهوم حصر الولاية بشكل وراثي في علي وابنائه ، الامر الذي تعود جذوره الى محاولة علي تثبيت حقه في الخلافة على اساس تحالفه مع قاعدة التمرد ضد سيطرة قريش في الكوفة اثناء الفتنة على عثمان من ناحية ويفسر ربط مطلب العدل الاجتماعي وحصر الامامة في آل علي (الى درجة التأليه احيانا) لدى الاسماعيلية والفرق الشيعية الراديكالية المتعددة التي ظهرت في الكوفة على فترات متعاقبة .

وعلى الرغم من أن مفهوم الشيعة لمسألة الامامة قد انحصر في الاسس الشرعية لمفهوم السلطة المطلقة في الدعوة الاسلامية فان ارتكاز علي على عامل الوراثة في مطالبته بالخلافة بعد السقيفة يفسر ليس فقط جمع الشيعة للسلطتين في الائمة من أبناء علي فقط بل وكون هؤلاء يعملون بمشيئة الخالق المطلقة ايضا . وهو ما يظهر بوضوح من خلال ما جاء في الخطبة التالية للحسن بن علي : « ... نحن حزب الله المفلحون وعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم الاقربون واهل بيته الطاهرون الطيبون واحد الثقلين الذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثاني كتاب الله ... فأطيعونا فاطاعتنا مفروضة اذا كانت بطاعة الله والرسول واولي الامر مقرونة ... » (المسعودي ، ج٢ ص ٥٣) . ومن خلال رد الفضل بن العباس على شعر قاله الوليد بن عقبة في مقتل عثمان :

وكان ولي العهد بعد محمد

علي وفي كل المواطن صاحبه

Digitized by Birzeit University Library

علـــي ولـي اللـــه أظهـــر دينـــه
وأنـــت مـــع الاشقـــين فيمـــا تحاربه

واذا كانت الشيعة تشكل امتدادا تاريخيا لمعارضة علي لتوازن النقائض الذي فرضه دور مكة وقريش التاريخي في الجزيرة العربية أيام الرسول ومقتضيات الابقاء على ذلك التوازن في ظروف تحرك ابي بكر وعمر بعد يوم السقيفة وابان الفتوحات ، ومحاولته الاخلال بذلك التوازن بالتأكيد على كون انتصار الدعوة الاسلامية قضاء نهائيا على دور وسيطرة زعامة قريش التقليدية من ناحية ، واذا كـان الخوارج يشكلون من الناحية الاخرى امتدادا لمحاولـة الاخلال بذلك التوازن على مستوى التمـرد القبلي على سيطرة قريش ورفض كون الاسلام يعني الخضوع لتلك السيطرة ، فان الامويين يشكلون بدورهم امتدادا حتميا لضرورة قيام الدولة الاسلامية في حدود ذلك التوازن الذي ظهر ايام الرسول وابي بكر وعمر والـذي ورثه عثمان مـــن بعدهـــم .

لن نحاول هنا القيام بدراسة تقريرية لتاريخ الدولة الاموية وسياسة الامويين الاجتماعية والاقتصادية . غير اننا نستطيع القول بأن الامويين قد انطلقوا في سياستهم تلك من مبدأ الحفاظ على توازن النقائض بنقل الصراع الـى حلقاته الاوسع فالاوسع ، ذلك المبدأ الذي ظهر واضحا في سياسة عمر بن الخطاب وانظمته الادارية ، باضافة عامل انتقال مركز ثقل الدولة السياسي والعسكري الى الشام بتأثير الفتوحات كما راينا . فالامويون تعصبوا لبني امية على بطون قريش الاخرى ، وتعصبوا لهذه الاخيرة على بقية العرب وتعصبوا للعرب عامة على الموالي . كما انهم ابقوا على سياسة عمر التي انطلقت من ذلك المبدأ كما راينا في كل ما يتعلق بأمور الولاية والجباية وحق الملكية الـــخ ... .

واول ما تجسد ذلك المبدأ كان في سياسة معاوية الذي

Digitized by Birzeit University Library

تصرف كزعيم قريش في الاسلام كما كان يتصرف زعماؤها في الجاهلية — يسترضي شيوخ القبائل ويقرب شعرائها ويعقد التحالف معها ويستغل نزاعاتها ونعراتها — الامر الذي يفسر الى حد بعيد كيف انه خلافا لعلي ، تمتع بسيطرة تامة على معسكره يوم صفين (راجع المسعودي ، ج٢ ص ٧٢) .

واحد دلائل عصبية معاوية لقريش عفوه عن عبد الله ابن هاشم بن عتبة بن ابي وقاص المرقال الذي حارب الى جانب علي يوم صفين وقوله :

أرى العفـــو عـــن عليـــا قريش وسيلـــة
الـى الله في يـــوم العصيـــب القماطري
واست أرى قتـــل العـــداة بـــن هاشـــم
بـــادراك نـــاري في لـــؤي وعامـــر
بـــل العفو عنه بعـــد مـــا بـــان جرمـــه
وزلـــت بـــه احدى الجـــدود العواثـــر

كما ان الرواية التالية التي يوردها المسعودي تؤكد على ذلك الربط بين الاسلام والتعصب لقريش لـــدى الامويين : « وانصرف اهل الشام الى بلادهم مع الحصين (ابن نمير الذي قاتل ابن الزبير وعرض عليه البيعة عندما علم بموت يزيد بن معاوية) . فلما صاروا الى المدينة جعل اهلها يهتفون بهم ويتوعدونهم ويذكرون قتلاهم بالحرة. فلما اكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهياجها صعد روح بن زنباع على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان في ذلك الجيش فقال : يا اهل المدينة ، ما هذا الايعاد الذي توعدونا به ؟ انا والله ما دعوناكم الى كلب لبايعة رجل منهم ولا الى رجل من بلقين ولا الى رجل من لخم او جذام ولا الى غيرهم من العرب ، ولكن دعوناكم الى هذا الحي من قريش ، يعني بني أمية ، ثم الى طاعة يزيد بن معاوية وعلى طاعته قاتلناكم ... » (المسعودي ، ج٢ ص ١٠٤) .

غير ان تعصب الامويين لقريش لم يخل من المخاطر لما

Digitized by Birzeit University Library

حتمته ظروف تحركهم السياسي في جـو يسوده التذمـر والاحقاد القبلية ، الامر الذي ميز فترة الاضطرابات قبيل تولـي مروان بن الحكم للسلطـة . يقول المسعودي : « واشترط حسان بن مالك (وقيل ابن بحدل الكلبي الذي تزوج معاوية من اخته ميسون) وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية . منها ان يفرض لهم لالفي رجـل الفين الفين وان مات قام ابنه وابن عمه مكانه وعلى ان يكون لهم الامر والنهي وصدر المجلس وكل ما كان من حل وعقد فعن راي منهم ومشورة . فرضي مروان (بن الحكم) بذلك وانقاد اليه . وقال له مالك بن هبيرة اليشكري انه ليست لك في اعناقنا بيعة ، وليس نقاتل عن عرض دنيا ، فان تكن لنا على ما كان معاوية ويزيد نصرناك ، وان تكن الاخرى فوالله ما قريش عندنا الا سواء ... » (المسعودي، ج٢ ص ١٠٦) .

وهذه الرواية تشير بوضوح الى ان مسألة وحـدة الدولة الاموية ومركزية السلطة فيها شكلت مسألة توازن دقيق نبع عن قيام تلك السلطة في بيئة قبلية وعلى قاعدة سياسية متفككة بحيث اصبحت وحدة الدولة ككل مرهونة بمقدرة الامويين على الحفاظ على ذلك التوازن .

والتعصب لقريش ، الـذي شكل محور وحدة الدولة وسلطتها المركزية لدى الامويين على قاعدة التفكك السياسي القبلي حمل في طياته بذور التذمر والنعرات القبلية ضـد سيطرة قريش . الامر الذي يفسر كون قريش « سواء » بالنسبة لمالك بن هبيرة اليشكري ، ويوضح تذمر القبائل العربية من انفراد قريش بالسلطة ايضا . من ذلك قول احد شعراء القبائل العربية التي رابطت في خراسان زمن عبد الملك بن مروان :

تولـت قـريش لـذة العيش واتقـت
بنـا كـل فج في خراسـان اغبـرا

Digitized by Birzeit University Library

فليت قريش أصبحوا ذات ليلة
يعومون في لج من البحر أخضرا

ولهذا التذمر جانب هام يعيدنا الى سياسة المفاضلة في الاعطيات التي وضعها عمر والتي ابقى عليها الامويون في الفترة الاولى على الاقل في حدود الحفاظ على مبدأ توازن النقائض كما قلنا . ويذكر د. محمود اسماعيل كيف أن عبد الملك بن مروان حاول استمالة ابن الاشعث بعد أن هزم الحجاج في عدة معارك وذلك بمساواة اعطيات أهل العراق باعطيات أهل الشام . (محمود اسماعيل ، ص ٤٠) .

بالاضافة الى ذلك فان ذهاب فائض مدخول الامصار الى الشام كان احد الاسباب التي ضاعفت من تذمر القبائل المرابطة هناك ، الامر الذي يذكرنا بجذور الفتنة على سلطان المدينة زمن عمر وعثمان ايضا .يقول المقريزي: « وقال ابن لهيعة .. فأعطى مسلمة بن مجلد اهل الديوان عطياتهم وعطيات عيالهم وارزاقهم ونوائب البلاد من الجسور وارزاق الكتبة وحملان القمح الى الحجاز ثم بعث الى معاوية بستمائة الف دينار فضل . وقال ابن عفير : فلما نهضت الابل لقيهم برح بن كسحل المهري فقال : ما هذا ؟ ما بال مالنا يخرج من بلادنا ؟ ردوه . فردوه حتى وقف على باب المسجد فقال : أخذتم عطياتكم وارزاقكم وعطاء عيالكم ونوائبكم ؟ قالوا : نعم . قال : لا بارك الله لهم فيه ، خذوه ، فساروا به . » (المقريزي ، ج١ ص ١٢٧) .

وعلى خلفية تعصب الامويين للعرب على الموالي وللمسلمين على الذميين عامة فانه يفهم كيف أن تذمر القبائل العربية من عصبية الامويين لقريش وتمردهم على سلطانها في الامصار كان يقع على ارضية مواتية من تذمر الموالي واهل الذمة ضد العرب والمسلمين عامة . وهو ما يفسر ما لاحظه بعض المؤرخين من أن ثورات الموالي كانت دائما تتم بقيادة عربية (راجع الدوري ، مقدمة في التاريخ

Digitized by Birzeit University Library

الاقتصادي العربي ، ص ٤٣ — ٤٤) . من ذلك دعم البربر لثورات الخوارج في شمال افريقيا زمن هشام بن عبد الملك ودعم الموالي الفرس في الكوفة للثورات العلوية ودعم الفرس عامة للثورة العباسية .

وتعصب الامويين للعرب على غيرهم انطلق من مبدأ اختزال نقيض تعصبهم لقريش (الذي هو تذمر القبائل العربية) باخراجه الى حيز أوسع من الصدام مع الموالي والذميين . ذلك المبدأ الذي انطلقت منه سياسة عمر بالنسبة للجزية وحق الملكية والاقطاعات والتي حافظ الامويون عليها من ناحية المبدأ مع الاختلاف في المقادير . يقول أبو يوسف : « ووضع عياض بن غنم الفهري على الجماجم بالجزيرة على كل جمجمة دينارا ومدين قمحا وقسطين زيتا وقسطين خلا وجعلهم جميعا طبقة واحدة .. فلما ولي عبد الملك بن مروان بعث الضحاك بن عبد الرحمن الاشعري فاستقل ما يؤخذ منهم فأحصى الجماجم ، وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته وحذائه وطرح أيام الاعياد في السنة كلها ، فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير فألزمهم ذلك جميعا وجعلهم طبقة واحدة . ثم جعل (أو حمل) الاموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب دينارا وعلى كل ألف اصل كرم مما قرب دينارا ، وعلى كل الفي أصل مما بعد ديناراً ، وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب دينارا ، وعلى كل مائتي شجرة مما بعد دينارا ، وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم واليومين واكثر من ذلك ، وما دون اليوم فهو في القرب . وحملت الشام على مثل ذلك ، وحملت الموصل على مثل ذلك . » (أبو يوسف ، ص ٤١) .

كما تشير المراجع الى أن الامويين أو بعض ولاتهم قد أخذوا الجزية حتى ممن كان يسلم من اهل الذمة .

Digitized by Birzeit University Library

من هؤلاء الحجاج بن يوسف والي العراق وعبد العزيز بن مروان والي مصر زمن عبد الملك وحيان بن شريح واليها زمن عمر بن عبد العزيز الذي روي عنه انه قال لما أمر الاخير بابطالها : « ان الله قد بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا . » (المقريزي ، ج١ ص ١٢٥) .

لن نقوم هنا بدراسة تفصيلية لملكية الاراضي زمن الامويين . غير أن محافظة هؤلاء على مبدأ التمييز بين الاراضي الخراجية من ناحية والعشرية من الناحية الاخرى شكلت محورا للكثير من ثورات الموالي الذين رفضوا دفع الخراج وحاولوا تثبيت ملكيتهم على الارض بتحويلها من خراجية الى عشرية . من هذه الثورات ثورة القبط في مصر الذين رفضوا دفع الخراج أيام هشام بن عبد الملك وثورة ابن الاشعث حيث « أحرقت الدواوين وأخذ كل قوم ما يليهم » من اراضي الدولة الخراجية واراضي الصوافي . (المقريزي، ج١ ص ١٢٧ — ١٢٨) .

ومع ان البلاذري يؤكد على أن عامة الاراضي بقيت خراجية (أي ملكا للدولة) زمن الامويين ، وأن السواد مثلا لم يقسم بين المسلمين الا في زمن المنصور (ج٢ ص ٤٥٢) ، فان سياسة الامويين في اقطاع أقربائهم وعمالهم ومن والاهم وسياسة تمليك الاراضي الموات بعد استصلاحها قد أدت الى ظهور ارستقراطية عقارية تملك مساحات شاسعة من الاراضي . يقول البلاذري : « انبثقت البثوق أيام الحجاج . فكتب الحجاج الى الوليد بن عبد الملك يعلمه انه قدر لسدها ثلاثة الاف الف درهم . فاستكثرها الوليد ، فقال له مسلمة بن عبد الملك : انا أنفق عليها على أن تقطعني الارضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد انفاق ثلاثة الاف الف درهم ، يتولى انفاقها ثقتك ونصيحك الحجاج ، فأجابه الى ذلك . فحصلت له أرض من طساسيج (أي نواحي) متصلة . فحفر السيبين وتألف الاكره والمزارعين وعمر تلك الارضين والجأ الناس اليها

Digitized by Birzeit University Library

ضياعا كثيرة للتعزز به . » (البلاذري ، ج٢ ص ٣٦٠) .

لن نقوم هنا بدراسة ظاهرة بروز هـذه الاقطاعيات الواسعة فذلك يخرجنا عن الموضوع الذي نحن بصدده . غير اننا نستطيع القول هنا بأن جذور تلك الظاهرة تعود الى فترة ولاية معاوية على بلاد الشام في فترة خلافة عثمان حيث اقطع الكثير من الاراضي لزعماء القبائل التي هاجرت مع الفتح ، الامر الذي ضمن له ولائها زمن صراعه مـع علي . (حول سياسة معاوية والامويين من بعده في اقطاع القطائع راجع البلاذري ج١ ص ١٧١ — ١٧٧ ، ٢١١ — ٢١٥ ، ج٢ ص ٤٣٧ — ٤٥٥) .

كما يجدر التأكيد على أن هذا النوع من الاقطاع يختلف عنه في أوروبا العصور الوسطى . . فظهور الاقطاع العربي في هذه الفترة لم يقترن بتغيير جذري في نمط الانتاج كما أنه لم يزامن ظاهرة انحلال سلطة الدولة المركزيـة وانعدام النشاط التجاري والمدن . بل على العكس ، فقد شكل امتدادا لسيطرة المدينة ، مركز السلطة الادارية والسياسية، على الريف . الامر الذي يفسر كيف بقي كبـار الملاكين يسكنون المدن ويديرون اقطاعياتهم عن طريـق وكلاء لهم ويجمعون بين حوزتهم على تلك الاقطاعيات ومهامهم الادارية والعسكرية ومصالحهم التجارية في نفس الوقت . وذلك يفسر بدوره عدم ظهور اقتصاد ريفي ونمط انتاج زراعي على الارض ينفصل عن المدينة ويتصارع معها . كما يرتبط ايضا بعدم كون المدينة العربية تشكل نواة لعلاقات انتاج جديدة تنمو عن طريق صراعها مع بيئتها الريفية ومحاولتها تغيير نمط انتاج تلك البيئة بشكل جذري . وصراع المدينة العربية مع بيئتها الريفية أو الرعوية بقي محصورا في سعيها الفوقي لفرض سيطرتها السياسية عليها بدافع حفظ الامن والاستقرار السياسيين .

وفرض السيطرة بشكل فوقي من هذا النوع يفسر

Digitized by Birzeit University Library

بدوره امكانية تعايش انماط انتاج مختلفة ضمن كل واحد من الكيانات السياسية المتعددة في المشرق العربي . كما يفسر ايضا كون وحدة المنطقة السياسية مترجرجة ومرهونة بامكانيات فرضها عسكريا وبشكل فوقي من ناحية وبميزان القوى الدولية صاحبة المصالح في فرض نفوذها على هذا الجزء او ذاك منها — الامر الذي يشكل احد اهم المداخل لدراسة ظاهرة عدم تمكن النشاط التجاري الذي ازدهر في الفترة العباسية من ضمان وحدة المنطقة السياسية على المدى البعيد .

وتداخل انماط الانتاج المختلفة اجتماعيا وتعايشها سياسيا داخل الكيان الواحد هو الذي يفسر توازن النقائض التاريخي في المنطقة . واذا كنا قد درسنا تاريخ العرب السياسي في الجاهلية وصدر الاسلام والدولة الاموية من منظور ذلك التوازن التاريخي فان ايفاء الفترة الاموية حقها يحتم علينا الوقوف على الخطوط العريضة لبعض جوانب التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي نتجت عن انتقال القبائل العربية الى حياة الاستقرار على أطراف الهلال الخصيب والتي شكلت عوامل وقوى جديدة كان لها تأثيرها في عملية التفاعل التاريخي داخل اطار ذلك التوازن .

واهم هذه التحولات هو الانتقال التدريجي لدور الهجرة من مجرد كونها مراكز عسكرية ذات طابع قبلي الى مراكز حضارية ذات فعاليات ثقافية واقتصادية جديدة ، غير أن ذلك بقي محصورا في كونها بدأت تتطور كمراكز ادارية وكمحطات لتجارة الترانزيت داخل الدولة الاسلامية مما يفسر نمو قطاع الخدمات العريض كجزء اساسي من اقتصادها .

والاستقرار أدى بدوره الى ضعف تدريجي في الروابط القبلية ، خاصة بعد أن تحول زعماء القبائل الى ارستقراطية عقارية ملاكة بسبب كونهم اول من كان له الوعي والامكانيات لامتلاك الاراضي . لذلك فاننا نرى بأن الحجاج لا يستطيع

Digitized by Birzeit University Library

الاعتماد عليهم كليا ويقرر الانتقال الى مدينة واسط التي بناها لتكون مركزا اداريا جديدا ومقرا للحامية الشامية التي رابطت فيها .

وفي حين تحول الكثير من الزعماء الى ارستقراطية عقارية وبسبب ضعف الروابط القبلية في المدن فان الشيع والاحزاب الدينية المختلفة قد بدأت تظهر كأطر بديلة للانتساب القبلي بحيث ينتمي اليها عامة أبناء القبائل . وقد زامن هذا الانحلال التدريجي في الروابط القبلية تحول تدريجي باتجاه مركزة السلطة السياسية التي وفرها استتباب الامن ابتداء بحكم عبد الملك بن مروان الامر الذي تشير اليه أنظمته الادارية وتعريبه للمكاييل والموازين والدواوين أيضا .

وتحرير الاسلام لرقيق الارض برفعه الجزية عنهم ادى الى هجرة الكثير من الموالي الى المدينة مما زاد في تغيير طابعها السكاني والقبلي العربي وذلك على الرغم من انتساب الموالي الى القبائل المختلفة . ولان العرب انفردوا بولاية مراكز الادارة والحكم والقضاء فقد انصرف الموالي بشكل عام الى العمل في الحرف والصنائع والخدمات . كما ان عدم مساواة الموالي ممن شاركوا في القتال في الاعطيات كان مثار شكوى وتذمر من جانبهم .

وتحول المدن الى مراكز هجرة وتجمع للموالي شكل خطرا على أمن الدولة لكونهم قد شكلوا أحتياطي الحركات والشيع الثورية في المدن ، الامر الذي يفسر قيام الحجاج بطردهم من الكوفة ونقش أسماء بلادهم على أيديهم واعادتهم اليها وقوله « انتم علوج وعجم وقراكم أولى بكم . » (الدوري ص ٣٩) .

مكتبة جامعة بيرزيت

*

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library